إيريك مادوكس
ديفن سي

المهمة:

القائمة السوداء رقم «1»

القصة الداخلية للبحث عن صدام حسين
كما رواها الجندي الذي كان العقل المدبر للقبض عليه



ترجمة
داوود صالح رحمة

دار علاء الدين

المهمـــــة:
القائمة السوداء رقم .1.

Eric Maddox
Davin Seay

MISSION: BLACK LIST # 1

The Inside Story of the Search for Saddam Hussein
As Told By the Soldier Who Masterminded His Capture

إيريك مادوكس
ديفن سي

المهمة: القائمة السوداء رقم «1»

القصة الداخلية للبحث عن صدام حسين
كما رواها الجندي الذي كان العقل المدبر للقبض عليه

ترجمة

داوود صالح رحمة



منشورات دار علاء الدين

• المهمة: القائمة السوداء رقم «1».

القصة الداخلية للبحث عن صدام حسين

كما رواها الجندي الذي كان العقل المدبر للقبض عليه

• تأليف: إيريك مادوكس - ديفن سي.

• ترجمة: داوود صالح رحمة.

• الطبعة الأولى 2011.

• عدد النسخ 1000 نسخة.

• تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

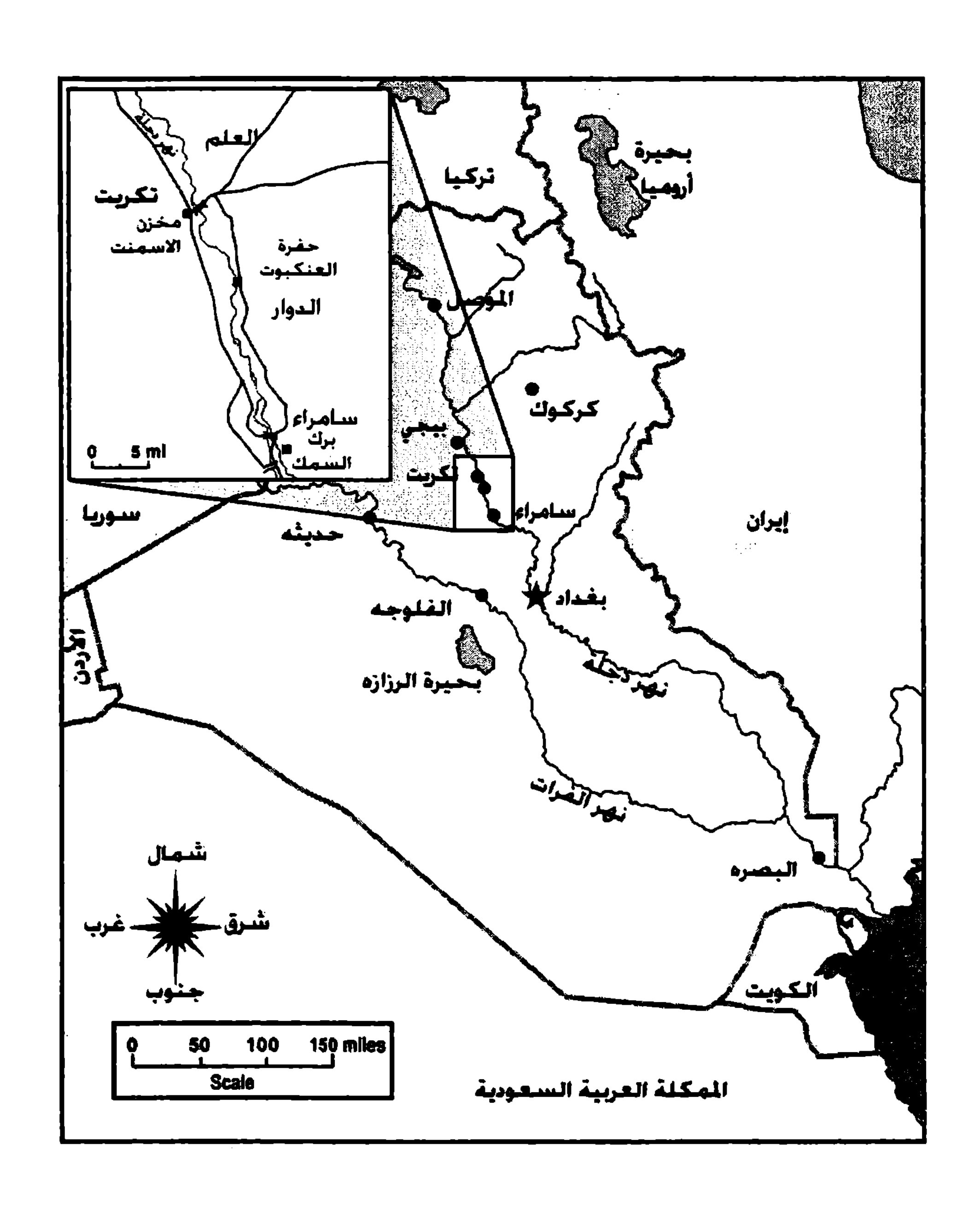
للنشر والتوزيع والترجمة

سورية - دمشق

ص. ب: 30598 هاتف: 5617071 فاكس: 5613241

Web: www.zoyaala-addin.com E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-697-5



العلم
نهر دجلة
تكريت
مخزن
الاسمنت
حفرة
العنكبوت
الدوار
سامراء
برك
السمك
0 5 ml
تركيا
بحيرة
أروميا
الموصل
كركوك
بيجي
تكريت
سامراء
سوريا
حديثه
إيران
بغداد
الفلوجه
الأردن
بحيرة الرزازه
نهر دجلة
نهر الفرات
البصره
شمال
غرب
شرق
جنوب
الكويت
0 50 100 150 miles
Scale
المملكة العربية السعودية

مقدمة المترجم

بعد فضائح سجن أبي غريب وأساليب التعذيب البشعة التي كان المحققون الأمريكان يتبعونها مع السجناء العراقيين الذين لا ذنب لهم إلا أنهم أبرياء من التهم الموجهة إليهم، أو لأنهم أفراد مقاومة شعبية وطنية أبت أن تستسلم للغزو والاحتلال الأمريكيين، وما تلا ذلك من فضائح طالت كبار المسؤولين الأمريكيين من المحافظين الجدد أمثال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ومساعده وولفوتيز وغيرهم من الحقوقيين ورجال القانون الذي وضعوا أو أجازوا أساليب التعذيب والإذلال، جاء هذا الكتاب وكأن صاحبه بشكل مباشر أو غير مباشر يبرئ نفسه من تلك التهم البشعة التي ألصقت بالمحققين.

يقول الكاتب أنه لم يعتمد القسوة أو التعذيب، وإنما كان يلجأ إلى الصراخ أو الكلام المعسول، وبقدرة قادر يتكلم السجين بكل راحة ويفضي بما لديه من أسرار تضر به وبأسرته وبوطنه.

قد يريد الكاتب أن يوهم القارئ بحسه الإنساني عندما يذكر بأن الكثيرين من السجناء الذين تطوعوا بإعطاء المعلومات عن طيب خاطر قد عملوا فيما بعد كمخبرين للأمريكان... هكذا دون إكراه أو تعذيب أو غسل دماغ.

يحاول الكاتب أن يظهر مهارته كمحقق ويعدد أساليب الترغيب والوعود التي كان يكيلها للمتهمين وهو يدرك تمام الإدراك أن شيئاً من وعوده لن يتحقق وأنه لا يستطيع إطلاق سراح شخص متورط. وتأتي قمة الاستغفال عندما يروي تفاصيل التحقيق مع صديق ومرافق صدام حسين (محمد إبراهيم) الذي

باعه للأمريكان ببساطة مقابل وعد بإطلاق سراحه وحمايته هو وجميع أفراد أسرته.

أما ما لم يشرحه، فهو تخبط القوات الأمريكية المغيرة وحيرتها أمام المقاومة. فاعتقال شخص واحد كان يستدعي وجود عشرات الجنود والرماة والقوات الخاصة، وهذا دليل على مدى الخوف الذي كان يعشش في نفوسهم كمحتلين.

كذلك ندرك يأسهم من أقوال المحقق الذي ذكر أنه عند اعتقال شخص كان التهديد المتواصل باعتقال أهله هو الذي يبرر له الاستمرار في عمله كمحقق.

قد يكون هذا الكتاب قصة سردية لعمل مؤلفه، لكنه يعطينا مجالاً واسعاً للتفكير واستنباط أمور أخرى غير موجودة في الكتاب.

داوود صالح رحمة

تمهيـــد

14:00

2003/12/15

لفحتني نسمة باردة من هواء كانون أول وأنا أشق طريقي عبر الممر من الطائرة إلى بناء مطار هيثرو المزدحم. أحاط بي المسافرون في عطلاتهم والذين يسارعون في العودة إلى منازلهم لقضاء عيد الميلاد. بدا المطار المزدحم كمكان سريالي، آمن ونظيف وبعيد مسافات شاسعة عن الحرب التي كنت أخوضها. وعلى الرغم من الضجيج، كل ما كنت أستطيع سماعه هو دقات قلبي وأنا أفكر بالمكان الذي تركته التوة. كان عالماً آخر حقيقياً كاملاً، عالماً غيَّر إلى الأبد، ليس ما كنت عليه، وإنما العالم الذي كنت على وشك الدخول فيه ثانية.

أردت للشعور الحالم أن يستمر، ذلك الشعور الداخلي بالرضا لأنني قد قمت بعملي وأنجزت مهمتي. لكن تركيزي ينصب الآن على مهمة أخرى: أن أجد هدية لولديَّ جو وإيريك مارشال. اعتدت في أسفاري أن أحضر هدايا لولديَّ. لم يكن هناك مخازن للهدايا في المكان الذي أمضيت فيه الخمسة أشهر الأخيرة، لذا فإن شيئاً سريعاً من مطار لندن يمكن أن يفي بالحاجة. وبينما كنت أتلفت لأجد شيئاً مناسباً، لفت نظري جهاز تلفاز في حانة المطار.

لم أكن وحدي، بدأ حشد من الناس يتجمهر ليشاهد الأخبار على الشاشة، مشى رجل إلى المنصة في غرفة مليئة بالكاميرات والمراسلين وظهر اسمه واضحاً وهو ينحني أمام الميكروفون، إنه السفير بول بريمر، رئيس سلطة الائتلاف المؤقتة في العراق.

بدا وكأن ضجيج المطار بدأ يخفت ونحن نحاول أن نستمع إلى ما سيقوله، كما لو أننا كنا نعرف إن هذه إحدى الوقائع التي سنذكرها دوماً، لحظة رئيسة في التاريخ. قال بريمر:

أيها السيدات والسادة، لقد قبضنا عليه.

من المحتمل أن هناك قلة من الناس في العالم من الذين كانوا يشاهدون لم يعرفوا عم كان بريمر يتكلم، لكن كلماته التالية لم تترك أي شك «لقد اعتقل صدام حسين في الثالث عشر من كانون الأول في الساعة الثامنة والنصف مساء حسب التوقيت المحلي في مدينة الدور التي تبعد 15 كيلومترا عن تكريت».

اختلط الهتاف داخل قاعة الصحافة بالغمغمة المختلطة من حولي، وهي مزيج من الدهشة والشك. التفت رجل عجوز نحو صديقه وقال: «لقد كان في قبضتهم طوال الوقت وأخرجه بوش الآن ليكسب الانتخابات الملعونة».

أغمضت عيني وابتسمت لأن هذين الشخصين قد اتفقا على أن إلقاء القبض على الرجل الأول المطلوب في العالم لم يكن سوى عملاً سياسياً مثيراً. لكن الحقيقة أنه كان هناك رجل واحد يعرف القصة الحقيقية للقبض على صدام حسين. وكنت أنا ذلك الشخص.

بعد ساعة، كنت ما أزال أفكر في ذلك الحديث الذي حصل في الحانة وأنا أجلس في مقعدي في رحلتي الطويلة إلى بلدي. ربما لن يعرف أحد القصة الحقيقية لمطاردة صدام حسين، لكن إن رويت، من أين تبدأ؟ ونحن نرتفع في سماء لندن الكثيفة الغيوم، نظرت إلى المدينة تحتي، وتذكرت منظراً آخر طرت فوقه، على مسافة بعيدة من هذه البيوت الهادئة، وبدا أنه هو المكان الجيد الذي أبدأ منه.

الفصل الأول

رحلـــة الليـــل

22:00

2003/7/28

نزلنا إلى علو منخفض على ارتفاع مئة متر فوق الصحراء تحت جنح الليل، وكانت طائرة الهيلوكبتر oh-58 تطير بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة تتخطى المزارع والقرى الصغيرة. لكني لم أكن ألتفت للمنظر. كنت مشغولاً جداً وأنا أتشبث بالحياة العزيزة وأنا في الطائرة محشور في مكان ضيق خلف القبطان حتى أن ساقيَّ قد تدليتا في الهواء، وبجانبي حقيبتي المملوءة حسب الأوامر بملابس تكفيني لمدة يومين.

لقد كان هو اليوم الرابع على وصولي إلى العراق وأنا أحط في قاعدة عسكرية في مطار بغداد الدولي مع صديقي المحقق لي. لقد كنا معاً لمدة سنتين في وكالة استخبارات الدفاع، وفي ذلك الوقت اكتسب لي شهرة كمحقق من الدرجة العليا. وكنت مصمماً على أن أستفيد لأقصى درجة من الفرصة، ومنذ لحظة هبوطي بدأت العمل في استجواب المحتجزين في السجن الذي بُني داخل عنبر الطائرات في القاعدة.

ومنذ ذلك الوقت دأبت على العمل ليل نهار، أختطف وجبة أو بضع ساعات من النوم بين الجلسات. بعد عدة أيام، نصحني بعض المحققين الآخرين أن أرأف بنفسي. فمن السهل أن يحترق المرء في مثل هذا العمل، لكني لم أرد سماع ذلك، فلا أحد يعرف متى ستنتهي هذه الحرب. وحتى يحصل ذلك، أردت أن أحصل على خبرة في التحقيق قدر ما أستطيع.

لكني أيضاً كنت قد بدأت أدرك أن المساجين الذين كنت أستجوبهم لم يكونوا أكثر من مدنيين مرعوبين ومضطربين وليسوا من الرجال السيئين الذين كنا نبحث عنهم.

«الأشخاص السيئون» هو مصطلح كنا نطلقه على أي شخص كنا نطارده. يمكن أن يكونوا من المتمردين أو أعضاء سابقين في نظام صدام حسين أو مجرد مثيري قلاقل قد عبروا نحونا في الوقت الخاطئ، لكنهم بالنسبة لنا أشخاص سيئون، وقد تواجد الكثيرون منهم ذلك الصيف. لقد بدأ غزو العراق في آذار وقد مضى وقت كاف كي تقوم المعارضة بتنظيم نفسها. وقد واجهنا سلسلة عريضة من الأعداء البعثيين السابقين ومسؤولي النظام وضباط الجيش والمقاتلين الأجانب والجهاديين.

نتيجة لجهودنا في جمع المعلومات الاستخباراتية كنا قد تقدمنا. كنت جزءاً من مجموعة من ضباط الحالة والمحللين والمحققين من مختلف الوكالات والفروع العسكرية، كانت لدينا مهمة كاملة: أن نجمع معلومات استخبارية حول هويات الأشخاص المتمردين وتأثيرهم وأماكن تواجدهم. كان ذلك منحنى تعليمياً شديد الانحدار.

بدأت أتساءل فيما إذا كانت جهودنا قد توقفت بسبب نقص المعلومات الجيدة. فمعظم استخباراتنا كان يقدمها المخبرون الذين ندفع لهم والذين كان من الواضح أن لديهم حافزاً لأن يقدموا لنا مفتاحاً لحل لغز سواء كان حقيقياً أم لا. ربما كانت هناك طريقة أفضل للحصول على ما نريد أن نعرفه.

في غضون أربع وعشرين ساعة من وصولنا، سألوني أنا ولي إن كنا راغبين في العمل كمحققين أثناء الغارات التي كانت تشن على البيوت في بغداد بحثاً عن أهداف ذات قيمة عليا وعن تجمع المتمردين المشتبه بهم. لم يكن أي منا قد خرج من محيط المطار، وكنا تواقين لاستغلال الفرصة والخروج خارج الأسلاك لأول مرة. وحيث إن لي كان أعلى مني رتبة، فإنه ولا شك سيكون الأول في الخروج لكنه وعدني بأن يدعني أذهب في المهمة القادمة.

ليلة القيام بالغارة كنت أراه مبتهجاً وقليل العصبية مع أنه قد بذل جهده كله كي لا يظهر عليه ذلك. كنت أدرك السبب. لقد كان العمل محفوفاً بالمخاطر، لكنه بعد ذلك كان قادراً على القول إنه جزء من غارة أثناء الحرب في أرض عدائية.

قبل دقائق من الذهاب تم إلغاء الغارة فجأة. غادر لي متجهاً إلى مكان إقامته وهو يشعر بالأسى.

سألته مازحاً: «هل يهم ذلك؟». نظر إلي وقال: «لا» ثم هز كتفيه قائلاً «إنني داخل وإذا حدث شيء في الساعات القليلة القادمة فهو لك».

حدث شيء. ذاك المساء ولي في سريره، أتى جندي يبحث عنه فقلت له «إنه نائم. ماذا هناك؟».

«إنهم يبحثون عن محقق للذهاب إلى تكريت». نبض قلبي بشدة وسألت: «ما الذي يجري؟».

«لقد اعتقلوا أحد الحراس الشخصيين من الحماية هناك وهو سكران جداً، وقد يكون يعرف شيئاً. هل مصرح لك بالذهاب؟».

«إنني في الواقع البديل الجاهز لأي شيء يحدث» أجبته.

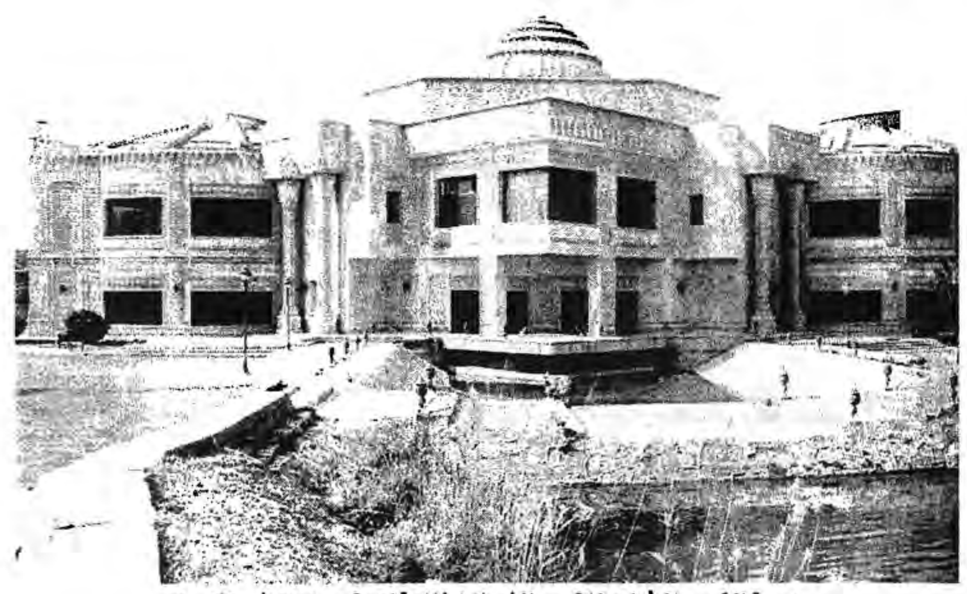
أجاب: «اجلب معك ما يكفي بضعة أيام واحمل سلاحك. الهيلكوبتر بالانتظار».

★★★

قلة النوم التي عانيتها في الأيام القليلة الماضية بدأت تفاجئني أثناء رحلة الخمس وثمانين دقيقة إلى تكريت. وفي كل مرة كنت أغمض فيها عيني، كنت أشعر بأنني أنزلق من تلك البعوضة المعدنية لأفيق ثانية.

أخيراً هبطنا، خرجت من الطائرة وأنا أحس بالخدر. ثم ظهر من الظلام شخص ضخم ذو شاربين كمقود الدراجة، ومن دون دعوة جذبني قائلاً: «هل أنت المحقق؟». أومأت برأسي ومشيت خلفه نحو مركبة همفي. افترضت أنني في

تكريت، لكن ليست هناك وسيلة لأعرف ذلك. فبالكاد كنت أستطيع في ذلك الظلام معرفة حدود المجمع العسكري ثم اكتشفت فيما بعد أنني قد هبطت في معسكر الحصان الحديدي وهو مقر قيادة الفوج الرابع مشاة المسؤول عن تكريت والمقطع الشمالي من المثلث السني. بعد عدة دقائق مررنا على نقطة تفتيش وسرنا في الطريق الموصلة إلى القصر.



صورة القصر المشابه للقصر الذي اتخذناه قاعدة عمليات في تكريت

عرفت الكثير عن تكريت في الأيام التي تلت. فكونها بلدة صدام حسين، كانت مليئة بالقصور والعزب والمزارع الخاصة بالنخبة الحاكمة، ومعظمهم من أقارب صدام حسين أو من حلفاء عشيرته. والقصر الذي وصلنا إليه كان في واقع الأمر قصر عطلة وعزلة لزوجة صدام.

للقصر واجهة من طابقين مع شرفة حول كامل الطابق الثاني. تبعت مرافقي عبر البوابة العريضة إلى قاعة استقبال واسعة مليئة بصناديق الذخيرة وتشكيلة كبيرة من الأسلحة. الأثر الوحيد الباقي والدال على سكانه السابقين كان بعض الأرائك واللوحات وصور صدام التي ما تزال معلقة على الجدران. ذهبنا إلى الطابق الثاني واجتزنا ممراً طويلاً أوصلنا إلى غرفة جيدة

الإنـارة. كـان بعض الجنـود مجتمعين حـول خارطـة يتحـدثون بـصوت منخفض. وعرفت فيما بعد أنني كنت في غرفة أوامر العمليات، وكان الرجال يخططون لمهمة.

انتقـل تركيـزهم الـشديد مـن الخارطـة إلـيَّ ونحـن نـدخل. قـام الـسائق بـالتعريف، أولاً جـاك، الرائـد الـذي كـان الـضابط المسؤول عـن فرقـة العمـل الموجودة في القصر. كانوا على درجة عالية من التدريب والتجهيز، وكانت تناط بهم أخطر وأصعب مهمات الحرب. وحسبما عرفت فيما بعد، فإنه نظراً لـسمعتهم كـانوا في غنـى عـن أي شـخص خـارج مجمـوعتهم. لم يكـونـوا أبـداً جلفـين أو متعجـرفين، لكـن لأنهـم أفضل الأفضل، لا يريـدون أن يتعـاملوا مـع مـن هـو أقل منهم.

هذا الوضع لخصه مات، الرجل الثاني في القيادة. بطوله البالغ ستة أقدام وبوصـتان، ووزنـه 220 رطـلاً إنجليزيـاً وكـتفين كـأكتـاف الثـور، يعطـي مـات انطباعـاً فوريـاً. والنظـرة الـتي وجههـا لـي تلـك الليلـة أوضـحت بأنـه لا فائـدة مـن الراكب المتشبث الذي يعد القفزات دون أن يستطيع القفز بالمظلة، مـا لم أبـرهن العكس.

«ألا أعرفك من مكان ما؟». سألني وهو يقيسني بنظرته. بلعت ريقـي، فلو كنـت قـد قابلتـه لتـذكرت فقلـت: «لا أظـن ذلـك. أخبرونـي أنكـم بحاجـة إلى محقق».

عضو ثالث في الفريق، شعره أحمر مجعد تقدم نحـوي وعـرف عـن نفسه على أنه جيف. «قبضنا على بعض الأشخاص ونظن أنهم مـن أفـراد حماية صدام حسين». شرح بلكنة تكساسية عميقة. «أحدهم ثمل جداً لا يـستطيع الكـلام وقـد يكـون لدى الآخر ما يعرفه».

قلت: «إنني هنا لأتحدث مع أي شخص تريدون مني أن أتحدث معه».

قال جاك: «هذا جيد لأنه قبل أن تبدأ، نريد منك أن تقوم بشيء آخر».

قلت: «أي شيء».

«إننا نحضر لغارة ونريدك أن تأتي معنا» قال ذلك وهو يشير إلى الخارطة التي أمامه.

★★★

كان الوقت قرابة منتصف الليل عندما أعطاني جيف وجاك ومات فكرة مختصرة عن سير الغارة. إننا نتعقب دليلاً قدمه مصدر من المستوى المنخفض ادعى بأن أحد حماة صدام حسين القدامى موجود في مزرعة على أطراف البلدة. وكان من المفروض أن يغادر إلى سورية لمقابلة صدام. وعملي هو معرفة مكان اللقاء.

بعد هذا الإيجاز، أرسلوني إلى الطابق الأسفل حيث كانت مجموعة من الجنود يتجهزون للقيام بالمهمة. ولعدم معرفتي بما يجب أن آخذه معي في الغارة، بدأت أفتش بين أغراضي التي جلبتها معي من بغداد، فقال مات: «خذ ما تحتاج».

«هل آخذ بندقيتي؟». لا شك أنني كنت أخرق لأسأل مثل هذا السؤال. قال بجفاف: «أجل، فالسلاح فكرة جيدة».

«ماذا عن خوذتي؟». قال: «مفيدة دوماً». لذا قررت بعدها ألا أسأل شيئاً.

حضر جيف ليعرفني على المترجم الذي سيصحبني. كان اسمه جاريد، نظر إلي كما لو أن ذهابي في هذه الغارة هو آخر شيء كان يريد القيام به.

لقد كانت لي بعض التجربة مع مترجمين في بغداد. كانوا في معظمهم من العراقيين - الأمريكان الذين تعاقدوا مع الجيش بسبب مهارتهم اللغوية. وكان معظمهم يظن بأنهم يعرفون كل شيء وأن المحقق لا يعرف شيئاً. وفي حالتي، كان الأمر حقيقة فعلاً. فإذا سألت ما الذي يفكرون به على أنه سؤال سخيف أداروا عيونهم وبدؤوا يسألون أسئلتهم، وإذا حصلت على رد عائم من السجين سيقولون لك إنه لا يعرف شيئاً ويتركون الأمر عند هذا الحد. لقد كانوا

بالتأكيد في صفنا، لكن في معظم الحالات، لم يكن ذلك ليجعل العمل معهم أمراً هيناً.

لم يكن جاريد مهتماً بأن يجعل المسائل أسهل حتى جذبني جيف جانباً وأخبرني عن السبب. لقد كان المترجم سيسافر في اليوم التالي كما أخبرني وأن هذه آخر مهمة له.

«إنني أقدر لك مساعدتي هذه الليلة يا جاريد» قلت له ونحن نربط أحذيتنا. «لقد كنت في بغداد طوال الوقت. ما الهدف المعلن هنا في تكريت؟ الهدف المعلن هو قائمة الأشخاص السيئين الذين يتعقبهم الفريق في تكريت. كنت مصمماً على الحصول على معلومات بقدر ما أستطيع بغض النظر عن أي شيء. ولا بد أنني بدوت كالأحمق وأنا أنظر إلى تعبير وجه جاريد الذي كان ينم عن الملل. استمر في ربط حذائه وهو صامت وأنا أحاول أن أجرب أسلوباً آخر عندما قلت: «أظن إنك هنا منذ مدة. هل من أفكار مفيدة لقادم جديد؟».

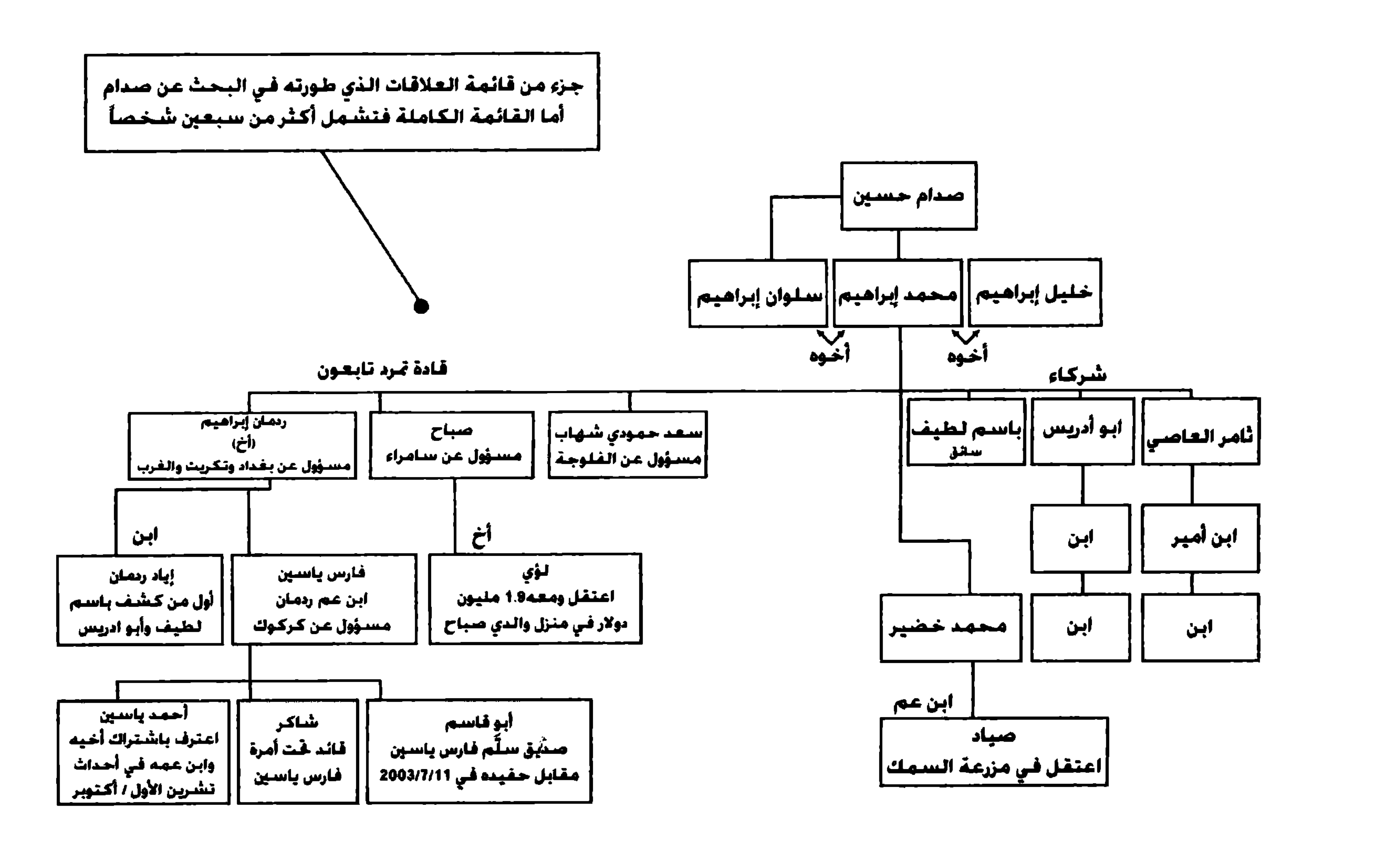
أثار هذا الكلام انتباهه. فقد كنت الآن لا أسأل عن معلومات، وإنما أسأله عن رأيه.

«ركز على أفراد حماية صدام حسين. كلهم من أقارب صدام وجميعهم من تكريت». ثم نظر إلي وقال: «معي قائمة مرتبة أبجدياً بعشائرهم كلها، وأنا أكتب إذا قتل الواحد منهم أو أسر أو كان غير معروف. أكثر من مئتي اسم».

«هل أستطيع رؤيتها؟».

«إنها على الكمبيوتر، لكن تستطيع أن تأخذ نسختي»: فتّش في حقيبته ثم أخرج بضع ورقات مليئة بأعمدة مفردة.

ألقيت نظرة سريعة على نسخته بخط يده ولاحظت أن كلمة «غير معروف» موجودة مقابل معظم الأسماء. وسألته باستغراب: «كيف تضع كل ذلك مع بعضه؟».


جزء من قائمة العلاقات الذي طورته في البحث عن صدام
أما القائمة الكاملة فتشمل أكثر من سبعين شخصاً
صدام حسين
خليل إبراهيم
محمد إبراهيم
سلوان إبراهيم
أخوه
أخوه
شركاء
ثامر العاصي
أبو أدريس
باسم لطيف
سائق
ابن أمير
ابن
ابن
ابن
محمد خضير
ابن عم
صياد
اعتقل في مزرعة السمك
قادة تمرد تابعون
سعد حمودي شهاب
مسؤول عن الفلوجة
صباح
مسؤول عن سامراء
ردمان إبراهيم
(أخ)
مسؤول عن بغداد وتكريت والغرب
أخ
لؤي
اعتقل ومعه1.9 مليون
دولار في منزل والدي صباح
ابن
فارس ياسين
ابن عم ردمان
مسؤول عن كركوك
إياد ردمان
أول من كشف باسم
لطيف وأبو ادريس
أبو قاسم
صديق سلّم فارس ياسين
مقابل حفيده في 2003/7/11
شاكر
قائد تحت أمرة
فارس ياسين
أحمد ياسين
اعترف باشتراك أخيه
وابن عمه في أحداث
تشرين الأول / أكتوبر

اختفى الملل عنه فجأة وبدا أنه يفخر كثيراً بإنجازه. ثم قال لي: «أثناء الشهور القليلة الماضية كنت أجد بالصدفة أسماء أفراد الحماية وأفراد أسرهم، لذلك نظمت القائمة. على سبيل المثال: أحد أفراد الحماية الذي نسعى وراءه الليلة هو من آل المصلط، وهي إحدى أكبر القبائل الموالية لصدام» وأشار إلى مقطع في قائمته يضم حوالي الأربعين من قبيلة المصلط.

قلت له: قرابة «أيها يجب أن أعطيه اهتماماً خاصاً؟».

أستطيع القول إنه قد قدر اهتمامي بعمله، فقد أثرت اهتمامه الآن، كذلك شعرت بأن ما يخبرني به قد يبرهن أنه مفيد جداً.

وضع إصبعه على اسم آخر في القائمة وقال: «الحدوشي، لا سيما محمد الحدوشي، كان مقرباً جداً من صدام حسين». مال إلى الأمام وقال: «قد يكونا ما يزالان على اتصال».

كان هناك شيء آخر أردت معرفته. وسألت جاريد: «لماذا تركز على أفراد الحماية؟».

قال وكأنما يشرح الأمر لصبي: «انظر. هناك هجمات تجري طوال الوقت في تكريت، ولا بد من أشخاص يقومون بذلك، وأعتقد أن أفراد الحماية هؤلاء لديهم بعض الإجابة».

«وعليه فأنت محقق؟». قلت له.

هز رأسه ثم أشار إلى الرجال حولنا وهم يستعدون للغارة. «هؤلاء الرجال يقومون باستجوابهم الخاص وأنا أترجم فقط. لكنهم عندما ينتهون، يتركونني أحياناً أسأل عن الأسماء في قائمتي، وبعد ذلك، ننقل السجناء إلى سجن مطار بغداد الحربي كي يتم استجوابهم هناك».

كنت أعرف أفضل منه. كان هناك العديد من السجناء في مجمع المطار ومعظمهم مكدس هناك حتى يفكر شخص ما بماذا يفعل بهم، والسجناء الذين كانوا يجلبونهم من تكريت لم تكن لهم الأولوية، لكن المعلومات التي زودني بها المترجم أوحت لي بفكرة. بعد خمسة أيام في بغداد وأنا أحقق مع مساجين من

الدرجة المنخفضة، لم أشعر أنني قد أنجزت الكثير. ربما أكون أكثر فائدة في تكريت، وربما يكون هناك شيء خاص فيما يتعلق بنظرية جاريد عن أفراد الحماية.

«هل تظن أنهم سيستخدمون محققاً بدوام كامل هنا؟». سألت.

«ليس فعلاً. فقد تدبرنا أمرنا حتى الآن».

لم يكن ذلك هو الجواب الذي كنت أتطلع إليه حتى الآن، لذا رجعت إليه عن طريق آخر وسألت: «من أين تأتون باستخباراتكم؟».

في الخمس دقائق التالية أعطاني جاريد ملخصاً عن وضع التمرد في تكريت. وقال إن الفوج الرابع مشاة هو الذي طور مصادر المخبرين في المنطقة وهم يمررون المعلومات التي يحصلون عليها إلى قوة المهمات. كانوا في البداية مشغولين جداً في مطاردة الأهداف ذات القيمة العليا التي كانت محتشدة في مدينة صدام، لكن لم يطل الوقت حتى نفذت الأهداف. لكن الطريقة التي رآها المترجم هي أن السبب الوحيد الذي أبقاهم في المنطقة هو عزت إبراهيم الدوري.

سألته مظهراً جهلي: «من هذا؟».

أجابني جاريد: «إنه القائمة السوداء رقم ستة، كما تعلم من أوراق الشدة». كنت أعرف ذلك الجزء. فوزارة الدفاع أصدرت أوراق لعب عند بداية الحرب وكان هناك على وجه الورق صور 55 شخصاً هم أكثر المطلوبين أهمية في العراق هي القائمة السوداء. كان صدام الرقم واحد، الآس البستوني، وولداه عدي وقصي الرقمين 2 و 3 وقد تمت تصفيتهما في تبادل لإطلاق النار في الموصل قبل يوم من وصولي إلى بغداد.

ورقم 4 أمين سر الرئاسة حميد محمود ورقم 5 على القائمة علي الكيماوي المشهور، أما عزت الدوري رقم 6 ملك السباتي فكان أعلى مستشار عسكري لصدام ومشتبهاً به أساسياً في أعمال التمرد حول تكريت. كان هناك 52 اسماً بالإضافة إلى 3 جواكر لتجعل العدد 55 شخصاً.


7
محمد ذياب الأحمد
وزير الداخلية


8
طارق عزيز
وزير الخارجية


J
أبراهيم أحمد
عبد الستار التكريتي
رئيس أركان الجيش


K
علي حسن المجيد
وزير الدفاع


10
طه الجزراوي
نائب الرئيس


Q
كمال التكريتي
أمين وسكرتير
الحرس الجمهوري


Q
برزان عبد الغفور
سليمان المجيد
التكريتي
قائد الحرس الخاص

كانت أوراق اللعب هذه جزء من جهد رئيسٍ لمطاردة صدام وأعوانه في أنحاء البلاد جميعها. ولم يكن هناك سؤال حول أن العثور عليه هو الأولوية الأولى. فالقوات البرية وقوات العمليات الخاصة وعناصر المخابرات قد قلبوا أرض البلاد بحثاً عنهم في الشهور التي تلت الاحتلال. وكل شخص على هذه الأوراق يمثل هدفاً ذا قيمة عليا. لم أسمع أحداً يقول ذلك، لكننا كنا نسعد لو قايضنا كل رجل مطلوب بصدام.

قال جاريد: «إننا واثقون من أن الدوري ما يزال في مكان ما هنا، وإذا وجدناه فقد يقودنا إلى صدام».

أردت أن أسأل سؤالاً آخر، وآخر. لكن مخزون جاريد كان قد نفد، والفريق مستعد والغارة على وشك الحدوث.

الفصل الثاني

خارج الأسلاك

00:45

2003/7/29

ثمانية منا سيقومون بهذه الغارة الليلة. أنا وجاريد وستة مسلحين من قوات المهمات بما فيهم شخص قدم نفسه لي على أنه كارل، وكانت مهمته حمايتي أثناء العملية.

قال لي: «ابق قريباً، سنلتحق بفصيلة من الفوج الرابع مشاة. وعملنا هو استغلال الموقع الحساس، الفوج الرابع مشاة سيطوق المكان ثم نذهب نحن للبحث واستجواب من نجده».

«المصلط» قلت بعد أن تذكرت ما قاله لي جاريد.

أجاب: «هذه هي الخطة». لكن شيئاً في صوته أخبرني إن الغارة لا تسير دوماً حسب الخطة. لحقت به إلى خلف القصر حيث كانت ترابط سيارتا مرسيدس سيدان، وعلمت فيما بعد أن هذه السيارات كانت تقودها بنات برزان، الأخ غير الشقيق لصدام. كان برزان واحداً من أهم المطلوبين في العراق رقم 5 سباتي، وكانوا قد أغاروا على منزله قبل وصولي. ومن يومها والفريق يستخدم سيارات البنات.

كانت الساعة بعد الواحدة صباحاً عندما صعدت أنا وجاريد إلى مقعد خلفي في إحدى السيارتين، وكان كارل يقود السيارة وبجانبه سام المسلح ببندقية. أما

الأربعة الباقون فكانوا في السيارة التي أمامنا. انطلقنا متوجهين إلى معسكر الفوج الرابع مشاة قرب بيجي وهي قرية شمال تكريت.

السفر بين القصر وموقع الفوج الرابع مشاة كان في أرض عدوة وعرضة لقذائف آر بي جي والقنص والنيران التي يمكن أن تأتي من أي مكان. وحيث إنه كان هناك منع تجول بعد التاسعة مساء في هذا المكان، فإن أي شخص على الطريق لا بد أن يكون أمريكياً. كنا نسير بسرعة وأثناء دقائق كانت سحب الغبار تملأ الجو.

عند وصولنا إلى آخر منحنى على بعد ميل من بيجي، انفجر الظلام الحالك حولنا بفوضى عارمة، وانعطف السائق بعنف ليتجنب إطلاق النار، وبدا أننا محصورون ضمن هذا البرميل المعدني. عرفت أن النار قد أتت من مدفع رشاش عياره 50 مليمتر.

اختفت السيارة التي أمامنا وسط الغبار وضغط كارل الفرامل ثم فتح باب السيارة وقفز منها وهو يصيح أمريكي أمريكي.

انقطعت النار فجأة مثلما بدأت وجلسنا نحن الثلاثة صامتين ننتظر ما سيحدث بعد ذلك، لم أكن أفكر بشيء وإنما كان عقلي يتنقل من حقيقة أن النار أطلقت علي ونبضي يطن في أذني. إذن هذا هو الحال خارج الأسلاك.

عاد كارل ثانية وجلس في مقعد السائق ممسكاً المقود ومحاولاً أن يلتقط أنفاسه.

سألت سام: «ما الذي حدث؟». أجاب كارل وهو يدير السيارة نحو الطريق: «الحارس الموجود هناك لم يكن لديه علم بوصولنا، وقال إننا نحن الذين أطلقنا النار أولاً، لحسن الحظ لم يستطع إطلاق النار بشكل مستقيم.

«ماذا عن الآخرين»

إنهم بخير، دعونا نلحق بهم وبعدها نفكر بما حصل، ثم استدار إلى المقعد الخلفي وسأل: «هل أنتما على ما يرام؟».

«ليس من مشكلة» أجبت وأنا لا أتذكر هل أتيت بملابس داخلية إضافية لأن التي ألبسها قد تخربت. لم أتعرض إلى نار صديقة من قبل، ووجدت نفسي أتعجب من هذا الاصطلاح، نار صديقة أم لا ورشاش من عيار 50 مليمتراً لا بد أن يقتلك.

★★★

كان الفوج الرابع مشاة بانتظارنا في معسكر بيجي وكان ضخماً جداً. واكتشفت فيما بعد أن هذه هي الطريقة التي تجري بها معظم العمليات، الكثير من القوات أكثر مما يتطلب الأمر. وعندما بدلنا المرسيدس بمركبة همفي سنحت لي فرصة التحدث مع ضابط الاستخبارات الذي طور معلومات الغارة. كان مصدره صبي سلم فيما قبل صناديق أسلحة. أما الليلة فهي مختلفة لأنها معلومات عن هدف كبير.

اكتشفت أن اسم الحارس الشخصي الذي نسعى وراءه هو نظام حسن جاسم المصلط. كان الاسم طويلاً ومعقداً لكنه كان مفيداً في إنشاء روابط مع الحلفاء المتشابكين. فبالنظر إلى الاسم، تستطيع أن تعرف لمن هو قريب وأين مكان ولائه.

وبحسب المخبر، فإن ولاء نظام كان ثابتاً لصدام حسين، رئيسه السابق. وكان المفروض أن يذهب نظام عبر الحدود السورية ذلك الصباح، ربما ليقابل صدام هناك. أردت أن أعرف من أين استقى الصبي معلوماته القيمة، لكني لم أسأل وصعدت إلى مركبة همفي مع بقية الفريق وقاد كارل السيارة وهو يشرح لنا ما سيحدث.

«سنبقى في الخلف ونتركهم يقومون بالغارة ثم نفتش المكان». استدار نحوي وقال: «ستتكلم مع من نجده هناك وأعطني خبراً بما تجده».

توقفت المركبة على جانب الطريق ونزل الفريق لصنع محيط آمن، وبقيت أنا وجاريد قرب المركبة، لم يكن هناك من صوت سوى طنين الحشرات، وعندما سمعت صوت كسر الباب أدركت كم كنا قريبين من المنزل فعلاً.

على الفور انطلقت نحو ثلاثين رصاصة من رشاش لا تستعمله قوات الائتلاف. لا بد أنه متمرد. حصل بعض الصراخ ثم صرخات فزع، ثم السكون ثانية. بعد خمس دقائق مليئة بالتوتر، عاد صوت الراديو إلى الحياة. لقد طلبوا منا أن نتحرك.

كانت أرض الساحة المغبرة تعج بجنود مشاة الفوج الرابع الذين كانوا يحيطون ببيت مزرعة مبني من آجر الطين وعلى مستوى الأرض. وعندما وصلنا إلى الباب الخارجي أشار كارل إلى أحد المسلحين ليرافقني إلى الداخل، وقال لي: «هذا هو سوبر فلاي». لقد كان يرافقني لأنه ربما كان أصغر رتبة في الفريق ثم لحق بنا جاريد.

في غرفة واسعة ذات سطح منخفض كان هناك رجل يجلس على الأرض، وفوقه اثنان من قوة مشاة الفوج الرابع.

«ها هو فتاك»، قال أحدهم ونحن ندخل.

كانت يدا الأسير مقيدتين خلف ظهره وعصابة سميكة على عينيه. كان قميصه يغطيه الدم الذي رأيته ينزل إلى فكه ورقبته.

«هل أطلقتم النار عليه؟». سألت.

«لا»، أجاب الحارس. من حسن حظه أننا ضربناه فقط. لقد كان هو الذي فتح النار علينا».

«لو أننا أطلقنا النار عليه لكان ميتاً حالما شاهدنا لمع فوهة رشاشه». أجاب سوبر فلاي. أخذت نفساً عميقاً واقترحت عليهم»: لماذا لا تزيلون العصابة عن عينيه؟». أردت أن أنظر في عينيه عندما أستجوبه.

استجاب أحد الحراس وأزاح القماشة المبللة بالدم. لم أكن أحب أن أرى الدم، ويرجع ذلك إلى أيامي الأولى في فوج المشاة عندما كانت تحصل الحوادث، وكنت دوماً أخفي ذلك.

كان ذلك أكثر شيء قسوة. ففي المكان الذي يجب أن تكون فيه عينه اليسرى كان هناك تجويف فارغ. ركعت وسألته: «هل أنت نظام حسن؟ وكان جاريد يترجم.

السجين النحيف الذي لفحته الشمس وكان في الخمسين من عمره هز رأسه. «من أنت؟». تلعثم وهو يذكر اسمه.

«هل تعرف نظام حسن؟». هز رأسه ثانية وبدا مرعوباً. اقتربت منه أكثر وسألته ثانية. هذه المرة بدأ يتكلم كلاماً كثيراً بالعربية، فسألت جاريد: «ماذا يقول؟».

إنه يقول إن نظام يملك المكان وهو فقط يعتني بالمزرعة، ويقول إنه ظن أنه يتعرض لسرقة، لذلك فتح النار.

«متى كانت آخر مرة رأيت فيها نظام؟».

«لقد كان هنا قبل أربع ساعات».

«أين هو الآن؟». وتلقيت نظرة رعب من رجل أعور. وبعد بضعة أسئلة استطعت أن أستخلص منه أن نظام قد غادر مبكراً إلى بيته قرب بيجي. ومضى يصف لي البيت بأن عليه هوائي تلفزيون كبير على السطح.

«لقد كنا في ذلك المكان من قبل». قالها رقيب في الفوج الرابع مشاة، وكان قد انضم إلى الآخرين لمشاهدة الاستجواب. ثم أردف: «إنني أعرف مكانه بالضبط». لم أدرك الأمر في ذلك الوقت، لكن وصف بيت أحد أفراد الحماية السابقين لم يكن أمراً عظيماً بحد ذاته. ففي الوقت الذي وصلت فيه إلى تكريت، كان كل بيت يملكه أحد أفراد النظام السابق قد تعرض للإغارة مرة على الأقل. لكن المختلف في هذه المرة هو أنه من المحتمل أن نجد أحدهم في بيته.

نقلت ما حصلت عليه إلى كارل الذي استشار قائد فوج المشاة الرابع ثم قال: «أخبر هذا الرجل بأنه محظوظ للبقاء حياً، وأخبره أيضاً أن يبقى ساكناً في مكانه حتى نذهب من دون أن يأتي بأي حركة». ثم التفت إلى الفريق وقال: «نحن ذاهبون إلى بيجي».

بعد عشرين دقيقة، تم تأمين الهدف الثاني. لقد كان كما وصفه الرجل العجوز، حتى الهوائي على السطح. لكن نظام لم يكن هناك. وبدلاً من ذلك وجدت نفسي أستجوب خمسة فتيان جريئين، اعترف اثنان منهم إنهما أبناء أخ

ضالتنا. لم يروا عمهم منذ أشهر، كما أقسموا. ومع أنني كنت أعلم أنهم يكذبون، إلا أننا لن نصل إلى شيء.

كانت الساعة السابعة صباحاً عندما رجعنا إلى المجمع. التف الفريق حول مائدة عريضة في غرفة الطعام في القصر ليتحدث عن وقائع الليلة الفائتة وهم يشربون الكولا ويتذكرون واقعة النار الصديقة.

كان لا بد لأحدهم أن يخبرني أين سأنام. لا أدري كيف وصلت إلى السرير، ولا أدري كيف وضعت رأسي على الوسادة.

الفصل الثالث

استجواب

101

ليس هناك من سبب للظن بأنني أمتلك مؤهلات خاصة لأكون محقق القوة الضارية في تكريت. منذ تلك الليلة الأولى للغارة، اتضح لي إن الحصول على معلومات استخبارية جيدة سيتطلب مهارات تختلف عن تلك التي تعلمتها في مدرسة الاستجواب.

لا أقول إنني لم أتلق أفضل تدريب متاح في ذلك الوقت، وربما الأفضل في العالم. في عام 1999 انضمت إلى دورة تحقيق لمدة ثمانية أسابيع في المركز الأمريكي لمخابرات الجيش في فورت هواشوكا بولاية أريزونا. هناك تعلمت التعاليم العسكرية من الدليل الميداني 34-52 وكيف أقوم بالتحقيق الفعال بما يتطابق مع القوانين الأمريكية والدولية. وتعلمت أن أتجنب الحصول على أجوبة مثل نعم ولا عن طريق الأسئلة الاستفهامية: من، ماذا، متى، أين، لماذا، وماذا بعد، وهل من شيء آخر. وتعلمت الأساليب النفسية مثل الكبرياء ورفع الأنا التي تعني رفع نفسية السجين والكبرياء وخفض الأنا التي تعني تمزيقه. كما تعرفت على قواعد اتفاقية جنيف التي تمنع التهديد الجسدي والنفسي أو الأشكال الأخرى من أساليب الإكراه والإجبار للحصول على معلومات.

الذي لم أتعلمه هو كيف أقوم بالعمل فعلاً. ومعظم المدربين لم يكونوا قد استجوبوا أبداً سجيناً فعلياً. فقد كان هناك القليل من الأسرى منذ حرب فيتنام. وافترضت الطرائق والأساليب التي تعلمتها أنني سأكون في ميدان قتال شبيه تماماً

بساحة الحرب، أو حتى شبيه بالحرب العالمية الثانية. لم تكن هناك تحضيرات لحرب مدن عصرية حيث يتواجد العدو في كل مكان وليس في مكان في الوقت نفسه. واكتشفت أنني لا بد أن أبدأ من الصفر.

لكن بالقدر الذي علي أن أتعلمه، فقد كانت لدي قدرات داخلية جلبتها معي إلى المهمة. ومثل أي شخص آخر، فإنني ذكي بالفعل في بعض الأمور وغبي فعلاً في غيرها. وحدث أن الأمور التي أعرفها قد ساعدتني على أن أكون محققاً جيداً، إنها مقدرة ثابتة ولدت معي.



لم تكن نشأتي تختلف عن أي صبي أمريكي آخر. ولدت في انيد بولاية أوكلاهوما وترعرعت في بلدة صغيرة اسمها سابولبا في أطراف تولسا. كنت نشطاً في مجموعتي وكبرت وأنا ألعب البيسبول وكرة القدم، حتى إنني من حبي لكرة القدم حرصت على متابعة نتائج فريق أوكلاهوما سونرز للعام 4-2003 بعد وصولي إلى العراق.

كانت كليتي الأم هي جامعة أوكلاهوما، وعندما غادرتها لم أكن أعرف ما الذي أفعله بقية حياتي. لقد درست العلوم السياسية ولدي فكرة غامضة عن أنني سأذهب إلى كلية الحقوق. لكنني أردت أن أخرج من هذا كله، وأن أفعل شيئاً يجعلني مختلفاً. ذهبت إلى مكتب التجنيد لخدمة بلادي.

خدمة بلدي كانت هدفي الأساسي، لكن كان هناك أيضاً صديق منافس نشأنا معاً في سابولبا. كان كيسي قد التحق بالجيش قبلي بسنة، وبعد ذلك كانت حياتنا العسكرية تسير بالمنحى نفسه. عندما كنت في التدريب الأساسي كان هو في مدرسة الخيالة وعندما التحقت بمدرسة الخيالة، ذهب هو إلى القوات الخاصة. ثم افترقت حياتنا العملية حيث أصبحت محققاً وذهب هو مع القوات الخاصة إلى البوسنة حيث تم تكريمه لإنقاذ مئات الأرواح وهو يعمل هناك.

لم أكن أنافسه، إنما كنت أتطلع إليه وكانت بيننا روابط لا تتفصم حتى في نيسان 2003 عندما مات كيسي في فراشه لأسباب غير معروفة، بعد بضعة أشهر وجدت نفسي في العراق أحمل ذكرى صديقي معي.

★★★

كانت أسرتي مثل معظم أسر أصدقائي الذين يعيشون في بلدة صغيرة في أوكلاهوما، باستثناء أنني وأخي كنا متبنيين. كان عمري بضعة أيام عندما جلبوني من المستشفى إلى البيت، وفي السنوات اللاحقة لم يذكر أبواي أنني كنت متبنى.

ما لم يستطيعا أن يزوداني به كان أي معلومات عن أبواي الحقيقيين. وقد تم ختم السجلات كجزء من عملية التبني، لكن ذلك لم يحل بيني وبين معرفة الحقيقة. كنا نذهب بانتظام إلى انيد في أوكلاهوما لزيارة جديً، وكوني أعرف مكان ميلادي فلا بد أن أبدأ منه. كنت وأنا في السيارة أحدق بالناس المارة، ولا بد أن أحدهم كان أبي أو أمي. وهذا ما جعلني أصمم على معرفة من أنا.

قد تكون هذه إشارة مبكرة لقدرتي على التحقيق. قد يكون ذلك نابعاً من الفضول الطبيعي لأي طفل متبنى. ومع ذلك، ذهبت في عيد العمال إلى انيد لأعرف إن كنت سأكشف هذا السر، وأنا في السنة الأولى الجامعية.

كنت مصمماً على أن أعرف أمي الحقيقية، وجلبت معي ما يكفي من النقود لأنزل في الفندق لثلاثة أيام. وفكرت أن أفضل مكان أبدأ منه هو المكتبة العامة. هناك بحثت في الصحف التي صدرت يوم مولدي، لكن عبثاً. بعد ساعات من الإحباط، أشفق علي أمين المكتبة وقادني إلى قسم السجلات. بحثت في دليل الهاتف والكتب السنوية، وأخيراً عثرت على سجلات التبني. لقد وجدت ما أريده. لقد ترك القاضي عرضاً اسم أمي - وبستر.

عدت إلى الكتاب السنوي لأفتش عن النساء جميعهن اللواتي يحملن اسم وبستر، وبالصدفة عثرت على صورة لفتاة مراهقة تبدو أليفة لي: ديبي وبستر. عندما رأى أمين المكتبة الصورة صاح: يا إلهي، لا بد أنها هي.

اكتشفت من دليل الهاتف أن ديبي وبستر عاشت في انيد في بيت ثلما وبستر حتى عام 1972 - أي السنة التي ولدت فيها. وبمزيد من التدقيق عرفت أن العنوان ما يزال موجوداً.

هنا كان لا بد من التوقف والتأمل. ما الذي أردته من هذا البحث؟ هل هو مقابلة والدتي الحقيقية التي تخلت عني؟ أم أنني أردت أن اثبت أنني أستطيع أن أجدها؟ مهما كانت الحال، علي أن أكمل.

كان منزل وبستر أبيض صغيراً حيث جلست عجوز تدخن على الشرفة. نظرت إليّ بارتياب وسألت: هل أستطيع مساعدتك؟ فوجئت بسؤالها ثم سألتها: هل أنت ثلما وبستر؟

فسألت بارتياب: من يريد أن يعرف؟».

أخذت نفساً عميقاً وقلت لها: أنا من انيد وقد ولدت هنا ثم تبناني آخرون. هل ابنتك هي ديبي؟ إذا كان لها ولد وهبته للتبني فأنا ذلك الشخص.

بعد صمت طويل أجابت: لا... لا... إنك تبدو كبيراً جداً.

10 أيار 1972 هل يذكرك ذلك بشيء؟ ابتسمت أخيراً ودعتني إلى الدخول.

بعد دخولي المنزل أخبرتني ثلما وبستر إن ابنتها تعيش في أوستن، وتطوعت بأن تهاتفها. لم تكن ديبي في البيت، لكن ثلما أرتني بعض الصور، ثم أعطتني صورة لوالدتي وهي في المدرسة الثانوية. شكرتها ثم غادرت.

لم أحاول أبداً أن أتصل بوالدتي أو جدتي ثانية. فالعثور عليهما كان كافياً بالنسبة لي. وأنا أحتفظ بالصورة في مكتبي وأعتبرها أحد أهم ممتلكاتي.



التحقت بالجيش كمظلي وكي أخدم بلدي وأعطي أفضل ما عندي. في عام 1995 ثبت أن الأمر في مدرسة الخيالة صعب جداً وله مطالب. لكنني نجحت وأصبحت قائد مجموعة في الفوج 82 المحمول. وقد حققت أهدافي عندما تطوعت لأول مرة وآن الأوان لأن أبدأ التفكير في أهداف جديدة.

لاحت أمامي فرصة ذهبية عندما تم إرسالي إلى أمريكا اللاتينية من أجل التدريب. بدأت أتعلم اللغة الأسبانية من السكان المحليين، وهذا ما جعلني أفتش في برنامج الجيش للغات الأجنبية. تقدمت إلى الفحص، وفي معهد اللغات التابع لوزارة الدفاع في مونتيري بولاية كاليفورنيا اخترت لغة ماندرين الصينية. هناك كان أمامي خياران: إما أن أكون معترضاً صوتياً أستمع إلى ما يبثه المذياع أو أكون محققاً بلغة ماندرين الصينية، وكان هذا أفضل من الجلوس إلى كرسي والاستماع. وفكرت في أن هذا سيكون مساعداً إذا تركت الجيش وعملت في القطاع الخاص. فمعرفة اللغة الصينية ستكون مهارة يمكن تسويقها.

كانت لغة صعبة لا يمكن إتقانها بسهولة، لكني في غضون ثمانية عشر شهراً جاهدت وأنا أقرأ وأكتب وأتكلم بها، وعندما تخرجت عام 1999 كنت أتقنها تماماً. ومن يومها وأنا أفكر بنفسي كمحقق وإن كنت لا أعرف كيف أقوم بذلك.

أرسلوني إلى بكين حيث ألحقوني بالسفارة كلغوي ومترجم. وكان جُل عملي هو ترجمة مقالات الصحف ومرافقة الشخصيات الأمريكية المهمة في زياراتهم، ومساومة الباعة المحليين.

في أواخر صيف 2000 عدت إلى الولايات المتحدة حيث التحقت بدورة في فورت هواشوكا لأتأهل كرقيب. وعندما كنت هناك التقيت بامرأة في توكسون وتزوجنا في خريف تلك السنة وأنجبنا صبيين، لكن زواجنا لم يدم حيث لم تتحمل زوجتي غيابي المتواصل عن البيت في مهمات للجيش.

هناك عدة تأثيرات للحرب، ليس فقط الإصابات في ساحات القتال، لكن أحياناً، حتى الشخصين الجيدين لا يستطيعان إنجاح زواجهما. ومهما كان القرار صعباً ومؤلماً، إلا أن التزامنا برعاية ولدينا هي أولويتنا الأولى.

عنـد ولادة ابـني الثـاني أعـارني الجـيش إلى وكالـة الاسـتخبارات العسكرية وهناك قابلت لي. وتم إرسالنا في مهمات ثبت فيها فائدة مهاراتنا اللغوية.

ثم جاءت أحداث 11 أيلول، وعندها علمت فجأة أن علي ملاحقة هؤلاء الأوغاد حتى آخر العالم. بدأت أطلب إرسالي بمهمات إلى أي مكان. وحيث إن لي كان يتكلم فارسي فقد كان بالطبع مطلوباً أكثر للعمل كمحقق في أفغانستان وخليج غوانتنامو. لكن عندما طلبوا محققين خبيرين للذهاب إلى العراق، وجدت فرصتي في ذلك ولم أتردد في إبلاغ رؤسائي أنني أتطوع للقيام بكل ما يطلب مني. هناك حرب حقيقية تدور الآن، وأنا على استعداد، وبعد أن رأوا وجهة نظري، أرسلوني إلى هناك.

الفصل الرابع

كلاب الحرب

11:00

2003/7/30

استيقظت في الساعة الحادية عشرة صباحاً منتعشاً ونشيطاً، لم أنم سوى ثلاث ساعات. كان الجميع ما يزالون نائمين، فانتهزت الفرصة لأتجول. وبعد عدة أيام كونت فكرة كاملة عن القصر. في الطابق الأعلى، كانت هناك منطقة مكشوفة واسعة تحتوي على صفوف من الأسرة التي ينام عليها المسلحون، وبعض الأرائك وجهاز تلفاز، وممر يؤدي إلى غرفة العمليات المجهزة بالخرائط والكمبيوترات لاستقبال وتقييم الاستخبارات. ومن الخلف تستطيع رؤية نهر دجلة بحث يشكل مانعاً طبيعياً للقصر.

إلى جانب القصر كان هناك بيت للضيوف وخلفه بركة سباحة كبيرة تستعملها القوة الضاربة. وفي الطابق السفلي من القصر توجد أكداس من صناديق الأسلحة والذخيرة في غرفة الجلوس، ثم مطبخ واسع مفتوح على غرفة الطعام. وكانت الاجتماعات الرئيسة تتم هنا. وتؤدي هذه القاعة إلى غرفتي نوم ثم منطقة الغسيل التي توجد بها غسالة ونشافة.

كنت أضع بعض قطع ثيابي في الغسالة عندما سمعت صوتاً من خلفي يقول: «ما الذي جعلك تصحو مبكراً؟» استدرت لأرى أحد الجنود الذين تواجدوا في غرفة العمليات مساء البارحة، ولم أستطع تذكر اسمه.

ذكرني باسمه وهو يمد يده: «ريتش، أنا المحلل هنا».

كـان ريـتش ينـام في الطـابق الأسـفل ومعـه كـريس والـضابط المسؤول عـن المخبرين ولاري الـذي يرسـل المعلومـات إلى الولايـات المتحـدة. كـان ريـتش جـزءاً مـن فريق الاستخبارات، وكـان عملنا هو جمع بيانات موثوقة تحضيراً للغارات التالية.

وبينمـا كنـا نتحـدث في غرفـة الغسيل، حـصلت علـى معلومـات رئيـسة أخـرى أضـفتها إلى مـا علمتـه مـن جاريـد وارتـسمت أمـامي صـورة أوضـح عـن الوضـع في تكريت.

أخبرني ريتش أن مهمـة القـوة الـضاربة هـي اصـطياد الأهـداف العاليـة الأهميـة وأن تكـريت، بلـد صـدام، قـد ضـربت بـشدة وبتكـرار. وقـال ريـتش: «نحـن الآن سـنذهب خلـف أي شـخص يمكـن أن نجـده، سـواء مـن المتمـردين أو أعـضاء حـزب البعث أو المتعاطفين مع صدام، وطالما نحن هنا، علينا القيام بعمل ما».

فكـرت في هـذا الكـلام وأنـا أتـذكر نظريـة جاريـد عـن أفـراد حمايـة صـدام وأن علي أن ألقي نظـرة عليها وهـي ما تـزال معي. وسـألته: «هل اقتربتم مـن أحـد مـا؟». فأجـاب: «لـيس فعـلاً، لكننـا في الآونـة الأخـيرة كنـا نقتفـي آثـار شـخص اسمـه الحدوشـي». سـألته: «محمـد الحدوشـي؟». كـأنمـا الاسـم قـد قـرع جرسـاً، فهـذا مـن أفراد الحماية ولا بد أنه ما يزال على اتصال بصدام حسين. فأجـاب: «نعـم، إنـه هـو، لقد قُتل ابن أخته عندما قتلوا عدي وقصي قبـل عـدة أيـام. أن ارتباطـات هـذه الأسـرة مهمة جداً».

«كيف تحصلون على معلومات عن هـؤلاء الأشـخاص؟». كـان سـؤالي التـالي. فقـال: «لـدينا مـصادر لكنهـا ليـست موثوقـة جـداً، فمعظمهـم سُلموا لنـا مـن أولئـك الرجال الذين كانوا قبلنا».

الأصوات الـتي تعالـت مـن القاعـة قطعـت علينـا الحـديث، فلحقـت بـريتش إلى قاعة الطعام حيث كـان أفراد القـوة الـضاربة يـأتون واحـداً تلـو الآخـر لتنـاول الفطـور. بعدها كيفت نفسي على برنامج يبدأ آخر النهار وينتهـي في الـصباح البـاكر. ولا بـد لي أن أعرف كل واحد والدور الذي يقوم به.

نـواة القـوة الـضاربة كانـت سـتة مـن الجنـود المـدربين جيـداً، وهـم الـذين يقومـون بالغارة، حتى عندما لا تكون لهم مهمـة، فإنهم يعملـون كفريـق مترابط جـداً. ينـامون في

المكان نفسه ويتناولون الوجبات معاً، لم يفخروا قط بوضعهم كوحدة نخبة عسكرية. وكونك جزء من هذه الوحدة يجب أن تعامل رؤساءك بتواضع واحترام. لكن كان هناك تمييز ملحوظ بينهم وبين باقي العالم. وعلمت منذ ذلك الصباح في أي جانب أقف.

كان معي في الصف الذي أقف فيه المحلل ريتش وكريس ضابط الحالة وبقية فريق الاستخبارات الذي ضم ثلاثة حراس شخصيين يرافقون كريس عندما يلتقي بالمصادر التي تزوده بالمعلومات، وفني قنابل وعامل راديو واتصالات وتكتيكي جوي كانت مهمته تنسيق الدعم الجوي للغارات، وإذا عددنا جاك ومات الضابطين الأول والثاني، فإن القصر كان يضم ستة عشر شخصاً ناهيك عن محلل يزور بين الحين والآخر وكذلك الضباط الزائرين من بغداد.

وصل كامل الفريق إلى تكريت قبلي بثلاثة أسابيع وما يزالون يحاولون التكيف مع الجو. أصغيت باهتمام إلى المسلحين ونحن على مائدة الطعام وهم يتحدثون عن حقائق غارة الليلة الماضية أثناء تناولهم للفطور.

كان إفطاري وجبة مطهوة سريعة التحضير، ولاحظت الثلاجة وغرفة المؤونة المليئتين بمختلف أنواع الطعام، لكني لم أعرف لمن هذه كلها، وهل أستطيع أن أتناول منها شيئاً. أثار انتباهي حديث المسلحين المقتحمين، ثم جاء جيف التكساسي وهو يتكلم مع كارل الذي رافقني في الغارة. وسأل: كيف فعل إيريك ليلة أمس؟ أشار كارل بموافقته وقال: «ذهب مباشرة إلى السجين، حتى إنه لم يجفل عندما أضأنا الغرفة. استدار جيف نحوي وقال: «لا أعرف متى ستعود، لكني ما زلت أود أن تقوم باستجواب ذلك الحارس الشخصي».

«أنني هنا طالما أنكم تريدونني - هل من شيء يجب أن أعرفه عن هذا الشخص؟».

«لقد اعتقله الفوج الرابع مشاة وكان ثملاً جداً ويفترض إنه شخص مهم، لكن لا أحد يعرف ذلك بالتأكيد، ربما يمكنك أن تكتشف شيئاً».

على الرغم من التقرير الذي قدمه لي كارل، إلا أنني كنت منزعجاً مما حصل في الليلة السابقة. لقد قامت قوة الاقتحام بعملها، وكان علي أن أجد نظام. لم أكن أعرف التوقعات، لكن بالنسبة لي كانت الخلاصة إنني لم أستطع أن

أجد الشخص الذي يبحثون عنه. ربما يحالفني حظ أفضل في المرة القادمة مع أنه لا أحد يعرف إن كان هناك مرة ثانية.

بعد الإفطار ركبت مع جيف في طريقنا إلى سجن الفوج الرابع مشاة حيث يقبع السجين. وبما أن جاريد كان على وشك السفر، فقد جلبوا مترجماً جديداً لهذه الجلسة، كان أمريكياً من أصل عراقي هزيل الجسم اسمه آدم.

ونحن الثلاثة نسير باتجاه قاعدة الفوج الرابع مشاة، دار بي جيف حول الموقع. مجمع قصور صدام حسين في تكريت حوى أكثر من 50 قصراً وثلاث قلاع منتشرة حول بحيرات من صنع الإنسان، وكان هناك حديقة فخمة ماتت بسبب قلة الرعاية.

أخبرني جيف أن الفوج الرابع مشاة يسيطر على هذه القاعدة وهم مسؤولون عن المثلث السني. هم يضعون الخطط وهم الذين يمتلكون فضاء المعركة. نحن نطارد الأهداف العالية القيمة. الأمر بسيط. إننا نحصل على كل ما نريد، لكن علينا إيجاد هذه الأهداف. وما عدا ذلك فإن الفوج الرابع هو المسؤول.

بعد خمس دقائق كنا في السجن. كانت غرفة واسعة تتسع لقرابة من ثلاثين إلى خمسين سجيناً مع السيطرة الكاملة على الأمن.

«دعنا نذهب لنرى قائد السجن» قال جيف ذلك بعد أن أوقف السيارة قرب المدخل على مقربة من ثلاثة حراس كانوا يراقبون أكثر من عشرين سجيناً.

«سنعود في الحال، سنذهب للتحدث مع قائد السجن» قال جيف للحراس. أخبرنا القائد إن السجين الثمل لم يصح بعد، لكن لديهم شخص آخر من أفراد الحماية تم اعتقاله قبل يوم. اتفقت وجيف على أن التحدث مع أي شخص هو أفضل من ألا نفعل شيئاً، لذا جلبوا لنا هذا الحارس الخاص، ولاحظت أنه مقيد اليدين بشريط بلاستيكي ورأسه مغطى بكيس رمل. أركبناه معنا في الخلف مع آدم وعدنا إلى مقر قيادة القوة الضاربة.

جيف، الذي كان يقوم بمعظم جلسات الاستجواب قبل حضوري، كان يستخدم بيت الضيوف في القصر لاستجواب السجناء. فأخذ الموقوف إلى هناك. كان المكان مناسباً. أربع غرف نوم واحدة منها تحتوي على متكآت (كنبايات)، ولوح من الخشب الرقائقي مفرود على صناديق الذخيرة لاستعماله كطاولة طعام. لكن أهم

شيء كان التكييف. فإذا وضعت بالحسبان ساعات الاستجواب الطويلة ودرجة الحرارة التي تقارب 120 درجة فهرنهايت، أدركت أن التكييف نعمة خالصة.

«كيف ستتعامل مع هذا؟». كان جيف مؤدباً عندما سألني في البداية، لكني كنت أعرف مغزى كلامه: أنت المحقق وهذا ما يجعلك تكسب راتبك. قلت: «إنني مرن، سأبدأ، وفي أي وقت تريد أن تتدخل، فلا مانع عندي. يمكننا أن نأخذ استراحة كل ساعة حتى نتيح للمترجم أن يرتاح ولنراجع معاً ما توصلنا إليه».

وافق جيف، وكنت أعرف أنني بحاجة إليه معي. فهو يعرف عن الوضع أكثر مني، لكن الأهم هو أنني أردت أن أكسب ثقته في قدرتي على التحقيق.

علي أن أركز على حصولي على معلومات يمكن أن تستعملها القوة-الضاربة وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف ماذا يخفي هذا الشخص المقيد في رأسه ويمكن أن يقوله لي، هذا إن كان سيخبرني بشيء على الإطلاق. كنت أبحث عن شيء ولم يكن لدي فكرة عما هذا الشيء.

كنت أشعر أن عيون جيف وآدم مسلطة علي وأنا أجلس وأزيل الكيس عن رأس الموقوف. أخذت نفساً عميقاً. فالدقائق التي قضيتها ليلة أمس في الفوضى والاضطراب أثناء الغارة كانت بمثابة تهيئة لي. لذا سأثبت نفسي.

★★★

كان اسم السجين رافع دهام إبراهيم الحسن التكريتي، كان اسمه رافع وأبوه دهام وجده إبراهيم وقبيلته الحسن وبلده التكريتي. وقد وفر اسمه معلومات مفيدة. أما الباقي فهو لي. كنت أريد أن أعرف قدر ما أستطيع. كنت جديداً في العمل وفي البلاد وجديداً على الحرب. كان رافع بالنسبة لي أكثر من سجين، كان موسوعة متحركة. كان باستطاعته أن يخبرني كيف يكون عليه الأمر عندما يكون المرء عراقياً ومسلماً وسنياً. يستطيع أن يشرح لي عن عالم أفراد الحماية ويدخلني إلى دائرتهم. أردت أن أسمع منه ذلك كله. لكن الأهم هو حاجتي لأن أعرف ماذا يعني أن تكون محققاً. كانت هذه فرصتي للتدرب أثناء العمل.

منذ البداية، كانت لي شكوكي تجاه هذا السجين. كان في السابق برتبة مقدم في الجيش العراقي. كان يتصرف بأدب ولديه رغبة في أن يسرني، وجاهز لإخباري بما أردت أن أسمعه. مع مضي الوقت ازدادت خبرتي كمحقق. فالسجناء يحاولون اختبارك وتحديك كي يروا من يفوز. لكن عندما تستدرجهم فلا بد أن تمسك أحدهم وهو يكذب. فالضعفاء والسلبيون منهم يهتمون بإرضائك ويتجنبون الوقوع في المشكلات، عليك أن تتجاوز خوفهم واستسلامهم كي تتاح لك فرصة التوصل إلى الحقيقة. للحظة، كل ما أرادنا رافع أن نعرفه هو أنه كان يتعاون مع محرري بلده.

«كيف تطعم أسرتك يا رافع؟». سألته كي أعرف شيئاً عن خلفيته. أجاب بقصة طويلة كيف أنه قد تقاعد من الجيش واشتغل بالزراعة ثم كيف أخذوه إلى الحرب ثانية.

كان كل شيء غامضاً، لكني فضلت الأمر على هذا النحو مع أن الأمر استغرق كثيراً من الوقت، كنت أريد أن أعرف ما الشيء الذي يخشى أن يقوله لنا.

سألته: «ماذا فعلت عندما تركت الجيش؟».

تحدث متنصلاً من أي معرفة أو علاقة بالنظام وقال: «عملت فقط في القصر».

سألت: «ليس أين عملت يا رافع، وإنما ماذا عملت؟».

أجاب: «حماية». بعد عدة ساعات من الدوران وصلنا إلى شيء.

سألت: «حماية من؟». طافت عيون رافع في الغرفة حوله كما لو أنه كان يبحث عن مخرج. «من كنت تحمي؟». كررت بصوت عال.

أجاب: «لقد كنت الأقل رتبة في حماية الرئيس».

«قل صدام أيها المغفل» صرخ آدم: «إنه لم يعد الرئيس». كان آدم يثبت قيمته كمترجم وقد أدرك الغرض من التكتيك الذي أتبعه وبدا بالفعل غاضباً مثلما كانت عليه حالي.

تركت اللحظة تمر في صمت، فقد أردت أن يفكر رافع إلى أين يسير هذا التحقيق. «إننا نعرف إنك الحارس الشخصي لصدام». قلت له أخيراً. «أنا فقط أردت أن أعرف كم من الوقت سيمضي وأنت تتجنب إخباري».

- «لم أكن أتجنبك يا سيد ، إنني خجل من كيفية إرجاعي».

- «ما كان عملك في الجيش قبل الحرب؟».

- «إنني مقدم متقاعد».

- «لم أسألك عن رتبتك» صرخت فيه وأنا قريب من وجهه. سألتك ماذا كان عملك.

- «الحماية» كان صوته بالكاد مسموعاً.

- «وهكذا فأنت خجل من العودة إلى عمل كنت تقوم به لمدة عشرين سنة» سألته.

- «لقد كنت الأدنى رتبة من بين أفراد الحماية» كرر بيأس.

- «كيف أنك كنت برتبة مقدم وما زلت حارساً شخصياً لا أهمية له؟».

- «كنت مقرباً من صدام حسين - هو الذي منحني الرتبة».

في الوقت الذي خرجت فيه هذه الكلمات من فمه، أدرك رافع أنه قد ارتكب خطأً جسيماً. كانت هذه هي الحقيقة التي لم يرد بالتأكيد أن يفصح عنها.

- «كيف كنت مقرباً من صدام؟». سألته وأنا أخفض صوتي وأنظر في عينيه.

- «كان جدي يعتني به» أجاب رافع ببطء وحذر «كان أبي مقرباً منه».

- «أريد أن أعرف كيف كنت مقرباً منه؟».

- «يا سيد ، لا توجد بيننا قرابة دم».

تكلم جيف لأول مرة وأخبر رافع كيف أنه مل من تصرفه الذليل وأكاذيبه وحتى شخصيته المزعجة. لقد كانت المرة الأولى التي أراه فيها غاضباً. لكنها لن تكون الأخيرة.

أثناء الساعة التي تلت استطعنا نحن الاثنان أن نعرف تفاصيل شجرة أسرة السجين. وكان واضحاً أن رافع كان مقرباً من صدام أكثر مما توقعنا. كان ابن عم له. وأخبرنا رافع أن أباه كان الأخ الأكبر غير الشقيق لصدام وأن أبا رافع كان بمثابة أب لصدام.

أصر رافع: «لكني أكره صدام وسأقتله بنفسي. أشكرك أيها السيد لإنقاذكم بلدي وسنعمل معاً كفريق قوي على إسقاط النظام».

كررت له: «إسقاط النظام؟ أنت النظام يا رافع. أنت ابن أخ صدام وواحد من أفراد حمايته. هل تعرف ماذا يعني هذا؟».

- «لكني أكره...».

- «اخرس»... صرخ به جيف.

في أي تحقيق، يجب أن تسعى نحو إثبات الذنب. وفي حرب مثل هذه التي نخوضها حيث يوجد العدو في كل مكان وفي لا مكان من الصعب جداً إثبات ذلك. عليك أن تقنع السجين بأنه شخص سيء. وكشف رافع عن علاقته بصدام أظهر أنه كان يحاول خداعنا في كل فرصة سنحت له. استمريت قائلاً: «لقد وقعت يا رافع... ولدينا ما يكفي لوضعك في السجن طوال الحياة».

- «لكني أريد أن أساعدكم».

- «ساعدنا. ساعدني فأساعدك. إنني لا أحبك يا رافع، إنك لم تفعل شيئاً سوى إضاعة وقتي. هذه هي فرصتك الأخيرة. أعطني سبباً يجعلني أساعدك، إذا لم أساعدك، فلن يستطيع أي إنسان غيري أن يفعل ذلك».

كنت أعمل بفعل الغريزة الصرفة. وبعد الكثير من التجربة والخطأ أدركت أنني قد وصلت إلى مفصل حاسم في عملية الاستجواب كانت هي مرحلة المساومة. إننا نعرف، كما يعرف رافع، إنه في ورطة، وكان عملي أن أقنعه إن الشرف والتعاون هما أفضل بديل للحبس الطويل الأمد. وعندما قمت بخطوتي كررتها كي أجعله يفهم وأنه لن يحدث شيء ما لم يتخذ قراره.

☆☆☆

تعلمت دروساً قيمة في الساعات التي قضيتها في استجواب رافع، وأهمها قيمة الإخلاص الكامل، فمهما كان عليه شعورك في لحظة ما، غضب أو مواساة أو حتى الملل، فيجب أن يكون الشعور صادقاً، وإلا فسوف ينفذون بواسطتك. وكل

عاطفة كانت تعمل في أوجها، وكان ذلك ضرورياً للحفاظ على القوة والحدة. وبالنسبة للسجين، فإن التحقيق هو أهم لحظة في حياته، فمصيره معلق في الميزان، وعلى المحقق أن يدرك ذلك ويتعامل مع الموقف كما يتطلب الأمر.

في الوقت نفسه كان علي أن أشكل السؤال وأتوقع إلى أين ستقودني الإجابات. كذلك بدأت أرى فائدة التكلم ببساطة وبطريقة لا تثير ولا تضايق. كنت أحاول أن أسبق العملية بخطوات دون أن يبدو أنني أحسب لذلك. وسواء كنت معقولاً أم لا، فإن المهم هو أن نغمة صوتي لم تتدخل في ارتباطي مع السجين.

بعد عدة ساعات بدأ رافع يعطي معلومات أكثر. كان هدفي النهائي هو الحصول على استخبارات عملياتية كي تقوم القوة الضاربة بعملها. ولهذا كان اشتراك جيف مهماً. فإذا أنتج استجوابنا فكرة رئيسة، فإن ذلك سيعطي معنى للوقت الذي صرفته.

في الوقت نفسه بدأت افهم بشكل أفضل شبكة حماية صدام. وكلما استمرت أسئلتي، كنت أضغط على رافع كي يعطيني تفاصيل عن النظام. وحسبما قال، كان هناك ثلاثة مستويات من الحماية. القريبة جداً كانت مع صدام طوال الوقت، والدائرة الثانية تؤمن في العادة حماية المواقع قبل سفر صدام داخل البلاد والدائرة الثالثة محدد لها مواقع ثابتة. وقال رافع إنه كان يحرس في الليل أحد قصور صدام في بغداد. لكن معلومات رافع لم تكن لتتيح للقوة الضاربة أن تكون قريبة من أهداف حقيقية. لقد حان الوقت لي أن أبقى جانباً وأترك لجيف أن يبدأ العملية كلها من جديد ثانية.

«إرهابيون؟». سأل رافع بعيون بريئة مفتوحة. كان الآن دور جيف ليواجهه صائحاً: «اسمع أيها الخبيث، إن الرصاص ينصب على الجنود الأمريكان كل يوم في هذه النواحي. من يفعل ذلك؟ أخبرني وإلا فإنني أقسم بالله أنك ستموت قبل أن ترى نور هذا اليوم ثانية.

«لكني لا أعرف أي إرهابي»....

قفزت صائحاً: «قف». لم أرد أن أسمعه يتلفظ بهذه الكلمات، لأنه إن ألزم نفسه بهذا الجانب من القصة بأنه لا يعرف المتمردين أو ليس لها علاقة

بالتمرد فإنه سيتشبث بذلك. إنه لم يرد أن أمسك عليه أنه يكذب وهذا أبعد ما كنت أريده. بدأت أتكلم بسرعة كي لا أجعله يحاول إخبارنا إنه لا يعرف وقلت: «لدي عمل أقوم به يا رافع، الأمر بسيط. أريد أن أقبض على هؤلاء الأشخاص السيئين. إذا قمت بعملي، فإن رئيسي سيكون مسروراً، وإذا ساعدتني على القيام بعملي فسأحبك ثم أساعدك. هل تريدني أن أساعدك يا رافع؟ أومأ برأسه في خنوع.

«أنا أعرف أنك ستساعدني والطريقة هي أن تعطيني أسماء ومواقع الإرهابيين بقدر ما تستطيع».

«أريد أن أقول لك شيئاً» قال قبل أن أوقفه ثانية.

- «رافع، سأدعك تتكلم، لكن أرجو ألا تقول لي إنك لا تعرف أياً من هؤلاء الإرهابيين» أخذت نفساً عميقاً وقلت له: الآن ما الذي ستقوله لي؟».

- «لن أقول لك إنني لا أعرف أياً من الإرهابيين.

- «جيد، ما الذي تريد أن تقوله؟».

- «أردت أن أقول أنني عندما أصبح حراً فإنني آمل ألا تنسى اسمي وأننا نستطيع أن نعمل مع بعضنا لسنوات أُخرَ».

- «لماذا أطلق سراحك يا رافع؟».

- «لأنني بريء».

سمحت لنفسي بأن أغضب ثانية وصحت «وهل تهمني براءتك؟ إنني أهتم بشيء واحد يا رافع. ما هو؟». نظر لي نظرة ارتباك وخوف. «إنني أهتم بعملي، هذا هو ما يهمني. ما هو عملي يا رافع؟». صحت بذلك بعد أن وقفت فوقه، فقال وهو يرتجف: «عملك أن تقبض على الأشخاص السيئين يا سيد.

- «هل ستساعدني في القبض على الأشخاص السيئين يا رافع؟».

كان هناك صمت طويل، وكنت أرى العجلات تدور في رأسه، وعندما تكلم في النهاية، كان كلامه كالهمس: «يا سيد، سمعت أشياء لكني لست متأكداً منها. لا أريد أن أسبب المشكلات لو لم أر ذلك بأم عيني».

«إن مشكلتك عويصة يا رافع، أخبرني ماذا سمعت؟».

نقل بصره من جيف إلي. رأيته متضايقاً فاغراً فاه وهو يحاول أن يصوغ الكلمات ثم قال: «رجلان يعملان في غسيل السيارات. إنهما يكرهان الأمريكان».

★★★

ما أن اجتاز تلك العقبة حتى اكتشفت إن رافع لديه المزيد من المعلومات ادعى إن هناك ثلاثة رجال في تكريت على صلة بالنظام وأنه يعرف وظائفهم وأفراد أسرهم وأين يسكنون. وكلما ازداد الأمر إثارة ازددت أنا وجيف شعوراً بالإحباط. وأخبرني جيف أثناء الاستراحة إن الأشخاص الذين سماهم رافع لم يكونوا مهمين على عهد صدام وإنهم لا بد أن يكونوا كذلك هذه الأيام. وحسبما قال رافع فإن كل شخص مهم يعرفه إما إنه هرب أو اعتقل، وأصر رافع على أنه لا يعرف أين يمكن أن نجد المسلحين. بدأت أتساءل كم سيساعدنا هذا السجين. ألا يعرفون إنه الآن في عهدة السلطات الأمريكية؟ ألا يمكن أن يكون المتمردون قد غيروا مكان إقامتهم كاحتياط منهم؟ ولو كان رافع يعرف مكانهم، ألا يكونون قد تركوا وذهبوا؟ احتفظت بشكوكي لنفسي لأنني أردت أن يظن رافع أنه يعطينا ما يريد وأن الإبقاء عليه حياً قد يجعله يحلم بأننا سنطلق سراحه.

انتصف الليل قبل أن ننتهي من استجواب رافع. أعدناه إلى السجن. وفي البيت جلست وجيف نقارن الملاحظات على الاستجواب.

سألني جيف: «ما رأيك؟». كان هناك فحص آخر وراء السؤال. لقد كنت المحقق المحترف، وأراد هو أن يسمع تحليلي «الخبير».

قلت: «لا أظن إن هذا الشخص يعرف كثيراً. إنه أحد أفراد الحماية سابقاً وابن أخ صدام، لكن ثلاثة أشخاص من المستوى المنخفض في النظام السابق يعملون في غسيل السيارات ليسوا من نبحث عنهم».

وافق جيف معي وبدا متعباً مثلي. لكني سأطلع مات وجاك وسأرى ماذا يقولان. توجهت إلى غرفة الطعام لآكل شيئاً، فقد أردت أن أفكر بكل ما حصل.

فنحن لم نحصل على معلومات قيمة، ربما لا يعرف رافع شيئاً، أو ربما يكون يعرف وأننا لم نستطع أن نجعله يخرج ذلك.

عندما جلست إلى الطاولة، راجعت الأخطاء كلها التي ارتكبتها في الساعات القليلة الماضية. لقد سألت أسئلة ليست ضرورية، فقدت أعصابي في حين كان يجب أن أكون هادئاً. وببطء، بدأت أتعلم كيف أحافظ على التفاصيل بترتيب حسن. بدأت أعرف ليس فقط كيف أسأل السؤال وإنما أيضاً لماذا أسأل السؤال. كانت المعلومات الفجة أقل أهمية مما استطعت أن أكونه عن عملية استجواب السجين: ما الذي كان يفكر فيه؟ مم كان خائفاً؟ ما الذي لديه ليخفيه؟ لم يكن الموضوع أن تمسك بالسجين وهو يكذب، لكن الأهم هو السبب الذي يجعل السجين يكذب.

في ذات الوقت بدأت أجهد نفسي في تكوين صورة عن تكريت. فلدى رافع نسخته عن البلد والشخص الآخر الذي استجوبته كان له صورة أخرى. ولو تركوني أبقى لكنت في النهاية قد وجدت طريقة أجمع فيها بين النسختين. لكن لم يكن لديهم سبب ليجعلوني أبقى. فمهمتي الأساسية كانت لثمانٍ وأربعين ساعة وقد انتهت. والسبب الوحيد الذي يمكنني من البقاء هو أن أكون مفيداً، وهو الأمر الذي لم يحدث حتى الآن.

بدأت أراجع الخمس عشرة صفحة من الملاحظات التي دونتها أثناء التحقيق مع رافع وأنا آمل أن أكون قد نسيت شيئاً، لكن كان من الواضح أن كل هذه الصفحات يمكن اختصارها في عدة جمل: رافع دهام إبراهيم الحسن التكريتي، ابن أخ صدام وأحد أفراد حمايته. لم يقدم معلومات عملياتية، وحيث إنه لم يكن أميناً أثناء التحقيق، فلا يجب أن يطلق سراحه.

هذا الفريق بحاجة إلى محقق أفضل.

الفصل الخامس

الـــروتيـــن

14:00

2003/7/31

لم أكـن واثقـاً مـن أن أي أحـد لاحـظ أنـني قـد تخطيـت مـدة مهمـتي في تكريت، أو أن أياً منهم قد اهتم لذلك.

وفي الأيام التي تلت استجوابي لرافع، كنت آمل في أن أقنع الفريق في إبقائي معهم.

عنـدما قابلـت ريتش لأخـذ رأيـه في كيفيـة تمديـد إقـامتي معهـم، ابتـسم وقـال:

«هل أحببت أن تكون هنا في هذه المعمعة؟».

كـان مـصيباً. لقـد أحببـت ذلـك. لكـن الأمـر كـان أكثـر مـن ذلـك. أجبته:

«إنني أحب عملي، ولديكم الكثير من السجناء هنا، الكثير منهم».

- «سنرسلهم إلى بغداد».

- «أعرف. لكنهم لن يستجوبونهم هناك».

وكمـا كنـت عرفـت أثنـاء إقـامتي القـصيرة في بغـداد، فـإن المـساجين الـذين يقدمون من خارج بغداد كانوا يوضعون في آخر الصف. فهم ليسوا أولوية أولى. وهـم في بغداد لا يعرفون ماذا يسألون مساجين تكريت.

دعني أبق هنا يا ريتش وسأحقق مع أي شخص تجلبه لي. ليس عليكم أن تعتمدوا على بغداد، وسيكونون مسرورين هناك لأنهم لن يتعاملوا إلا بشيء قليل.

- «كم ستبقى؟».

هززت كتفي قائلاً: «لقد بدأت مهمة لستة أشهر».

صدرت عنه صفرة منخفضة وقال: إننا هنا منذ ثلاثة أشهر، أقول لك، سأتكلم مع جاك ومات وهما سيقومان بالاستدعاء».

ظننت أن حديثي مع ريتش سيجعل إقامتي في تكريت سهلة. لكن جيف نظر إلى ذلك بشكل مختلف وقال: «كان يجب أن تخبرني أولاً»، فهو مثل بقية القوة الضاربة لم يكن مهتماً بوجود محقق. هنا تعلمت درساً آخر كنت أعرف أن وقتي كان محدوداً، لكني الآن أخشى أنني قد زدت الهوة اتساعاً.

انتظرت بقلق لأرى كيف سيكون عليه الموقف، لكن بدا أنني قد منحت ما أردت. مضت الأيام ولا أحد يسألني لماذا لم ارجع إلى بغداد، وفي الوقت نفسه كنت أستجوب كل من يحضرونه لي من السجناء الذي يقبضون عليهم بعد الغارات. كان محصول المعلومات الجيدة منخفضاً، لكني على الأقل حصلت على فرصة لإثبات قيمتي.

أجريت أنا وجيف العديد من الاستجوابات وكبر إعجابي به. فقد بدا أنه يعرف ما أحاول أن أنهيه وكان يعطيني الوقت لذلك. وكان أفراد القوة الضاربة يمرون إلى بيت الضيافة أحياناً ليراقبوني أثناء عملي، وكان معظمهم يمل ويغادر بعد ساعة أو ساعتين. لكن جيف كان يبقى وهو يراقبني بصبر وأنا أطور إستراتيجيتي وأوجه الأسئلة التي يريدها والمصوبة نحو الهدف تماماً. كنا فريقاً جيداً.

كنت مشغولاً جداً وطورت إجراء يتعاطى مع جلسات الاستجواب الطويلة وكنت في أوقات فراغي أراجع الملاحظات وأستوعب ما تعلمته من كل سجين، وكنت أقضي الوقت على طاولة الطعام. كان بعض محللي

الاستخبارات يزوروننا أحياناً من أجل الاطلاع على الوضع المحلي. وفيما عدا ذلك كان البيت منقسماً إلى فئتين: من ينامون في الطابق السفلي، ومن ينامون في الطابق العلوي.

كان المسلحون يقضون وقتهم في التدريب والعاب الفيديو وتنظيف السلاح والذهاب إلى حقل إطلاق النار، ثم تأتي الغارات الليلية التي يقومون بها. كنت أقوم بعملي، وبين مدة وأخرى كن ت أراجع قائمة أفراد حماية صدام التي أعطانيها المترجم جاريد. وحيث إنه لم تكن لدي معلومات خلفية أو أهمية المنزلة من صدام، فقد كانت القائمة محدودة الاستعمال، لكني لاحظت كيف رتبت الأسماء حسب العشائر المختلفة.

فمثلاً، نظام الذي طاردناه في ليلتي الأولى كان واحداً من أكثر من ثلاثين فرداً من أسرة المصلط في القائمة وكانوا جميعهم من أفراد حماية صدام. وقد عرفت من رافع أن أياً من أفراد قبيلة الحسن قريب من صدام، لكن كان عليَّ أن أربط الأسماء بالوجوه والشخصيات وربما ارتباطهم بالتمرد.

في اليوم التالي سنحت لي فرصة استجواب فرد الحماية الثمل الذي أتيت في الأساس لاستجوابه. كان من أسرة المصلط واسمه عدنان. بدا هزيلاً مثيراً للشفقة عندما ذهبنا إلى السجن لنأخذه. أخبرنا الفريق الطبي بأن نعطيه ماء كي لا يفقد سوائل جسمه لأن نومه الطويل لم يخلصه من الكحول الموجود في دمه.

منذ البداية أثبت عدنان أنه أكثر تعاوناً من رافع. ومع أنه أصر على براءته التامة، إلا أنه بدا فاهماً أنه لن يخرج من السجن وإلى زجاجة الخمر ما لم يخبرنا عما يعرفه. اعترف إنه رائد في الحماية وأنه يعرف رافع، وأن رافع ليس من درجة دنيا ولكنه من دائرة الحماية الشخصية الداخلية. كان ذلك دلالة أخرى على الخداع والمراوغة التي تمتع بها السجناء. وكان هناك على الدوام ثلاث نسخ من أي قصة، إذا لم يكن أكثر.

كان لدى عدنان معلومات أخرى أيضاً. ومن استعداده للإجابة عن أي سؤال، توضح لدي شعور بأنه كان يقول الحقيقة، وأن عقله الذي هوّشته الكحول لم يكن قادراً على الخداع.

عندما سألته إذا كان يعرف نظام، هدف غارتنا في أول ليلة لوصولي، أقر بأنه قريب بعيد له.

- «هل كان من دائرة الحماية الداخلية؟».

هز رأسه وقال: «لكن أقاربه كانوا».

- «أي من أبناء عم نظام كان في الحماية» استمريت في السؤال وأنا أحاول أن أتذكر أسماء أسرة المصلط في القائمة.

فكر عدنان لحظة ثم قال: «رمضان وخليل ومحمد إبراهيم».

- «أين هم الآن؟». هز كتفيه وقال: عاش بعضهم في عوجة الجديدة لكنهم غادروا الآن.

عوجة الجديدة كانت مقاطعة بناها صدام لأقربائه المهمين جداً في تكريت وهي تعطي معنى «المجتمع المغلق». فقد تم تجميعهم هناك لتسهل مراقبتهم ولا يستطيعون التحرك دون إذن منه. وقد أغارت القوات الأمريكية عدة مرات على المكان ولم يكن من المحتمل أن يوجد أي من الأهداف العالية القيمة هناك.

كنت أكثر اهتماماً بجماعة الأخوة المصلط الذين خدموا كأفراد حماية. كانوا في ذاكرتي دون أن يكون لدي فكرة عن أنني سأسمع أسماءهم مرة ثانية. لكن كان لدي أولوية أخرى. فقد جلبوا للاستجواب أحد العاملين السابقين في قصر صدام.

لقد بدا هذا الشخص واحداً من أهم الأشخاص الذين استجوبتهم أثناء وجودي في العراق. لم يكن ذلك بسبب المعلومات الحيوية حول التمرد أو أمكنة وجود الأهداف العالية القيمة، لكنه بدلاً من ذلك قضى الساعات يخبرنا بأدق تفاصيل الحياة اليومية لصدام.

كان اسمه طاشين وهو الخدام الخاص لصدام، وكانت مهمته الأساسية تقديم الوجبات، وكان من عادة صدام أن يأكل مرتين في اليوم، في الثانية والسابعة مساءً وكان الطعام المفضل لديه هو السمك المسقوف الذي يصاد من نهر دجلة ويغطى بالملح ثم يشوى على نار مفتوحة، ولم يكن صدام ليكفيه ذلك. فقد كان يحب المسقوف.

كنت قادراً على تحويل الحديث إلى عادات صدام في العشاء مع أولئك المحيطين به يومياً. وأثناء استجواب طاشين قفز اسم خاص: محمد حدوشي. فعلاوة عن قيامه بإعداد المسقوف، إلا أن حدوشي كان أحد أقرب الأصدقاء لصدام. حتى إنه كان يدعى «صدام الصغير». أثار هذا الأمر اهتمامي. فبالنسبة لرجل بدا أنه لا يثق بأي شخص خارج دائرة أسرة المباشرة، فإن وجود صديق حقيقي أمر نادر، وأردت أن أعرف المزيد عن هذا الشخص.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلا، فبعد جلستي مع طاشين خادم صدام، جلست أشهد استجوابا قاده محللاً استخبارات زائران هما راي وكريستي. كانت فرصة لي أن أشاهد شخصاً آخر يعمل. كنت آمل أن أتعلم أشياء من محترفين يعرفون أكثر مما أعرف. وكان الأمر إيجابياً مع أنه لم يكن بالضبط كما أملته.

كان السجين شخصاً قصيراً مستدير الوجه اسمه طه. وكان أحد أفراد الحماية السابقين، ومن الواضح أنه كان مضطرباً يتعرق بشدة. لم يفعل المحققان شيئاً يجعله يهدأ أو يشجعه على الكلام.

بدأ راي التحقيق بصوت موزون قائلاً: «إننا نعرف كل شيء عنك يا طه وأنت الآن واقع في مشكلة».

لم يكن ذلك أسلوبي. وكان الأمر يتعلق بما يعرفه السجين، وليس ما تعرفه أنت. ومن وجهة نظري، لم يكن كريستي يساعد في العملية عندما كان يقذف طه بمعلومات عن شجرة أسرته، لكني عرفت المغزى من ذلك. لقد كان إيحاءً للسجين إنك تعرف كل تفصيل عن حياته، وبذا تجعل السجين يفكر في أي شيء يكذب أو لا يكذب.

بعد رد مراوغ من فرد الحماية، اتهمه راي بالكذب. وقال طه بأنه قد أخبره بكل شيء ثم استدار نحو كريستي وقال:

اسألها، فهي تعرف كل الإجابات. بعد ذلك، اتخذت الجلسة منحى سريعاً، ووصلت إلى نتيجة مفادها أنه عندما يتعلق الأمر بأساليب الاستجواب، فإنني سأتمسك بأسلوبي.

★★★

عندما انتهى المحللان من الاستجواب، بقيت لأسأل طه بعض الأسئلة. بدأت بملخص عن أسرته وكشف عن أن اثنين من إخوته كانا من أفراد الحماية وهما فارس وناصر. كتبت الأسماء وأضفتهما إلى قائمة أفراد الحماية في ذاكرتي.

بعد ذلك ركزت على محمد حدوشي، خبير المسقوف وأقرب الأصدقاء لصدام. أردت أن أرى إذا كان هذا الحارس الشخصي سيؤكد ما قاله خادم صدام طاشين.

لم يعرف طه من هو حدوشي فقط، وإنما أعطى تفاصيل مهمة أخرى. ومع إنه لم يكن عسكرياً أو شخصية حكومية، إلا أن حدوشي كان لاعباً رئيساً في تكريت قبل الحرب. لقد كان يشرف على جميع بيوت وقصور صدام، وكان يحظى بحاشية ضخمة من الأصدقاء والمستشارين الموثوقين.

أردت أسماء أكثر، وسألته عن آخرين ارتبطوا بحدوشي. فقال طه: «كان له سائق اعتقل أخوه، وكان أخو السائق خادم صدام اسمه طاشين».

اعتدلت في جلستي، فقد أمضيت ساعات أنا وجيف مع خادم صدام الخاص تكلمنا فيها عن حدوشي، لكنه أهمل أن يقدم لنا هذه المعلومة. طاشين، خدام صدام، الخاص، له أخ هو سائق لدى حدوشي. جلبنا طاشين الذي صاح به جيف:

«أخوك هو سائق محمد حدوشي ونحن تكلمنا لساعات عن صدام الصغير لكنك لم تذكر شيئاً عن أخيك».

جلست أحدق في عينيه وقد بدا عصبياً خائفاً حتى إنه بلع ريقه بصعوبة، وكان يعاني مشكلة في الكلام.

سألته: «أين أخوك الآن؟».

- «في البيت».

- «ستأخذنا إليه».

- «بالطبع، سيكون سعيداً لأن يساعدكم» أجاب طاشين بضعف.

- «آه. إنني واثق إنه سيكون منبهراً عندما يراك».

في الليلة التالية أغرنا على بيت شقيق طاشين وقبضنا عليه. كان طويلاً بلحية منمقة وثياب بيضاء تغايرت مع لونه الأسمر. وفي بيت الضيافة بدا وكأنه ميال لإخبارنا عن أي شيء نود معرفته عن الرجل الذي كان يعمل عنده.

أكد أن ابن أخ محمد حدوشي قد قتل في الغارة التي قتل فيها أبناء صدام عدي وقصي، وكان محمد حدوشي سيقضي نحبه في غارة بعد عدة أيام، إلا أنه استطاع أن يفر.

سألته: «أين هو الآن؟».

- «ربما في أحد بيوته، قال السائق.

- «كم بيتاً يملك؟».

«ثمانية وهو يبني بيتاً آخر».

فكرت للحظة، فقد بدا إنه ليس من المحتمل أن يختفي حدوشي في أحد منازله، وسألت: «في أي مكان آخر يمكن أن يكون؟ في بيت صديق، ربما؟».

أومأ برأسه: ربما. كان هناك شخص قريبٌ جداً من حدوشي أكثر من أي شخص آخر واسمه سلام شابان، وكان هذا الاسم قد ذكره لي طه قبل ساعات.

رجعت إلى البيت الرئيس أبحث عن ريتش وأخبرته بما تجمع لدي من الاستجوابات. في صباح اليوم التالي، استطاع ريتش باستعمال نسخة من غوغل اسمها فولكون فيو من تحديد بيت شابان قريباً من بيت شقيق طاشين. كان الفريق على أهبة الاستعداد لغارة أخرى في ذلك المساء حيث سيغيرون على جميع بيوت حدوشي التي ذكرها السائق لنا.

لم أكن أعرف أين سيقودنا كل ذلك، لكن بدأ الأمر يستحق ذلك.

الفصل السادس

جمع الشمل

12:00

2003/8/4

حقيقة أنني قد انخرطت في استجوابات كانت تؤدي إلى غارات مهمة كانت أنباء جيدة. لقد تقدمت خطوات نحو إثبات قيمتي للقوة الضاربة، وكنت على الأقل آمل ذلك، لكني كنت قلقاً من إعادتي إلى بغداد.

كنت أجلس إلى طاولة الطعام أراجع ملاحظاتي عندما دخل رئيسا الفريق مات وجاك ومعهما جيف، وجلسا إلى جانبي الطاولة. وسألني جاك: «يا إيريك، ماذا قالوا لك في بغداد عن المدة التي يمكن أن تبقى فيها هنا؟».

بعد خمسة أيام من محاولتي أن أبرهن عن فائدتي لهم بالعمل قدر ما أستطيع، كانت هذه هي الفرصة التي أنتظرها. ومهما كان الجواب الأمثل، إلا أنني يجب أن أكون جاهزاً لأقدمه. لم أحاول أن أبدو متلهفاً، لأن الصفة الوحيدة التي يشترك فيها أفراد القوة الضاربة هي البرود وهدوء الأعصاب للقيام بالعمل. ففي الغارة، يمكن للحماية أن تتسبب في قتل المرء، وعملي كمحقق هو تزويدهم بالمعلومات الاستخبارية، أما في باقي الوقت، فيجب ألا أقف في طريقهم.

لم يقولوا شيئاً. لكني أردفت قائلاً: «أظن أنني سأكون مفيداً أكثر هنا مما عليه الحال في بغداد». سأل مات: «ولماذا ذلك؟».

قلت له: «عليَّ أن أضع يدي على شيء ما، هكذا يكون عملي أكثر فعالية، من الصعب أن تعرف ما الذي يجري في بغداد، إنها كبيرة وكل

سجين جديد لديه قصة مختلفة، أما هنا في تكريت، فلا بد للقطع أن تبدأ بالتجمع».

نظرا إلى بعضهما بعضاً وهما يزينان خياراتهما بصمت، ثم قال جاك في النهاية: «سنقوم بالغارة على حدوشي أثناء بضعة أيام، وسأبقيك هنا حتى ذلك الوقت». امتدت الغارة على حدوشي بشكل كبير. فقائمة الثمانية بيوت اتسعت لتصل لعشرين بيتاً، بما في ذلك أماكن مختلفة لأشخاص مثيرين للاهتمام. كما أن القائمة نمت أيضاً. فبعد ليلة من استجواب سائق حدوشي، ألقت القوة الضاربة القبض على سلام شعبان. ولم تكن الغارة أسهل من ذلك. قدنا السيارات إلى البيت، ثم أخذ المترجم آدم مكبر الصوت وأمره أن يخرج رافعاً يديه. بعد لحظة من النداء خرج رجل مسن حسن الثياب وتطوع على الفور أن يأتي معنا إلى المجمع. وأثناء الساعات التالية، أخبرني شعبان الكثير عن حدوشي، وأعطانا أسماء كامل مجموعة صدام من الأصدقاء المقربين له؛ والذين يدعون إلى الولائم التي يقيمها حدوشي عندما يكون صدام في تكريت قبل الحرب. وكان حدوشي يوصف على أنه ودود غير متحفظ ورفيق حقيقي في الولائم، يقدم القوارب مع سمك المسقوف الذي اشتهر به.

بوجود الأسماء والأماكن الجديدة، اتسع نطاق جمع الشمل، وطلبت القوة الضاربة العون من القوات التقليدية في الفوج الرابع مشاة. واحتاجت القوة الإضافية إلى المزيد من التخطيط، وعليه فإن إنهاء التفاصيل سيتطلب بعض الوقت.

في النهاية تكون هناك روتين معين. كنت أصحو قرابة العاشرة صباحاً وأقضي بضع ساعات أراجع أوراقي أو أتسلى مع مشغلي الآلات. كانوا مشغولين دوماً يصلحون المركبات أو يعملون في قاعة الألعاب أو يقومون بتحسينات على المنزل. وعند الظهر كنت أبدأ أول استجواب لي وأعمل حتى الرابعة والنصف بعد الظهر. وبعد العشاء قرابة السابعة والنصف كنت أعود إلى بيت الضيافة وأتابع الاستجواب حتى 12:30 بعد منتصف الليل، ثم أقضي ساعة أحلل فيها أنا وجيف ما حصلنا عليه قبل أن أذهب إلى النوم.

بعد ظهر أحد الأيام، كنت أجلس في غرفة الطعام بعد يوم طويل من استجواب بعض الأشخاص، شعرت بالراحة وذهبت إلى الثلاجة لآخذ بعض الطعام،

وفجأة شعرت أن وضعي غير مأمون. نظرت وإذا بي أرى وجه محقق آخر يبتسم ابتسامة عريضة. وكان اسمه ألان، وكنت قد عملت معه في بغداد. ماذا كان يفعل هنا؟

سألته: «هيه... ما الذي يجري؟». وأنا أحاول أن أبدو غير مكترث.

أجاب: «وصلت الآن»، قال ذلك وهو يلقي بحقيبته ليلتقط بعض الفتات من صحني، كان ما يزال يضحك، وهو تعبير تذكرته من الوقت الذي قضيناه في بغداد. لم يكن انطباعي جيداً عن ألان المتعجرف، وهو لا يمتلك موهبة العمل مع فريق.

قلت: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

أجاب وهو ما يزال يمضغ: «إنهم بحاجة إلى دعم من أجل غارة كبيرة».

قلت: «كنت أظن أنكم مشغولون جداً في سجن مطار بغداد الدولي».

هز كتفيه وقال: إنني أتكلم اللغة وأعتقد أنني مطلوب».

كنت قد نسيت ذلك. كان ألان طليقاً باللغة العربية. صار لي منافس فجأة ولديه ميزة. حاولت أن أخبر نفسي أنه ليس هناك ما أقلق عليه. لقد كان هنا من أجل التجمع فقط، وقد حدد للغارة الساعة 14:00 في اليوم الحادي عشر من الشهر، وهو أسخن جزء من النهار. كان السبب بسيطاً: كل شخص سيكون في بيته يأخذ غفوة يهرب منها من حر شمس منتصف النهار. ستكون الشوارع خالية مما يسهل التحرك في المدينة. ومن المحتمل أن تكون الأهداف في الأماكن التي حددناها.

ازدادت حركة التحضيرات ذلك النهار، كما وصل عضو ضارب آخر من بغداد للمساعدة في العملية. كان القصر مليئاً وأنا أرى الجميع يجهز نفسه.

كنت عائداً من بيت الضيافة وكنت مثاراً لخروجي في غارة. وكان كل ما أتمناه هو إلقاء القبض على محمد حدوشي قبل أن ينتهي النهار.

سمعت صياحاً والتفت لأرى مات وجاك يتوقفان خلفي.

«لقد كنا نتحدث مع ذلك الشخص الذي عملت وإياه في سجن مطار بغداد الدولي» قال جاك وهو يتحدث من نافذة سيارته.

قلت: «نعم، ألان» فهز رأسه وقال: إنه ميال لأن يعاد تثبيته هنا في تكريت».
كان ذلك آخر ما كنت أود سماعه، لكن الأمر ازداد سوءاً عندما قال مات: «إننا لا نحتاج إلى محققين هنا يا إيريك، إنهم لن يسمحوا بذلك».

«هل تريدونني أن أغادر؟». قال جاك: آلان يتحدث العربية ولا نحتاج مترجماً معه وباستطاعته أن يقوم بالاستجواب هنا ونستطيع استعمال المترجم آدم في الغارات».

لم أستطع التفكير في شيء أقوله. فلم يكن لديهم سبب للاحتفاظ بي. إنهم يريدون للعمل أن يتم بكل بساطة واستقامة. فجأة بدأ كل شيء يزحف وأصابت الحركة البطيئة أفكاري وأحسست أن هذا هو آخر وقت أقضيه في تكريت.

تنحيت عن الطريق وهما يغادران. لقد تعلمت عن الاستجواب في الوقت الذي قضيته هنا أكثر مما تعلمته في المدرسة. لكن كنت أشعر إنني قد بدأت أشعر بطريقي في هذه المتاهة متتبعاً خيوطاً رئيسة، والآن علي العودة إلى سجن مطار بغداد الدولي المحاط بالأسلاك حيث لا يهم ماذا أعمل أو كيف أعمل.

☆☆☆

كانت درجة الحرارة نحو 120 درجة فهرنهايت عندما غادرنا المعسكر من أجل إلقاء القبض على حدوشي. وكنت أحس بالحرارة أكثر وأنا في المقعد الخلفي من سيارة الهمفي المصفحة والهواء الساخن يضرب وجهي. شعرت بالراحة عندما وصلنا إلى الهدف بعد خمس دقائق. لم يكن لدي وقت لأفكر فيما يسفر عنه ما سنقوم به، أحياناً يكون الجهل نعمة.

الفريق الذي كنت معه والذي ضم المترجم الذي استعرناه من فوج المشاة الرابع، أخذ مواقعه على نهايتي الشارع حيث يقع بيت صدام الصغير، وكان عملنا هو التحرك على جانبي الطريق والالتقاء في الوسط ونحن نفرغ جميع البيوت في طريقنا. وعلى بعد مجمعين من البناء كان فريق آخر معهم آدم كمترجم يقوم بالانتشار بالطريق نفسها.

أعطوا مترجم الفوج الرابع مكبر صوت وأمر الناس بأن يخرجوا إلى الشارع، وكانت مهمتي استجواب أكبر عدد منهم لأحدد الأشخاص السيئين أو أكتشف مواقعهم. وعندما أخذ الفريق مواقعهم وبدأ المترجم يصيح تعطل المكبر وانتظرنا ماذا سيحصل، ولأنني كنت قريباً منه طلبت منه أن يصيح فقط بقدر ما يستطيع. لم يخرج أحد إلى الشارع فقلت له أن يصيح بصوت أعلى. قف واصرخ بأعلى صوتك. بدا مضطرباً، لكنه فعل ما طلبته منه. لم يخرج أحد إلى الشارع فقلت له أن يصرخ بصوت أعلى.

رأيت مات يرمقني بنظرة من الهمفي ارتعدت لها فرائصي، وفهمت على الفور أنني قد ارتكبت خطأً شنيعاً حيث تدخلت في موقف طارئ، كنا في وسط عملية واسعة النطاق مع إمكانية واضحة لإطلاق النار علينا. لم يكن لي أن آخذ قراراً حول الغارة.

لحسن الحظ، بدأ الناس يخرجون إلى الشوارع وبدأت أستجوبهم. جمعت القوة الضاربة الذكور وأتوا بهم إلي. تقدمنا كمجموعة من بيت لبيت، وبعد نصف ساعة التقينا بالمجموعة الأخرى من الفريق في وسط المجمع السكني.

كان لدينا قرابة اثني عشر موقوفاً في ذلك الوقت وكلهم مقيد اليدين معصوب العينين. جمعنا الرجال مع الذين اعتقلتهم المجموعة الثانية وشكلنا صفاً أحادياً. استجوبناهم بسرعة ووجدنا أحدهم يعرف حدوشي وأسرته، وطلبنا منه أن يتعرف إلى باقي الموقوفين. لقد قبضنا على أكثر من اثنين من أنسباء صدام وبعض أولاد عمه وأخوته، لكن لم يكن محمد حدوشي بينهم. لم تكن حصيلة غارتنا كما توقعنا.

انتهت الغارة في الساعة 17:30 بعد الظهر ورجعنا إلى المعسكر نستعرض ما حدث، وكان مقدم قد حضر من بغداد من أجل الغارات، ومع أننا كانت لدينا شكوكنا، إلا أن هذا الضابط قد اعتبر الغارة نجاحاً. قد يكون حدوشي قد راوغ، لكننا اعتقلنا أربعة من المطلوبين. لم يكونوا من الذين صورهم على أوراق الشدة، لكنهم كانوا من قائمة ثانية حوت 300 اسماً من المتعاطفين مع نظام صدام.

عرفت قيمة هذه الأهداف، لكني تعجبت لم تكون هذه الغارة ناجحة ونحن لم نظفر بالشخص الذي نريده. فإخراج الناس إلى الشوارع لم يكن ليوصلنا إلى أشخاص ذوي قيمة عالية، وهؤلاء الثلاثمئة اسم كانوا جزءاً من النظام القديم في العراق والذي أسقطناه. كانت هناك شبكة جديدة الآن، شبكة تخفي صدام وتقتل الأمريكان. ربما يكون هؤلاء الأشخاص من هذه الشبكة وربما لا، لكن بدلاً من اعتقالهم وتهنئة أنفسنا على العمل الذي قمنا به، فإن علينا الدخول إلى أعمق من ذلك. علينا أن نركز على أي شخص وعلى كل شخص يمكن أن يخبرنا عن أسماء هؤلاء الأشخاص السيئين فعلاً، ولهذا السبب طاردنا حدوشي في المقام الأول والذي لم يكن من أركان النظام، لكن المعلومات التي سيقدمها هي التي تجعله هدفاً رئيساً. وحيث إن ابن أخ حدوشي قد قتل مع أبناء صدام عدي وقصي، فإنه لا بد أن يكون حدوشي على علم بمكان وجود صدام. لم يكن رأيي مهماً، فأنا مجرد محقق، لكن الضباط كانوا راضين بالنتيجة مع بعض الاستثناءات. عقدنا اجتماعاً للمراجعة ختمه المقدم المسؤول بقوله: لا أدري ماذا سأقول عن إطلاق النار الذي حدث اليوم. علينا أن نتذكر القواعد البسيطة، أن يكون السلاح مؤمناً وإصبعنا بعيد عن الزناد». انتفضت فجأة. إطلاق نار عرضي! هل أطلق أحدهم سلاحه دون قصد؟ هذا لم يسمع حدوثه عن القوة الضاربة. وعند انفضاض الاجتماع، أسرعت إلى جيف قائلاً: «ما الذي حدث؟».

جذبني جانباً وقال: «إنه آلان، المحقق الذي حضر من بغداد».

لم أستطع أن أصدق أذني، آلان المتعجرف هو الآن من أطلق النار.

- «كيف حدث هذا؟».

- «كان يتكلم مع بعض النسوة ويطلق النار على أقدامهن».

- «وماذا يعني هذا؟».

أجاب: «إيريك، إذا أطلق أحدهم النار، فإنه سيخرج. آسف، صديقك أصبح من التاريخ».

وحسبما حصل، فإن ذلك اليوم لم يكن خسارة كلية، فزناد آلان السريع قد أنهى مهمته.

الفصل السابع

الخطـــر المؤلـــم

18:00

2003/8/12

لقد مضى أسبوعان على وجودي في تكريت أعمل على جدول استجواب متواصل، وكنت أتعلم دروساً قيمة في كل مرة من النجاحات ومن الفشل. وحيث إنني كنت لا أدري عمن أفتش، فإنني لم أكن لأميزه ولو كنت قد وجدته. لذلك ثابرت على جمع المعلومات محاولاً أن أجعل لها معنى.

مقابل سجين واحد يدلي بمعلومات قيمة هناك عشرة لا يعطون شيئاً على الإطلاق. ربما ليس لديهم ما يقولونه أو ربما لأنني لم أعرف كيف أستخلص المعلومات منهم. كان الموضوع هو التجربة والخطأ وأضرب وأخطئ، لكني كنت بالتأكيد أطور منهجاً خاصاً بي.

قارنت بين ما حصلت عليه من الموقوفين وبين ما كان المخبرون يقولونه لضباط الحالات. كنت ميالاً لتصديق ما يخبرني به السجناء لأنني كنت أعرف دوافعهم. فقد كنت أسيطر على حياتهم، على حريتهم ومستقبلهم، وكان هذا هو ما يعطيهم دافعاً حقيقياً لإبلاغي بالحقيقة.

لكن كان هناك ضرر محدد من المعلومات التي نجمعها أثناء الاستجوابات. فمنذ اللحظة الأولى التي يعتقل فيها الشخص، وأثناء 48 ساعة يكون الخبر قد انتشر ويختبئ الذين يعرفونهم أو يغيرون مكان إقامتهم، لذا كان عليَّ أن أحصل على ما أريد كي أنقله على الفور إلى جاك ومات.

عندما بدأت أراجع طريقتي في توجيه الأسئلة، بدأت أدرك أنها كانت مختلفة عن الطرائق القياسية التي يتبعها المحققون الآخرون. وقد بدا ذلك واضحاً لي عندما شاركت في استجواب السجناء الأربعة الذين قبضنا عليهم في الغارة على حدوشي. استرعى أحدهم اهتمامي. كان لواء سابقاً في الحرس الجمهوري ومرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بعشيرة حدوشي. أردت أن أقضي وقتاً أطول معه، لكن المشكلة التي اعترضتني هي أن المترجم آدم كان منهكاً جداً وبحاجة إلى راحة، ومن دون المترجم لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

وجد جيف حلاً. أخبرني أن أستعمل آلان كمترجم ما دام ينتظر إعادته إلى بغداد بعد حادثة إطلاقه للرصاص. حاولت أن أخفي معارضتي. فبالإضافة إلى أنني لم أحب ذلك الشخص، فإن وجود محقق كمترجم هو مصدر للمشكلات. ففي التحقيق يجب أن يكون المسؤول عنه واحداً. عندما عملت مع جيف كان يؤدي دوراً مشرفاً وكانت الأسئلة التي يوجهها دوماً في الاتجاه الذي أريده. ولوجود محقق آخر، مثل آلان، فإن فرص اللاوضوح تزداد، ويمكن للسجين أن يستفيد من ذلك.

للقضاء على مثل هذه الإمكانية، انتحيت بآلان جانباً قبل استجواب ذلك اللواء، وحاولت أن أشرح له الطريقة التي أسلكها في الاستجواب بناء على الأساليب التي تعلمتها أثناء الأسابيع الماضية. وشرحت له قائلاً: «أحب أن أغوص في كثير من التفاصيل، وقد لا تبدو مهمة في البداية، وقد لا تعرف إلى ما أرمي إليه، لكن تحملني». أجاب ببسمة متكلفة: «أجل».

بدأت الجلسة بشكل سلس، وكان آلان يترجم الأسئلة والأجوبة دون زيادة أو نقصان. كان السجين يقوم بعمل جيد أيضاً وهو يكذب وينفي أي علاقة له بحدوشي «صدام الصغير». كنت صبوراً دون أن أجعله يدرك أنني أعرف إنه يخدعني. في كل استجواب، أبدأ من فرضية أنني لا أعرف شيئاً عن السجين، وأنه لا فكرة لدي عن أي شيء يحب أن يناقشه أو يحجبه. سألته عن حياته، عن تفاصيل اعتباطية في خلفيته، والهدف من ذلك هو بناء سجل زمني لكل وجه من أوجه ماضيه: أسرته، مهنته، ماليته والأشياء الشخصية التي يفضلها.

لقد تعلمنا أن نرتب هذه الخطوط الزمنية، لكني لم أحب أن أقوم بذلك في تلك الطريقة. فقد كنت أفضل أن أقفز من مدة إلى أخرى ومن موضوع إلى آخر. وسألته عن

العمل الذي كان يقوم به سنة 1986 ثم انتقلت إلى حفلات الزواج التي حضرها مؤخراً، أردت أن أعرف نوع السيارة التي قادها قبل عشرين سنة. وكانت النقطة هي أن أحرمه من فرصة معرفة أين سأقوده، وهذا يربك السجين والمترجم وكل من يشهد التحقيق.

لم يكن الأمر مربكاً بالنسبة لي، فقد تعلمت كيف آخذ أي معلومة وأسقطها في مكانها الزمني المناسب. وإذا اكتشفت كذبة، فإنني أخزنها أيضاً ولا أسأل السجين أن يوضح تلك الكذبة. لم أرد له أن يكتشف أنني أعرف أنه يكذب، الاضطراب كان حليفي، وما دام السجين لا يستطيع أن يتوقع السؤال التالي، فإنه لن يكون قادراً على إخفاء ما لا يريد أن يخبرني به. لكني في الوقت المناسب أنقض عليه بما أريد.

إنني أرى نفسي عاجزاً في بعض المجالات، فلست جيداً في معرفة الاتجاهات، وكثيراً ما أضيع، ولا أعرف كيف أغير دولاباً مثقوباً، لكنني كمحقق لدي القدرة على تذكر كل ما أبلغني به السجين ووضع كل معلومة في مكانها وخلق صورة عقلية، وعندما تكتمل تلك الصورة، وبغض النظر عن الوقت الذي تستغرقه، إلا أنني أستطيع أن أرى الكذب ماثلاً أمامي.

لا يملك كل محقق هذه المقدرة. فالآن بدأ يدير عينيه فاقداً صبره بعد ثلاث ساعات من أسئلتي الاعتباطية. وعندما أخذنا استراحة قال لي إنني «أخلط الأمور على هذا السجين. كان باستطاعتك تشكيل الخط الزمني منذ ساعتين لكنك تواصل القفز. أنه لا يذكر ما الذي أخبرك به».

نظرت في عينيه وقلت «لا تقلق حيال ذلك، إنك تقوم بعمل رائع في الترجمة، حافظ على ذلك فقط. أجاب: «لا، هذه مضيعة للوقت، جد لنفسك مترجماً آخر».

سمعت نصيحته وأوقفت الاستجواب حتى استراح آدم. فإذا كان آلان لا يحب الطريقة التي أقوم بها بالاستجواب، فلا بد أنني أقوم بعمل سليم.

☆☆☆

بعد عدة أيام من مغادرة آلان لتكريت، حصلت القوة الضاربة على صيد ثمين. كان اسمه راشد عبد الله وكان أحد اثنين من أفراد الحماية الداخلية، كان مرافقاً،

وهذا يعني أنه يقود نخبة الحماية المسؤولين عن السلامة الشخصية لصدام. وبالإضافة إلى راشد، أسفرت الغارة عن اعتقال أخوين له وعدد من أبنائه وأبناء إخوته.

قال جاك والموقوفون يساقون إلى غرفة الاستجواب: «اسمع يا إيريك، هؤلاء الرجال مسؤولون عن موت الكثيرين من رجالنا، إنهم أشخاص سيئون، لا تدعهم يتحدثون بما يسفر عن مغادرتهم لهذا المكان».

كان هذا أحد المجالات التي أختلف فيها عن المحققين الآخرين. فأنا لم أهتم هل كان السجين سيئاً أم لا، قد يكونون قد قتلوا أمريكيين، لكنهم جنود وهذا هو عملهم مثلما أن عملنا هو أن نقتلهم، فهل هذا يجعلنا أشخاصاً سيئين؟

بالقدر الذي أهتم له، كانت مسؤوليتي هي النظر إلى الحرب وإلى الرجال الذين يقاتلون في كلا الطرفين نظرة موضوعية بقدر ما أستطيع. فأنا أعرف أنه عندما يموت الجندي، فإن أسرته وأصدقاءه يحزنون عليه بشكل أفضل وأطول مما أستطيع أنا فعله. عليَّ أن أركز انتباهي على التحقيق ولا آخذ ما قاموا به على محمل شخصي.

الشيء الوحيد الذي كان يغيظني هو أن يكذب عليَّ أحد السجناء لأن هذا يمنعني من القيام بعملي ولا صبر لي على ذلك.

كانت مهمتي في هذه الحالة هي استجواب أحد أخوي رشيد. كان هذا الشخص مرتاحاً وواثقاً منذ البداية، وبدا أنه يمازحني أثناء الإجابة عن أسئلتي، وتركته يفعل ذلك. فأمامي فرص كثيرة لأن أستعمل أساليب التخويف عندما أخبر السجين بالورطة التي هو فيها، لكن لم أكن في عجلة، فقد أردت أن أعرف إلى أين سيقودني معه.

لم يطل الأمر وبعد ثلاث ساعات كان كل ما حصلت عليه منه هو أن أخاه كان بالفعل مرافقاً، وأنه استخدم تأثيره للحصول على تعليم جيد لأبنائه الذين كان أحدهم طالب طب. وإلى جانب سفره إلى بغداد لعدة مرات، فإن رشيد كان يعيش في بيته بسلام منذ بداية الحرب.

لم يكن ذلك يعني شيئاً، فرشيد هو أحد الحراس الخاصين من الدائرة المقربة، وقال أخوه إنه كان يعيش طوال الوقت في تكريت دون أن يلتفت إليه أحد، كيف حدث ذلك. ألم يكن فعلاً واحداً من الأشخاص السيئين؟

مع أن التحقيق لم يسفر عن معلومات حيوية، إلا أن استجوابي لأخي رشيد قد أكد لي درساً قيماً. لقد تغيرت قواعد اللعبة، فمن ناحية بنية القوة، كان العراق مكاناً مختلفاً تماماً عما كان عليه قبل الحرب. فرشيد كان مسؤولاً مباشراً عن أمن وسلامة صدام، وليس من سبب يدعوه للاستمرار في هذه الوظيفة الآن. وبدلاً من ذلك كان يجلس في بيته كمواطن محترم لا علاقة له بالعصيان أو التمرد. على الأقل، هذا ما ادعاه أخوه، وقد صدقته. تم التدقيق في جميع تفاصيل قصته، والأهم من ذلك أنه كان من الواضح إنه لم يحاول أن يستميلني بإخباري ما أريد معرفته، وفي غرفة التحقيق تضربك الأمانة أحياناً كحجر، وقد أثرت في أمانته.

ما يهم الآن ليس من كان مسؤولاً في السابق، فقد انقلب النظام رأساً على عقب وكانت هناك مجموعة جديدة كاملة من اللاعبين. وللقبض عليهم لن ينفع تعقب سلسلة القيادة القديمة لأنه لا وجود لها الآن. وبدلاً من ذلك، عليَّ أن أصغي لما يقوله لي السجناء والمخبرون، وما يأتي منهم هو إشارات لبنية القوة الجديدة ولما يحدث في الشارع.

بالتأكيد كان هناك أشخاص سيئون، فنحن نسمع مدافع الهاون التي يطلقونها ونرى نيران القنص في كل ليلة، لكننا ربما لم نعرف بالفعل من هم.

★ ★ ★

في بداية شهر أيلول كنت أقوم بالاستجواب على أساس متصل. كان يوم عملي يبدأ في الساعة 13:00 ويستمر حتى الساعة الثانية صباحاً أو أبعد من ذلك. كان أمامي صف طويل من الموقوفين، وعادة ما يكونون من المشتبه بهم في الانخراط والتخطيط لهجمات على القوات الأمريكية. وبغض النظر عن السبب الذي أحضروا من أجله، فإن الأساليب التي اتبعتها والتفكير الكامن وراءها لم يتغيرا.

في معظم الأحيان، كان هناك نقص في الدليل الذي يثبت اشتراك السجين بالتمرد. ولهذا السبب فإن معظمهم لم يكن يصدق أنه ذاهب إلى السجن بسبب اعتقاله، وكان واجبي أن أمسك بهم وهم يكذبون، هذا إذا استطعت. لكن الحقيقة في الحرب هي أنني لا أقدم قضيتي لقاض أو محلفين، فنحن لم نكن في الولايات المتحدة. وبصراحة، لم أهتم فيما إذا كانوا مذنبين أو بريئين من التهم التي

اعتقلوا من أجلها. فكل سجين استجوبته كان منذ البداية مذنباً بشيء واحد هو أنه لا يساعدني، وكان عليَّ أن أقرر هل أبقيه أو أطلق سراحه، والطريقة الوحيدة الممكنة هي أن يثبتوا أنهم يساعدوني في عملي.

أردت معلومات استخباراتية، ولم يهمني سواء حصلت عليها من متمرد أو من بريء لديه معلومات مهمة. لم يكن هناك مشرف علي يراقب كل حركة، ولم تكن هناك قاعدة بيانات مركزية ألقمها معلوماتي. كنت في بيت الضيافة وحدي أنا والسجين.

بدأت أصل إلى ما خلف المساجين في بحثي عن معلومات قيمة وطورت علاقة عمل مع فريق هميت التكتيكي في الفوج الرابع مشاة. انتشر قرابة عشرون فريقاً استخباراتياً منهم في جميع أنحاء المدينة وكثيراً ما كانوا محققين مبتدئين شباباً متحمسين ومن المختصين بالاستخبارات المضادة، وكان عملهم تطوير معلومات أساسية عندما يجدون أياً منها. تمركز أحدهم على بوابة معسكر القصر حيث يأتي إلينا المدنيون بطلبات أو شكاوي، وتمركز آخرون عند مكتب الحاكم. ومع أنهم لم يأتوا بمعلومات قيمة، إلا أنهم كانوا ينقلون صورة حية عما يحدث في مدينة تكريت. كان ريتش يقابلهم بانتظام ليغربل من معلوماتهم ما هو مفيد، لكنه كان حذراً جداً، فآخر شيء يريده هو أن يعطي القوة الضاربة انطباعاً بأنهم وراء معلومات أساسية قدمها بعض الكشافة من الشباب.

بقية الفريق، ولا سيما جيف، لم يكن لهم علاقة بهذا الفريق، لكني كنت أرى أنهم كانوا يبذلون طاقاتهم كلها في ظروف صعبة. وكان فريق من احتياطي الحرس الوطني بتدريبهم المحدود وقلة خبرتهم في جمع المعلومات الاستخبارية يتجمعون ويحاولون فرز المخبرين الذين يقدمون للمساومة على المعلومات أو على بيعها. ومع أنهم لم يكونوا مجهزين للقيام بذلك العمل، إلا أنني كنت أجتمع بهم وبمصادرهم عندما تسنح لي الفرصة. فأنت لا تدري من أين يمكن أن تأتي المعلومات الجيدة أو إلى أين يمكن أن تأخذك.

ركز أحد هؤلاء الفتيان على جمع معلومات عن أفراد الحماية، وهو احتياطي شاب من أوتاه، الرقيب أولسن الذي كان قائد وحدته. كان أولسن تواقاً لأن يرضي، وجلب لنا عدة مخبرين ظن أنهم قد يفيدوننا. ادعى أحدهم أنه يعرف قائد إحدى وحدات المتمردين المحليين، وكان اسمه فارس ياسين عمر المصلط.

قرع هذا الاسم جرساً وتذكرت استجوابي لطه السجين اللطيف السمين. فهو قد أخبرني عن العلاقة بين خادم صدام وسائق محمد حدوشي، لكن تذكرت شيئاً آخر من تلك الجلسة. كان شقيق طه اسمه فارس ياسين، وكان أحد أفراد الصف الطويل من آل المصلط الذي يأتي اسمه بين الحين والآخر.

سألت المصدر الذي جلبه أولسن: «مع من يعمل فارس ياسين؟».

أجاب: «إن لديه مجموعة في الشمال، وهي على بعد قرابة عشرين كيلومتراً من بلدتي العلم».

كنت أعرف العلم، على الأقل من شهرتها. كانت عبر نهر دجلة من تكريت ومحاطة بمزارع غنية منحها صدام لمؤيديه الرئيسين. وقد بدأ يتضح أن العلم وبلدات أخرى على الجانب الشرقي شكلت مهداً للمتمردين. ومعظم الموقوفين الذين جلبوهم لي كانوا من تكريت.

لم أكن أعرف إلى أين يقودنا ذلك، لكني أردت أن أتبع هذا الخيط بقدر ما أستطيع، لكن جيف للأسف حرق كل شيء حيث قال: «إلى أين سيوصلنا هذا بالضبط؟». كانت له وجهة نظر. فلدينا إشارات غامضة عن مجموعة متمردين تعمل في منطقة لم نحصل منها على سجين واحد، لكني لم أرد لذلك أن يفلت مني، واقترحت عليه:

«قد يكون من المفيد أن نتحدث مع بعض الناس من الجانب الآخر من النهر» فأجاب: «نسق مع كريس، فهو يدير مصادر هناك ويمكنك فعل ذلك في اجتماعاته».

كانت الحقيقة أن كريس لديه مخبرون في بلدة العلم وغيرها، وما كان ينقصنا هو نظام نتشارك فيه بالمعلومات التي يحصل عليها. لم أكن أعرف ماذا يفعل. كنا نرتجل باذلين جهدنا في التعامل مع خليط من المصادر والسجناء. كنا بحاجة إلى تجميع ما نحصل عليه وبناء صورة أوسع عن الأنشطة واللاعبين الرئيسين في المنطقة. قام جيف بجمعي مع كريس وقرر أن كلاً منا سيجلس مع الآخر أثناء الاستجواب وإيجازات المخبرين إن أمكن ذلك. لقد بدأ الجهد المنسق يأخذ شكله ببطء وتأكيد.

لكن التقدم كان بطيئاً جداً، حتى مع تشاركنا المحسن في تبادل المعلومات، إلا أن نوعية المعلومات كانت هزيلة متواضعة. وفي شهر أيلول وحده، قام الفريق

الضارب قرابة ست غارات بحثاً عن محمد حدوشي، وكلها كانت غير موفقة، كما كان هناك نحو ست إغارات على أهداف منتقاة وعشر غارات للقبض على عزت إبراهيم الدوري وكانت كلها غير ناجحة. والدوري هو كبير المستشارين العسكريين لصدام وهو الملك الإسباتي في ورق اللعب الحامل رقم 6 في القائمة السوداء.

إذا لم يكن الدوري طليقاً ومشتبهاً في أنه في مكان ما من تكريت، فإنني لست واثقاً من أن فريق المراقبة ما يزال متمركزاً هناك، وقد وضعت جائزة قدرها عشرة ملايين دولار لمعلومات تؤدي إلى اعتقاله. وبدا في بعض الأوقات أننا لن نعثر على الدوري في البلدة. كنا ما نزال نقوم بالغارات ونجمع المعلومات، لكن تركيزنا انصب على إيجاد هذا الشخص من القائمة السوداء.

لكن عندما يتعلق الأمر بإلقاء القبض عليه أو على أي من الأهداف الأخرى من الأشخاص العالية القيمة، كنا نرجع بالخذلان. فالفريق الضارب لام جامعي المعلومات، وحصلت على نصيبي من اللوم نتيجة نقص المعلومات الجيدة، لكنهم على عكسي كانوا لا يستسلمون ولو كانت النتيجة غير مشجعة أحياناً.

★★★

شعرت بالراحة وأنا آخذ مكاني على مائدة الطعام بعد قيامي بالاستجواب لمدة اثنتي عشرة ساعة، وقدم لي جيف بيرة باردة. كان جيف من الرجال الذين تصعب معرفتهم، لكن تقديم البيرة كان ينم عن الصداقة، وبعد ذلك كنا نتشارك في بيرة باردة عقب يوم عمل طويل.

وصل ريتش إلى بيت الضيافة يحمل أخبار قيام الشرطة العراقية باعتقال ناصر ياسين عمر المصلط، وكنت أعرف جيداً من هو هذا الأسير. فعلاوة عن كونه من أسرة المصلط، إلا أن ناصر كان من أفراد حماية الدائرة الداخلية. وقد اشتهر عنه أنه كان آخر من تواجد مع صدام قبل بداية الحرب، كما أنه على علاقة جدية بسلسلة قيادة الحماية. كان أخاً لفارس ياسين الذي يفترض أنه يدير مجموعة المتمردين حول بلدة العلم وكان ابن عم العديد من آل المصلط الذين احتلوا مكانات رفيعة.

كان علي أن أتحدث معه، لكني كنت آمل أن يتأخر الأمر، لكن الوقت الذي جلبه فيه ريتش كان متأخراً على البدء بالاستجواب، ويمكن أن يحصل هذا في الغد.

لم يكن هناك حظ، ولا بد من تأخير عملية نقله إلى بغداد، لذا كان علينا أن نتكلم معه على الفور، وبدأت ليلة عمل طويل.

أحدث ناصر انطباعاً فورياً. كان ينقص بضع بوصات عن ستة أقدام وكان يزن قرابة مئتين وخمسين رطلاً وكان قد عومل بفظاظة من الشرطة العراقيين الذين ألقوا القبض عليه، لكنه لم يبد خائفاً من الموقف ولم يظهر أي علامات على أنه قد فقد أعصابه. وكان انطباعي الأول إن الحصول على شيء من هذا الشخص سيكون عملاً صعباً. وكان كذلك.

في الساعات القليلة الأولى كان لديه قصته وقد تمسك بها. ادعى إنه لا توجد اتصالات بينه وبين أسرته الكبيرة وأصدقائه، وإنه كان يعيش بسلام في بيته مع زوجته وأولاده منذ بدء الحرب. استعملت كل شيء قدرت على التفكير فيه كي أهز ثقته بنفسه، لكن ذلك لم ينجح. وأخيراً بعد أن جن جنون المترجم آدم من كثرة صراخي وزعيقي، أخذنا استراحة. رجعت إلى البيت كي آكل شيئاً، وكانت هناك مجموعة من الفريق قد تجمعت حول التلفاز.

عرفت إن ناصر قد يعطيني معلومات لا تقدر بثمن حول عمله الداخلي في حماية صدام، لم أكن أعرف كيف أستخلص ذلك منه. عدت إلى بيت الضيافة وبدأت الاستجواب، وكنت في هذه المرة أسأل أسئلة عامة عن حياته وعمله كنت أحاول أن أصطاد شيئاً، أي شيء قد يضعني على الطريق الصحيح.

شيئاً فشيئاً وأثناء خمس ساعات بدأ السجين يتكلم. من الواضح إنه لم يكن ليخبرنا أين يمكن أن نجد أياً من أفراد أسرته الذين ما يزالون مختبئين أو يشرفون على المتمردين. لكن تفاصيل حياته اليومية لم تكن خارج الحدود. وإجابة بعض الأسئلة البسيطة قد يعطيه مظهر الشريف البريء الذي يبذل جهده في أن يتعاون.

ما أعطاه ناصر كان برنامج عملية حماية صدام. وقال إنه في أي وقت كان يوجد اثنان وثلاثون من أفراد الحماية الداخلية ينقسمون إلى مجموعتين علىورديتين، وكان لكل مجموعة قائد هو المرافق. وقد أعطاني أسماءهم. كما أعطاني أسماء

اثنين وثلاثين حارساً شخصياً من الدائرة الداخلية مع رتبهم. وكان من المثير أن ألاحظ أن الرتبة لم يكن لها تلك القوة في الدائرة الداخلية. فقد ارتكزت الرتبة على أعوام الخدمة فقط، وكانت القوة تنحصر في علاقة الأسرة بصدام وقربها منها، ورائد له علاقات جيدة يمكن أن تكون له سلطة أقوى من العقيد.

في نهاية جلستي مع ناصر تعلمت أشياء حاسمة، أولها أننا قد نفذنا إلى الدائرة الداخلية لحماية صدام وهم الذين كان يثق بهم. ومنذ وصولي وأنا أعمل على قائمة تحوي مئتي اسم من الحرس الخاص على اختلاف أهميتهم، وقد أعطاني جاريد القائمة. أما الآن فأستطيع أن أركز على اثنين وثلاثين وهو رقم يمكن إدارته.

أما الشيء المهم الآخر فهو إنه ليس من الضروري أن تكسر السجين كي تحصل على معلومات قيمة. فلم أكن قادراً على إخافة ناصر كي يخبرني ما أردت أن أعرفه، لكن التحدث معه فقط عن حياته في الحماية قد أدى الغرض وعلمني أكثر مما تعلمته من عشرات الاستجوابات التي قمت بها. أما الحقيقة فكانت أن ناصر كان مثالاً للسجين الذي لم تكن تهم مسالة كونه مذنباً أو بريئاً. كنت أحاول الحصول على معلومات ولم يكن يهم إذا كان المصدر جيداً أو سيئاً أو مختلفاً ما دام لديه ما أحتاجه، وأنا قادر على أن أجد طريقة لاستخلاص ما أريد منه.

★ ★ ★

أتاني أولسن ثانية حول مصادر أخرى كان قد طورها. هذه المرة كانوا ثلاثة من الأشخاص الذين يعيشون شرقي دجلة ليس بعيداً عن بلدة العلم. سماهم أولسن الأصدقاء الثلاثة، وأرادني أن أتحدث إليهم لأنهم يدعون أنهم يملكون معلومات عن آل المصلط ولا سيما ردمان إبراهيم.

كان ردمان ابن عم نظام الذي طاردناه في الغارة التي جرت في ليلة وصولي إلى تكريت. وقد عرفت أن ردمان كان إداري الدائرة الداخلية لحماية صدام وأنه يعتبر واحداً من أقوى أفراد نخبة الحماية. وادعى الأصدقاء الثلاثة إن أحد آل المصلط من ذوي الرتب الرفيعة ما يزال بين الحين والآخر يزور مزرعة له في منطقة شمال تكريت، وقد تبرعوا بأن يخبرونا عندما يحضر في المرة القادمة.

«لماذا تساعدوننا في القبض عليه؟». سألتهم بعد أن جاؤوا بهم إلى بيت الضيافة، فأجاب أحدهم: «نريد أن نعمل لدى حاكم تكريت، وربما تقولون له كلمة طيبة عنا». أما الحقيقة فكانت إن هؤلاء الثلاثة لم تكن لهم صلة بردمان، وكل ما يعرفونه هو فكرة غامضة عن مكان تواجده ودوره في التمرد. لكن حماستهم أشارت إلى شيء ما على الأقل.

قال الآخر: «سنحتاج إلى سيارات وأسلحة وهواتف كي نقوم بالعمل».

«لماذا؟».

- «عندما يكون لدينا سيارة سننضم إلى المتمردين وسنحمي أنفسنا بالسلاح، وعندما نجد ردمان سنتصل بكم لإبلاغكم عنه». قال المتكلم باسمهم.

كظمت ضحكة وقلت: «دعني أكن صريحاً معك. ساعدني على الإمساك بشخص سيئ وسأساعدك، لكن ليس قبل ذلك، وفي هذا الوقت، اعرف ما تستطيعه عن ردمان وأخبرني متى كان لديكم شيء يمكن أن أستعمله».

لم يرق ذلك لهم، لكن لم يكن أمامهم خيار، واتفقنا على أن نتقابل بعد عشرة أيام لنرى إذا كانوا قد توصلوا لشيء ما. لقد كانت لدي شكوكي. لكن كان لدي عشرة بأن الأمور بدأت تتحرك مع أنه ليس لدي فكرة عن إلى أين تتجه وكيف نسبقها. والعمل مع كشافة الفوج الرابع لم يعط نتائج وكذلك تحقيقاتي. كنت ما أزال أفتش عن نماذج أو شبكات أو خيوط أحداث بسيطة يمكن أن تتجمع وتقودنا إلى شيء ما. والأصدقاء الثلاثة لن يقدموا شيئاً، لكنني لم أستطع أن أبعد الاحتمال مهما كان ضعيفاً.

بدأت بواسطة الاستجواب المستمر أحصل ببطء على صورة أفضل عن أنشطة المتمردين في تكريت ذاتها. بعضها كان يقوم به شباب عراقيون شكلوا جماعات مرنة لقتل الأمريكان. كان هناك فرق بسيط بينهم وبين أي جماعة دم في مدينة أمريكية لأن الذين يطلقون الرصاص أصبحوا قادة بينما انضم الآخرون بفعل الضغط.

أحد الرجال المشهورين من هذه العصابات كان اسمه منذر. كان يدير ثلاث خلايا صغيرة من المتمردين، لكنها كانت قاتلة. في أواخر أيلول تمت الإغارة على

منزله. لم يكن منذر هناك لكن تم إلقاء القبض على أربعة من أخوته الذين جلبوا للتحقيق. والمعلومات التي قدموها كانت لها فائدة محدودة، لكن مطاردتنا المستمرة لمنذر قدمت لي مصدر استخبارات جديداً مهماً عما يجري في شوارع تكريت.

أطلقنا على هذا المصدر الجديد اسم فريد. كان يعمل مع كريس كأحد مخبريه وقدم له المكان المفترض أن يتواجد فيه منذر. وكمجرم شوارع فقد كان خبيراً في اختراق هذه المجموعة المراهقة من المتمردين. عندما انتهى كريس من استخلاص المعلومات منه، بدأت الكلام معه. كان نافورة معلومات، يعطي تفاصيل حول أحياء محددة في تكريت ومن كان يعمل وفيما إذا كانوا جزءاً من منظمات أكبر.

لكني كنت بحاجة إلى إيجاد طريقة أضع فيها هذه المعلومات كلها مع بعضها، واربط بين المشتبه بهم والمصادر وأفرق اللاعبين. ربما لم يكن الأمر يعدو شبكة طليقة من المتمردين الذين يعملون لحسابهم، وربما لا. وربما كان هناك شخص يدير كله هذا الأمر.

الفصل الثامن

تغيير الحرس

19:45

2003/10/11

في أوائل تشرين أول كانت خدمة الفريق في تكريت على وشك الانتهاء. وبينما كانوا يجهزون للرحيل، استرجعت في ذاكرتي الأسابيع التسعة الماضية. وعلى الرغم أنها لم تكن كلها نجاحاً، إلا أنني أشعر أننا قد أنجزنا الكثير. لقد قبضنا على العديد من الأشخاص السيئين وساعدت في التعرف على عشرات آخرين. لقد ساعدنا في الحفاظ على وجود أمريكي في جزء من البلاد الذي كان موالياً جداً لصدام. والأهم أننا كنا نتقدم في تفكيك شبكة القوة والتأثير في تكريت.

شعرت بالأسى وأنا أرى الفريق يتأهب للرحيل، فقد أصبحت قريباً منهم، وكان مشرفاً لي أن أخدم مع هؤلاء الجنود النخبة، وكنت سأفتقد جيف على وجه الخصوص. ومع أنه رجل يصعب التعامل معه، إلا أنه ترك لي حرية صقل مهاراتي في الاستجواب، وعلاوة عن مئات الاستجوابات التي قمت بها، فقد حضرت نحو ثلاثين اجتماعاً مع المخبرين. وعلى الرغم من أن الغارات نادراً ما كانت تحظى بالأهداف التي نطاردها، إلا أن جيف كان يعرف قيمة المحقق الجيد بغض النظر عن الوقت الذي تستغرقه عملية الاستجواب. وينطبق الشيء نفسه على ريتش المحلل وكريس ضابط الحالة، فقد عملنا جميعاً مع بعضنا بعضاً.

لم تكن لدي أي فكرة عما إذا كان الفريق الجديد سيتركني أقوم بعملي بالحرية بنفسها، كذلك لم أكن أعرف فيما إذا كانوا يريدونني أن أبقى في تكريت. سأبدأ من البداية، لكني سأكون الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يخبرهم عما كان يجري على الأرض في البلدة. وسيستغرق الفريق الجديد وقتاً كي يبدأ التحرك. وفجأة وجدت نفسي المقيم الخبير.

بغياب الإستراتيجية الواضحة، كان عليَّ أن أطابق قطع الأحجية مع بعضها لا سيما وأن هذه القطع بدأت تتطابق مع نهاية شهر أيلول. كنا نركز على بعض المشبوهين الذين ربما كانوا يساعدون أو يحرضون المتمردين في منطقة تكريت، وكان على القائمة أشخاص مهمون مثل ردمان إبراهيم وفارس ياسين وحدوشي. كانت لي نظريتي الخاصة حول كون حدوشي أولوية أولى. كما أننا قد عرفنا الكثير عن شجرة أسرة المصلط، فقد كان قرابة أربعون منهم في سن القتال في تكريت. كنا نعرف من هم وأين عاشوا قبل الحرب وموضعهم في الهرم الأسري. فمعظمهم خدم في حماية صدام. لماذا هذه الأسرة؟ لماذا كان الكثيرون منهم في الحماية؟ كانت هذه هي الأسئلة التي تدور في مخيلتي وأنا أرى آخر فرد في الفريق يغادر.

وصل الفريق الجديد وذهبنا إلى أرض هبوطهم لنحييهم ونساعدهم في إفراغ حاجياتهم. وفي طريق عودتي إلى البيت شاهدت بعض المشغلين وأجبتهم عن أسئلتهم حول الطعام والإقامة. لاحظت أنهم أصغر سناً من أفراد الفريق السابق، لكن تدريبهم كان عالياً كمحاربين مثل أولئك الذين غادروا، ولم يكن هناك شك حول مهنيتهم وتصميمهم. كان معهم بعض كبار السن. سكوت مضى عليه في الخدمة ثمانية عشر عاماً. ودوغ الرقيب الذي حل مكان مات كان جندياً محترفاً يحترمه رجاله. وجون قائد الفريق الذي يناديه الجميع بام بام كان هادئاً حي الضمير، وتبين لي فيما بعد أنه من أذكى الضباط الذين عملت معهم. قضيت الساعات التالية وأنا أريهم مقرهم الجديد وبعدها أراد محلل الاستخبارات كيلي أن يتحدث معي. قال لي إن ريتش قبل مغادرته قد أخذه إلى الكثير من الأماكن وقدمه إلى الكثيرين من الناس، لكنه ما يزال لا يعرف أين نحن في هذا القتال.

قلت له: اسألني أي شيء. قال: «أين صدام؟». قلت له: «قد يكون في تكريت». كنت مهتماً بمعرفة رد فعل كيلي على كلامي، فقال: «هل بالفعل تظن ذلك؟». وبدا مستغرباً. كنت أنا نفسي مستغرباً أيضاً لأنها المرة الأولى التي أشارك بها شخصاً نتيجة كنت قد بدأت تكوينها. فقال: «هل القائمة السوداء رقم 6 - الدوري معه؟».

أخذت نفساً عميقاً، فقد كانت فرصة لي لإثبات نظريتي حول صدام. فهذا الشخص لا يعرف ماذا جرى في البلدة أثناء الأشهر الثلاثة الماضية. وقلت له: «لسنا مهتمين بالدوري، فهو لم يعد لاعباً، ولدينا لاعبون آخرون نتعقبهم الآن». قال: «مثل من؟». أعطيت كيلي تفصيلاً استغرق خمساً وأربعين دقيقة وشرحت له إن صدام كان يثق بأفراد حمايته وأننا نعرف ذلك، ونعرف إن هناك اثنين وثلاثين منهم في الدائرة الداخلية وأننا قد حددناهم جميعاً. بعضهم قتل أو أسر، وبعضهم غادر البلاد، وما يزال بعضهم في تكريت.

سألني: «كم منهم؟».

قلت: «قرابة عشرة من قادة المتمردين هنا، وأظن إن أربعة منهم من قبيلة المصلط، وكانوا جميعهم في دائرة الحماية الداخلية، وكانوا مرتبطين مباشرة بصدام وربما ما يزالون على اتصال معه».

سأل كيلي: «أين التقارير عن هؤلاء؟».

قلت: «إنني أحتفظ بكل شيء في رأسي».

جال ببصره في أرجاء الغرفة التي كانت مكتب ريتش ورأى رسوماً بيانية على الحائط تحوي أسماء مع تسلسل السلطة والروابط الأسرية ثم سألني: «هل هذه ما كنت تتحدث عنها؟».

قلت له: «هذه الرسوم البيانية كانت موجودة قبل حضور الفريق الذي حللتم مكانه، والأشخاص الذين أتعقبهم ليسوا في هذه الجداول».

قال: «ضع جداولك الخاصة بك على الورق. إنني بحاجة إلى أن أتابع ذلك فإذا مت وما تزال الأسماء في رأسك فإن علينا أن نبدأ من الصفر».



كان باستطاعتي أن أقول المزيد لكيلي تلك الليلة، لكني لم أرد أن أثقل عليه، فقد أعطيته فكرة عامة. لكني كنت قد قصرت تركيزي على قائمة الاثنين وثلاثين التي زودني بها ناصر ولا سيما الأخوة ردمان إبراهيم ومحمد إبراهيم وخليل إبراهيم وابن عمهم فارس ياسين. كانت هذه الأسماء تذكر في كل تحقيق مع السجناء أو في الحديث مع المخبرين. وقد احتلت هذه الأسماء مكاناً مركزياً في ذاكرتي مع ربطهم بالعديد من أفراد الحماية السابقين والمتمردين المعروفين. وعندما كنت أفحص مئات الصفحات من ملاحظاتي، كانت الإشارات تعيدني إلى هؤلاء الرجال الأربعة.

كان هناك الكثير من الأسئلة التي ما تزال تنتظر الإجابة عنها. لماذا تنخرط قبيلة المصلط في التمرد؟ لقد كانوا ذوي مناصب ورتب. لم يكونوا بحاجة إلى النقود، فقد تولى صدام ذلك. والدافع الوحيد المعقول هو ولاؤهم لقائدهم. لقد أقسم هؤلاء الرجال على حماية وإطاعة صدام، فبمن يثق الآن وهو مختبئ أو فار.

الحقيقة أنني كنت مقتنعاً أكثر بأن صدام موجود في مكان ما في تكريت. وكان دليلي هو قرب أفراد الحماية في المنطقة ولا سيما الأخوة المصلط وابن عمهم، فصدام سيبقيهم قريباً منه وربما ما يزالون يتبعون أوامره.

لم أكن واثقاً من أنني قد أقنعت كيلي، لكن بعد عدة أيام حانت أمامي فرصة تقديم نظريتي لقائد الفريق بام بام وروود ضابط الحالة الذي حل محل كريس. كان في الثلاثين من عمره وجندياً سابقاً في العمليات الخاصة. وقد سلم بأنه لا يعرف شيئاً عن الوضع وأنه ميال لأن يتعلم من أي فرد، وأصبحت مصدر معلوماته الأساسي.

كان الأمر مثيراً بالنسبة له في البداية، وحاول رود أن يكتب ما يستطيع ويضع ذلك على لوح معلق على الجدار. وضع قائمة بأسماء الأهداف الرئيسة التي قدمتها له مع وصف مختصر لما نعرفه عن كل منهم.

الاسم الذي كان يشد الانتباه هو محمد إبراهيم أحد الأخوة من قبيلة المصلط الذي كتب رود مقابل اسمه «البطاقة الجامحة». وكانت المعلومات التي جمعتها تشير إليه على أنه القائد الرئيس للتمرد، لكن أحداً من السجناء أو المخبرين لم يتكلم معه أو رآه منذ ما قبل الحرب، وإذا كان ما يزال على علاقة بأخوته من أفراد الحماية فإنه كان يقوم بعمل عظيم باختفائه هكذا.

كان أخوه ردمان على عكس ذلك، ومع أنه كان مراوغاً، إلا أننا بين الحين والآخر كنا نسمع كلاماً عن مكان وجوده أو أنشطته، وادعى الأصدقاء الثلاثة الذين جلبهم لي أولسن بأنهم يستطيعون اصطياده، وكذلك قال الأكراد الذين كان يشغلهم كريس كمخبرين قبل مغادرته. في بداية تشرين أول جاؤوا إلينا يدعون أن ردمان موجود غربي مدينة حديثة، وإننا إذا أغرنا على المكان في الثلاث ساعات القادمة فيمكننا إلقاء القبض عليه. لم يكن ذلك ممكناً، فنحن على الأقل بحاجة إلى اثنتي عشرة ساعة للتحضير للغارة. شعر الأكراد بالخيبة، لكنهم وعدوا إنهم في المرة القادمة سيقدمون معلومات أوفى عن مكان وجود ردمان. فقد كانوا يكرهون صدام، وكان ذلك ببساطة هو الدافع.

عندما استقر رود بدأ العمل مع فريد مجرم الشوارع الذي كان أفضل مصدر للمعلومات عن الشباب الذين كانوا يعملون مع المتمردين، وعلى عكس الأكراد فإن دافع فريد للتعاون كان مختلطاً. فهو يتوق لأن يكون زعيم قبيلته، وقد شجعنا على اعتقال جميع المنافسين له، كما كون علاقة مع زينا وهي مترجمة محلية تطوعت لمساعدتنا، ولم يحضر أي جلسة إلا وهو يحمل هدية لها.

يتفق الجميع على إن الأمر يستلزم مجرماً للقبض على مجرم. وقد طلب رود من فريد أن يركز جهوده على منذر، أشهر زعماء العصابات. ثم جاءني رود ليفحص قائمة الأهداف التي حددتها، وكنت آمل منه أن يوجه جهود فريد نحو الأخوة المصلط وابن عمهم فارس ياسين.

تناقص عدد الغارات في الأسبوع الأول لوصول الفريق، ومع أنهم قد بدؤوا يتعرفون على البيئة التي يتواجدون بها، إلا أنهم كانوا بحاجة إلى معلومات استخبارية واقعية. وقد سألني رود أكثر من مرة لماذا نطارد أشخاصاً لم يسمع بهم من قبل، وكان علي أن أعطيه سبباً.

حصلت أخيراً على سبب عندما استجوبت أحمد ياسين، أحد الأخوة الذين يشكلون آل المصلط. لم يكن أحمد على قائمة أفراد المصلط المطلوبين لأن هذا الاسم ببساطة لم يرد أثناء التحقيقات أو على لسان المخبرين، لكن ذلك لم يكن سبباً لعدم استجوابه. فأحد أهم الدروس التي تعلمتها أثناء الشهرين الماضيين هو أن الناس البريئين تماماً يمكن أن يقدموا معلومات مهمة عن الأشخاص المذنبين.

لم يتعد أحمد العشرين من عمره، وقد اعتقلته الشرطة المحلية قبل أسبوع، وقد أوقفوه أربعة أيام قبل تحويله إلى الفرقة الرابعة مشاة.

بعد ست ساعات من الاستجواب العقيم بدأ يهتز، فسألته: «ما مدى اشتراكك في التمرد؟».

- «لقد أخبرت المحققين الآخرين بكل ما أعرفه».

نظرت حولي وقلت له: «ألا ترى هؤلاء الأشخاص هناك؟». هز رأسه. فقلت: «إنهم ليسوا هنا، ولا أهتم لما قلت لهم، إنني أهتم فقط بما ستخبرني به، لذا دعنا نبدأ من البداية».

كان أحمد قد اعترف باشتراك على مستوى منخفض في أعمال التمرد، أنه أخذ الجنود في غارة بيت عمه، لكنه لم يكن هناك. لم أكن أهتم لذلك، إذ أردت أن أعرف عن إخوته، وكنت على استعداد لقضاء الليل بطوله لأحصل على ما أريد. قلت له: «الأشخاص الذين تعمل معهم سيئون جداً يا أحمد. لقد قتلوا العديد من الأمريكان ومن العراقيين الأبرياء.

«لم أرد أن أشترك، وكنت سعيداً عندما أسرتموني، ولهذا السبب فإنني سأساعد الأمريكان».

- «أنت كاذب. لقد كنت مع المتمردين منذ البداية».

- «لا يا سيد، أرغموني على الانضمام إليهم، وقالوا لي إنني يجب أن أنضم إليهم بعد اعتقال أخي ناصر، فقد كان يوزع الأسلحة وقد أعطوني مكانه».

ناصر ياسين عمر المصلط، من كبار حماية صدام ومن قبيلة المصلط أحمد ورط أخاه، فقد كان أول تأكيد مستقل من واحد من آل المصلط بأن واحداً آخر من قبيلة المصلط كان متورطاً مباشرة في حركة التمرد والعصيان.

قلت له: «اسمع أيها الأبله. لمن كان ناصر يسلم الأسلحة؟ اكذب علي ولن تخرج من هذا السجن. ستموت هنا».

كان الفتى يهتز وقال: «لا أعرف، فقد أخبرني ناصر إن ردمان مشترك».

جلست على كرسي، فقد أثبتت نظريتي صحتها، والآن لدي صلة مباشرة بأحد الأخوة المصلط الأربعة الذين وضعتهم على رأس قائمة المطلوبين، لكن كانت هذه البداية.

- «هل يعمل ناصر مباشرة لصالح ردمان؟».

- «لا، إنه يحصل على رسائل من فارس».

فارس ياسين عمر المصلط؟ كان هذا هو أخ آخر لأحمد وأحد المشبوهين الرئيسين من آل المصلط. لقد كان كل ذلك تأكيداً لما أخبرت به كيلي وبام وورود مع أنني أنا نفسي لم أصدق ذلك قبل الآن.

- «هل فارس أعلى رتبة من ردمان؟».

هز أحمد رأسه وقال: «فارس يخطط الهجمات ولديه مجموعتان. لكنه ليس قائداً كبيراً».

- «من القائد الكبير؟ هل هو ردمان؟».

- «لا أعرف، فأنا لم أرد ردمان قط».

- «هل ترى فارس؟ لا تكذب علي».

فكر لحظة ثم قال أخيراً: «فارس له صديقان هما شاكر وأبو قصار وهما يعرفان أين يوجد. إنهما قريبان جداً منه».

- «هل هما في حركة التمرد؟».

- «ربما يكون شاكر، لكن أبو قصار رجل عجوز، فهو يجلس طوال اليوم يلعب الدومينو». حفظت الاسمين ثم تابعت أسأله: «ماذا عن شقيق ردمان، عمك محمد إبراهيم، هل رأيته؟».

- «قبل أسبوعين، كان ماراً من تكريت وأنا متأكد أنه هو».

- «لمن يتبع محمد إبراهيم؟».

- «يا سيد، لا يتبع محمد إبراهيم لأي شخص؛ باستثناء الرئيس».

لأول مرة في حياتي شعرت أنني غير قادر على الكلام كان الرئيس هو صدام.

الفصل التاسع

تسعون بالمئة

11:00

2003/10/14

كان استجوابي لأحمد منجم ذهب. وأكدت لكيلي ما اكتشفته بالضبط وعلى الفور قام بنقل المعلومات إلى بام بام وورود.

«أخبروني أنك تحتفظ في رأسك بخريطة عن كامل شبكة تكريت» قال لي بام بام في صبيحة اليوم التالي: «هل هذا صحيح؟».

- «نعم يا سيدي».

- «تحتاج أن تقوم أنت وكيلي بعمل رسم بياني بالصلة، وتوقف عن مناداتي بسيدي، نادني بام بام».

أذعنت لكلا الأمرين وعند حلول مساء ذلك اليوم كنت قد وضعت جدولاً بقرابة ستين اسماً، قسمتها إلى فئات بحسب أهمية كل مشبوه في حركة التمرد. كان صدام على رأس القائمة بالطبع وتحته الأخوة المصلط ومحمد حدوشي، وأصر كيلي على إضافة الدوري. لم أعترض على الرغم من أن ذلك مضيعة للوقت، لكنه كان يشكل أولوية بالنسبة للآخرين. كنت أعرف من ينتمي إلى رأس القائمة، فالأهداف الوحيدة التي أردت الفريق الجديد أن يركز عليها هي المصلط. ومن وقت استجواب أحمد ياسين بدأت أتجاهل أي إشاعات أو أخبار عن الدوري قد تجد طريقها إليّ.

أردت أن اسقط محمد حدوشي من القائمة مع أنه ظل أولوية أولى للفوج الرابع مشاة. لقد كنت أطارد هذا الشخص منذ حضوري إلى تكريت وبدأت الشكوك تراودني حول قيمته كهدف، والسبب هو أن ابن أخيه قد قتل مع أبناء صدام عدي وقصي. ومع مضي الوقت بدأت أقتنع شيئاً فشيئاً أن حدوثي لم يكن فعالاً في حركة التمرد وأنه لا يمكن أن يقودنا إلى صدام.

حسب طريقتي في التفكير كان اختياري لحلقات الرسم البياني انتقائياً فقد كنت ما أزال أتحدث مع العشرات كل أسبوع من الأسرى إلى المخبرين. وكانت ترد مئات الأسماء أثناء الاستجوابات من الذين قد يستحقون أو لا يستحقون المطاردة. ومع أن بعضهم كان من الأشخاص السيئين، إلا أن الآخرين كانوا أبرياء أو أشخاصاً أراد أعداء لهم أن يوقعوا بهم. وكانت مهمتي أن أصنف وأختار من نلقي القبض عليه، وقد قررت من هي تلك الأهداف.

عندما انتهيت أنا وكيلي من الرسم البياني، حذرني بأنني يجب أن أخفيه عن العيون حتى لا يراه أحد الضباط الكبار الذين يأتون في زيارة. والأولويات التي وضعتها تختلف بالقطع عن أولويات غيري من العاملين في العراق. وما كان يهمني هو أن كيلي وبام بام لم يرفضوا القائمة. فكيلي لم يرد لأحد أن يرى ما كنا نفعله، وكان ذلك قلقاً مشروعاً، فقد ننتهي قبل أن نبدأ.

كنت في وضع فريد. قبل وصولي إلى تكريت لم يكن لي رأي في الأهداف. فقد كانت القوائم موضوعة قبل أن أصل. لكن في الشهور التي تلت فإن فشل الغارات أوضح أننا بحاجة إلى قدرات استخباراتية. كنا بحاجة إلى أسلوب جديد وكنت في المكان والزمان المناسبين كي أقوم بذلك.

حتى بعد وصول الفريق الجديد لم يكن لي سلطة أو تأثير بحيث أوجه الغارة إلى حيث يجب أن تذهب، كنت حلقة في فريق يجمع الاستخبارات ويقيِّم المعلومات الواردة من مصادر عديدة، وكانت المعلومات التي نحصل عليها من الموقوفين أقل أهمية من تلك التي تأتي من مصادر طورها ضباط الحالات.

تغير هذا الوضع في أواخر تشرين أول. كان رود - ضابط الحالة الذي حضر مع الفريق الجديد. من الضفادع البشرية في البحرية. ونادراً ما كان ينضم إلى

المحترفين في حقل الرمي، وكان يحاول أن ينشئ علاقة مع النخبة من الجنود كي يصقل مهاراته. لكن حصل حادث جرح فيه بشظية استقرت في بطنه ونقل على أثرها إلى ألمانيا لإجراء الجراحة.

أحببت رود وأنشأنا منذ البداية علاقة عمل جيدة، وقد وفر لي ذلك فرصة تنظيم عملية الاستخبارات بطريقة جديدة تماماً. وفي اليوم التالي أخبروني إنه لا بديل لرود، لذلك سلموني المخبرين التابعين له كي أقودهم بالشكل المناسب. كان رئيس رود يتعامل باللوجستيات مع المصادر، وأنا الذي أقرر الآن الأهداف التي يجب أن يطاردوها. كانت حادثة رود ضربة حظ بالنسبة لي. صرت فجأة مسؤولاً عن جميع الاستخبارات البشرية الخاصة بالفريق. فبالإضافة إلى الاستجواب، كنت أجتمع بالمخبرين ولم يعد يهم إن كانت المعلومات من نتاج الاستجواب أو من المخبرين لأنها في النهاية ستكون جهداً منسقاً لجمع استخبارات عملياتية في مدينة تكريت.

كنت أعرف بالضبط كيف أركز على المصادر الجديدة، فاجتمعت مع صديقي الرقيب أولسن الذي كان يدير أفضل فرق كشافة الاستخبارات في الفوج الرابع مشاة، وأخبرته كل ما أعرفه عن آل المصلط. أتاني أولسن في اليوم التالي مع الأصدقاء الثلاثة الذين لم أتكلم معهم منذ عدة أسابيع بعد أن طلبت منهم معرفة مكان وجود ردمان، عادوا الآن ليقولوا إن لديهم معلومات عن فارس ياسين. كانوا ما يزالون يريدون أسلحة وسيارات وهواتف متنقلة. لم أكن واثقاً منهم، لكني فكرت في أن يكونوا مفيدين.

أخبرتهم إن «فارس ياسين له صديقان أحدهما اسمه شاكر والآخر أبو قصار «أين هما؟».

أجاب المتحدث باسمهم: «شاكر هو قائد مجموعة متمردين في الشمال».

- «ماذا عن أبو قصار؟».

نظروا إلى بعضهم بعضاً وهم يبتسمون وقال المتحدث باسمهم: «يا سيد، تستطيع أن تجد أبو قصار بنفسك. فهو دائماً في مقهى بالبلدة، وهو عجوز لا يقدر على القتال».

- «هل هو صديق فارس ياسين؟». هزوا رؤوسهم.

- «اذهبوا وأحضروه».

- «سنحضر لك فارس ياسين، فأبو قصار لا شيء».

أجبت حسناً، وعندها لن تجدوا مشكلة في إحضاره لي، قوموا بذلك وسأعطي كلاً منكم رشاش ak-47 حتى إنني سأعطيهم سيارة.

★★★

جاءتنا معلومات من مصدر كانت تطوره الشرطة العسكرية في الفوج الرابع مشاة. كان اسمه «الذكي» من المدينة الشمالية كركوك، وكان في العشرينيات من عمره، جلبوه لي لأنه كان يصر على أنه يعرف بالضبط مكان وجود فارس ياسين وأنه سيأخذنا إليه على الفور. خامرني شعور بأن هناك شيئاً ما حول هذا الشاب، ادعى أنه الصديق الحميم لفارس ياسين، وكان ذلك غير ممكن لأن هناك فارق في السن قدره ثلاثون عاماً. كذلك لم يستطع أن يخبرني الكثير عن أسرة المصلط القوية قبل الحرب. أرتج عليه عندما سألته عن أسماء أصدقاء فارس ياسين. لم يكن يعرف شاكر أو العجوز أبا قصار اللذين كنت أعرف أنهما قريبان جداً من فارس.

أصر الذكي إنه ليس لديه معرفة سابقة عن أنشطة صديقه المفترض في حركة العصيان. لكنه عندما عرف أن الأمريكان يريدون فارس قرر أن يسلمه لنا من أجل الجائزة، وحذرنا بأنه سيكون هناك قتال حتى الموت عند محاولتنا إلقاء القبض على فارس، وأصر على أن ننسف البيت الذي يختبئ فيه.

لم أكن قلقاً حول قتال حتى الموت، فأنا أعرف إن الفريق سيدخل البيت ويخرج منه قبل أن يستطيع أحد أن يتصرف. لكن ما أزعجني هو أن هذا الفتى قد ظهر فجأة ولديه معلومات استخبارية مهمة حول قائد خطر، وأنه أراد أن ينتقم منه بكل ما لديه. وفي الوقت نفسه رفض أن يذهب في الغارة أو أن يتعرف على فارس من بين مجموعة من المعتقلين إن كنا قد قبضنا عليه حياً.

من كان بالفعل في ذلك الموقع؛ هل كان فارس ياسين أم شخصاً يريد الذكي أن يزيحه من الطريق؟ ربما كان يريد من الأمريكان أن يقوموا بهذا العمل الرديء نيابة عنه وأن يحصل على بعض النقود من هذه الصفقة؟

بعد ساعتين انتحيت بكيلي جانباً ونصحته بألا نقوم بغارة على المنزل الذي قال الذكي أن فارس ياسين يختبئ فيه، لكن قائد فرقة شرطة الجيش في الفرقة الرابعة لم ينظر إلى الأمر بهذه الوجهة وأن لديه القوة لأن يمنح الغارة الضوء الأخضر. وخلف كل واحدة من هذه القصص المحفوفة بالمخاطر هناك حقيقة سياسية تجعلها أكثر خطورة. قوة المهمات في بغداد كانت تراقب عن كثب كل شيء يحدث في المناطق التي خصصت لها فرق مراقبة. ولم تختلف تكريت عن ذلك. فقد كانت لنا حصتنا من المآزق، وفي الوقت الذي كان فيه الحصول على معلومات استخبارية موجبة للتحرك أمراً مفهوماً، إلا أن كل واحدة من هذه الغارات الفاشلة كانت تعطى اسماً. وإذا تراكمت العلامات السوداء بجوار اسمك، فإنهم لا بد أن يأتوا بمن يحل مكانك.

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة. كانت هناك درجات للفشل. إذا قمت بغارة على منزل بحثاً عن هدف ولم تستطيع البرهنة على أن هذا الهدف كان هناك، عندها تقع في ورطة. وإذا استطعت أن تبرهن أنه كان هناك في الثماني والأربعين ساعة الماضية فإنك تقع في ورطة مخففة. أما إذا كان الهدف قد تواجد في المكان في الأربع والعشرين ساعة الماضية وأنك أخطأت القبض عليه فإنك في هذه الحالة تكون قد قمت بعملك.

أسوأ الأمور التي قد تحدث هو البرهنة على أن تتحول الإغارة إلى كمين لك. ولم أكن أفكر أن هذا هو ما يسعى إليه الذكي، لكني كنت متأكداً تماماً من أن ذلك ورطة كبيرة لم أكن أريدها في ملفي. فأنا لم أثق بهذا الفتى ولم أرد أن تكون هناك فرصة لما أعتبره معلومات مشكوك فيها.

ذهبت مع كيلي لأبلغ قائد الفرقة بالأخبار وهو عقيد كنت قد عملت معه سابقاً. وأوضح بكل جلاء أن يسعى وراء صيد كبير، وكان يعتقد أن لديه مهارة غريزية في فصل المعلومات الجيدة عن الرديئة. وقال: «أشعر بأن ذلك صحيحاً»،

وكنت أعرف أن ذلك الأمر يتطلب أكثر من مجرد الإحساس وكان شيء في داخلي يخبرني شيئاً، لكن ذلك لم يكن كافياً، وكان علي أن أبرهن ذلك بربط النهايتين مع بعضهما وملء الفراغات. وحتى بعد ذلك، لم يكن الأمر كافياً في بعض الأحيان. فالرجال سوف يلقون بأنفسهم في وجه الخطر بناء على أفضل تخمين لي، وكان علي أن أتأكد من أن ذلك كان موضوعياً قدر الإمكان.

قلت للعقيد: «سيدي»: «هناك احتمال قدره تسعون بالمئة أن فارس ياسين ليس موجوداً هناك». كنت آمل أن يبتلع ذلك، لكنه بعد نظرة قاسية أخبرنا قائلاً «كنت فقط أريد أن أتأكد من أنك إن لم ترد ذلك، فإننا سنقوم بالعمل».

عدنا إلى البيت، وبعد ليلة أخرى من الاستجوابات الطويلة رحت في سبات عميق. وبعد بضع ساعات، كان بام بام يهزني من كتفي ليصحيني. قال: إيريك، أريدك أن تذهب إلى الشرطة العسكرية وتأخذ فارس ياسين».

لم أكن واثقاً من أنني كنت في علم أو كنت أحلم. تمنيت أنني لو كنت أحلم، فبعد أن نصحتهم بغارة كانت كميناً لهم، أسفرت النصيحة بعدم الإغارة ثانية عن صيد ثمين. جلست في فراشي وأنا أفكر... أيهما أسوأ... منع الفريق من أسر واحد من المطلوبين من آل المصلط على قائمتي، أم مواجهة العقيد الذي قام بالعمل عكس نصيحتي؟

عرض كيلي أن يذهب معي إلى مجمع الفرقة الرابعة لأخذ الأسير، وكنت أتساءل: «ما الذي سأقوله للعقيد؟». أجاب كيلي: «لا تنظر إلي، فأنا لم أقل له إن الاحتمال هو 90 بالمئة بأنه لن يكون موجوداً».

★★★

من تلك الليلة وما بعدها، ساءت الأمور. فقد كان استجواب فارس ياسين من أقسى الاستجوابات والأكثر إحباطاً. كنت أعلم أنه مجرم قاس، وقاطع طريق وعضو عصابة، وكنت أعرف أنه ربما يكون مسؤولاً عن معظم وفيات الأمريكان، وكنت أعلم أن لديه معلومات غزيرة عن المقاتلين والرجال الذين

يقودونه. كما أنه كان يعرف أنني أعرف من هو وماذا يفعل، ولم يكن لديه أي دافع أبداً لأن يتعاون معي.

من جهة أخرى، كان لدي دافع، فأنا لم أرد فقط كل شيء سيقوله لي، لكني أيضاً كنت أريد إثبات شيء آخر. وكنت مصمماً على تصحيح غلطتي الشنيعة عندما أخبرتهم بألا يقوموا بتلك الغارة التي أسفرت عن اعتقاله. لا بد أن أكسره. لكني لم أستطع. وكل ما حصلت عليه من استجواب استمر ساعة ونصف الساعة هو اسمه. وطفحت الأربع ساعات التي تلت بترديد مستمر لقصته التافهة في أنه لم ير أياً من أفراد أسرته منذ ما قبل الحرب وأنه لا علاقة له مع المتمردين أو مع أي شخص آخر له ارتباط بهم. وأنه يقضي أيامه بصيد الطيور. لم يرمش له جفن عندما نعته بأنه كاذب ومخرب وتافه، أو عندما وعدته بأنه لن يخرج من السجن ما دمت حياً. كان لدي شعور بأنه كان فعلاً يستمتع بمعركة الإرادات. وكان عدم إظهار الخوف أو الشك أو الذنب ميزة خاصة بالكبرياء والاعتزاز بالنفس.

استمر الاستجواب الطاحن طوال النهار وذهبت محاولاتي في أن أمسك بتناقض في أقواله عبثاً. وحيث إنه لم يقل لي شيئاً أبداً منه، فلم يكن لديه شيء ليناقضه. أردت أن أسمع منه عن الذكي الفتى الذي أبلغ عن مكان وجوده لكني فضلت ألا أظهر هذه المعلومة. ولم يرد ذكر اسم الذكي على الرغم من محاولاتي الصعبة في أن آخذ فارس ياسين في ذلك الاتجاه. وكان هناك أسئلة أخرى لم أستطع أن أسألها. من الذكي، على أي حال؟ وكيف عرف مكان وجود فارس ياسين؟ ولماذا سلمه لنا؟ وكنت مقتنعاً بأن قصصه التي رواها عن كون قائد التمرد صديقاً حميماً له كانت كذباً. ولم يكن ما قاله فارس ليغير من رأيي، لكني لم أستطع أن أتخيل ما هي الرابطة بين الرجلين.

بعد ثمان ساعات لم أحصل منه على معلومة مفيدة. حاولت أن أجمعه بصاحب البيت الذي كان يختبئ فيه حيث أنه قبض عليه في تلك الغارة. واستطعت أن أحدد بعض التناقضات في قصصهما.

قال فارس بلطف: «إنه خائف، ويريد أن يسرك، وسيقول أي قصص كاذبة يظن أنك تريد أن تسمعها».

في الساعة 15:00 طلبوني خارج غرفة التحقيق. وأخبرني كيلي أن هناك رجلين عند البوابة وأنهما يريدان التحدث معي على الفور. سألت: «من هما؟ ولم يكن لدي مزاج لأن أتكلم مع أي شخص يأتي هكذا.

قال كيلي: «اثنان من الأكراد إنهما يبحثان عنك. وقد قالا إنك أخبرتهما بأن يرجعا إليك إذا وجدا ردمان إبراهيم. وهما يقولان إنه في الحديثة وإنه سيكون هناك حتى صباح الغد.

جذب هذا الكلام انتباهي، فلا بد أنهما الكرديان اللذان كانا يعملان كمصادر لكريس قبل مغادرته للوحدة. لقد عادا الآن بالمعلومات التي طلبت منهما أن يحصلا عليها وهي مكان تواجد أحد أهم آل المصلط، ولم يكن هناك إلا اثنتي عشرة ساعة للقيام بالغارة. واليوم المضني الذي قضيته في استجواب فارس ياسين يتحرك الآن في اتجاه مخالف تماماً.

سألني أحد أفراد الفرقة ونحن في طريقنا للتحدث مع الكرديين: «ماذا تظن، وهل هما مخبران حقيقية؟

أجبته: «لا أعرف، لكن الشرطة العسكرية قبضت البارحة على فارس ياسين في غارة لم أنصح بها. وإذا كان هذا الشخصان سيخبراني بأنهما حلما بمكان وجود ردمان، فإنني سأنصح بالإغارة على المكان.

بعد تدقيق كامل في أقوالهما كنت مقتنعاً بأن هذين المصدرين يقولان الحقيقة. وبعد التشاور مع بام بام تمت القناعة بالقيام بالغارة بسرعة. لقد كانت واحدة من أكثر الليالي حركة وإنتاجاً منذ أن قدمت إلى تكريت.

غادر أفراد الوحدة بعد ساعتين للقيام بالغارة التي كنت آمل أن تسفر عن اعتقال ردمان. عدت إلى فارس ياسين، وفي هذه المرة كنت أصحب معي أخاه الأصغر أحمد ياسين. ردد أحمد كل ما ذكره لي في السابق ولا سيما عن كون فارس عضواً في جماعة المتمردين، لكن النتيجة، مرة أخرى، لم تكن مثمرة.

كان ما يزال لدي أمل في غارة الليلة، وبعدما أخذت استراحة من فارس، كنت أستحقها، ذهبت مباشرة إلى المنزل وإلى الغرفة التي نستخدمها كمكتب، وحالما دخلت، قفز كيلي الذي كان يستمع إلى اللاسلكي وقال: «قبضوا عليه».

سألت: «هل أنت متأكد؟ في تلك اللحظة لم أكن أترك أي شيء للصدفة.

أجاب كيلي وهو ينظر إلى اللاسلكي: «لقد كان بام بام ولن يتصل إذا لم يكونوا متأكدين».

أخذت نفساً عميقاً وسألته: متى سيعودون، ومتى سأستطيع استجواب ردمان؟».

قال كيلي بتردد: هناك قضية ما. لم يعجبني ذلك وسألته: ماذا نعني بـ قضية؟».

أجاب: «الحديثة بعيدة على الغرب من هنا. وكان علينا أن نقوم بالإغارة بفريق من بغداد. ذهبنا بالسيارات لكنهم جاؤوا بالطائرات العمودية وسيأخذون ردمان معهم لاستجوابه في مركز التحقيق في بغداد.

غاص قلبي واحتجيت قائلاً: «هذه غلطة شنيعة يا كيلي. إنهم لا يعرفون من هو. أنا لا أريد ردمان لأنه شخص سيئ، إنني أريده بسبب ما سيخبرني به، ويستطيع أن يخبرنا عن أماكن تواجد المتمردين هنا في تكريت حتى إنه يمكن أن يقودنا إلى صدام».

هز كيلي كتفيه وقال: «إنه موضوع لوجستي، ويحاول بام بام أن يصحح الوضع، لكنهم قد يريدون الاحتفاظ به لديهم لعدة أيام، وسأحاول أن أحضره إليك هنا عندما أستطيع.

قطع اللاسلكي حديثنا، فقد كانت هناك رسالة من الفريق العائد: معنا حمولة ثمينة».

قال كيلي: «أعتقد أن بام بام قد تحدث مع بغداد بأن يتركوا ردمان لنا» قفزت وأسرعت إلى بيت الضيافة وتوقفت لوقت يكفي لأن آخذ بعض حبوب السهر

من حقيبتي. فقد كنت مستيقظاً لمدة طويلة، وكنت أعرف أنني بحاجة إلى ما يجعلني متيقظاً للقيام باستجواب الأسير العالي القيمة.

بعد نصف ساعة، وعندما لم يظهر أحد للقيام بالاستجواب، ذهبت إلى عامل اللاسلكي لأعرف من يرافق ردمان، وفي طريقي صادفت بام بام الذي سألني: باسماً: «هل تلقيت رسالتي؛ قلت بتلهف وقلق: «أجل، أين هو، إنني مستعد للبدء بالاستجواب».

أجاب بام بام وقد تحولت ابتسامته إلى عبوس: «لقد كنت أعبث معك، لقد أخذوه إلى بغداد. لم يكن ذلك خياري، أعلم أنك ستحبط».

لقد نال مني بام بام بشكل جيد. وعندما قفلت راجعاً إلى المنزل كسيراً محبطاً شعرت أن حبوب السهر قد بدأت فعلها وأن الليلة ستكون طويلة بلا طائل.

الفصل العاشر

ردمان الصفير

02:30

2003/11/8

التقطت أنفاسي بشق النفس بعد سلسلة الأحداث التي جرت في الأربع والعشرين ساعة الماضية. لقد تم القبض على اثنين مهمين من آل المصلط في اليوم نفسه. كانت تلك هي الأخبار الجيدة، لكن جاء معها حقيقة أن فارس ياسين لم يكن اقرب إلى الانهيار مما كان عليه عندما جلبوه لي، وكان ردمان على بعد مئات الأميال في سجن بغداد، وكان من المحبط أن تكون قريباً جداً من حل شبكة المتمردين وأنت في الوقت نفسه غير قادر على فعل ذلك. لقد كنت ما أزال أتعامل مع ظروف خارجة عن سيطرتي.

كانت الأحداث تتسارع وكنت بحاجة إلى أن أسبقها بخطوة. عندما أخبرني كيلي بأن الذكي - الفتى الذي دلنا على مكان تواجد فارس ياسين - قد عاد ليأخذ جائزته، طلبت منهم أن يحضروه إلى بيت الضيافة. كنت مصمماً على أن أعرف علاقة كل منهما بالآخر. وكان أملي أن يقول الذكي شيئاً يمكن أن يساعدني في إجبار فارس على الكلام في النهاية.

بدأت بالطريقة التي اعتدت عليها بسؤاله عن أسرته. فهذه الروابط كثيراً ما تكون أهم شيء في إيجاد أين تصب الولاءات والأسرار التي يمكن أن تكون مخبأة. لكن لم يكن هناك شيء فيما أخبرني به يمكن أن يرتبط بالرجال الذين أطاردهم.

سألته: «أخبرني عن والدك».

أجاب الذكي: «كان في الجيش لمدة خمس سنوات، أما الآن فلديه مخزن للأغذية في قريتنا».

- «أي قرية؟».
- «العلم».
- «هل تعيش بقية أسرتك في العلم؟».
- «جدي يعيش هناك».
- «أين والدك الآن؟».
- «إنه هنا. لقد أوصلني حتى أقبض نقودي».
- «هل لجدك أي أبناء آخرين».
- «لي عمان، الأصغر اسمه محمد والأكبر اسمه قصار».

توقفت للحظة، لكن الأفكار كانت تدور في رأسي. الذكي له عم اسمه قصار. وفي الثقافة العربية، عندما يولد للشخص ابن يضيفون إلى اسمه كلمة «أبو». وهذا ما جعل جد الذكي أبو قصار واحداً من صديقين لفارس ياسين الذي أخبرني أحمد عنه.

فجأة، ظهر لي أن الأمر كله له معنى. فالعجوز كان يعرف أننا كنا نبحث عنه فيما له علاقة بأحد قادة المتمردين المطلوبين، وكنت قد أعطيت الرفاق الثلاثة تعليمات محددة من أجل إحضاره، لذلك أرسل حفيده كي يسلم فارس ياسين بدلاً منه وليحفظ نفسه بعيداً عن المشكلات. وكما يقول المثل «مع أصدقاء مثل هذا، من يحتاج الأعداء؟». وعرفت الآن لماذا كان الذكي سطحياً عندما ذكر تفاصيل حياة فارس وأسرته. فكل ما عرفه هو ما طلب منه جده أبو قصار أن يقوله: اذهب إلى الأمريكان وأخبرهم عن مكان اختباء فارس ياسين.

دعوت العجوز وقضيت معه بضع ساعات وأنا أحاول أن أعرف منه المزيد عن الرجل المفترض أنه صديق حميم له. كنت مهتماً بشكل خاص بمعرفة مكان تواجد شاكر، الصديق الحميم لفارس. لكن أبا قصار زعم جهله بالمكان ولم يكن هناك ما يستدعي إثبات غير ذلك. والسبب الوحيد الذي جعلني أهتم بـ «أبي

قصار» وشاكر هو أولاً ما يمكن أن يخبروني به عن فارس ياسين. هو الآن في عهدتنا بينما لا يزال صديقاه طليقين. وكل ما أردت أن أعرفه هو كيف عرف الذكي بمكان وجود فارس، وكنت ما أزال أحاول أن أعرف ما الذي أدى إلى تسليمه. الآن عرفت الجواب.

لكن كان هناك درس تعلمته من واقعة الذكي، فمن نواح أخرى يمكن للأفراد الأبرياء أن يوفروا معلومات قيمة مثلهم مثل أعتى المتمردين المذنبين. لقد عرف أبو قصار بالضبط أين يمكن أن نجد فارس ياسين، وكل ما احتاجه الأمر هو القيام ببعض الضغط، فلم يكن من المفترض أن نقوم بذلك، لكن هذا هو المكان الذي توجد فيه المعلومات. وبدا واضحاً لي أن فارس ياسين لن يكشف أبداً مدى تورطه أو تورط أبناء عمه مع المتمردين. فروابط الدم تسري في الأعماق. لكن كان من المذهل ما يخبرك به المواطنون الشرفاء عندما توفر الدافع الصحيح.



ازدادت العقبات التي واجهتها وأنا أحاول كشف قيادة آل المصلط للمتمردين في تكريت عندما وردت أنباءُ من سجن بغداد بأن ردمان إبراهيم قد توفي بسكتة قلبية حادة وهو في الاعتقال.

كان هذا الموت المفاجئ نكسة رئيسة. فقد ركزت الكثير من الجهد والانتباه على ردمان بناء على اعتقادي إنه عضو مهم في أسرة المصلط. لقد ذهب الآن وذهبت معه حلقة مهمة من سلسلة القيادة. لن تكون هناك فرصة لاستجوابه، ومع الرفض المستمر لفارس ياسين في التعاون، كنت أواجه طريقاً مسدوداً. كان كيلي وبام بام وبقية الفريق ينتظرون ما يمكن أن أحققه من تقدم. لكن بعد وفاة ردمان، بدأت افقد الخيارات القابلة للتطبيق، ولم أعرف ما هو الوقت الذي سأظل فيه محافظاً على ثقتهم.

كالمسك بكومة قش، طلبت من كيلي أن يعمل على إحضار ابن ردمان من بغداد. فقد اعتقل مع والده، لكن القوة الضاربة كانت تستعد لإطلاق سراحه.

كان في الثامنة عشرة فقط وشاهد والده وهو يموت في زنزانة سجن أمريكي. وأراد الضباط في بغداد أن يغسلوا أيديهم من كل هذا الوضع، فأجابني كيلي: «أظن أننا نستطيع جلبه إلى هنا، لكن علينا إطلاق سراحه في القريب العاجل»، فأجبت «سأحتفظ به بقدر ما أستطيع، وخمنت أن يكون ذلك لمدة ست وثلاثين ساعة وعلي أن أستفيد منها كلها».

وصل ابن ردمان في الليل، وكان اسمه عواد، لكنني كنت دائماً أفكر به كـ «ردمان الصغير». ظهر عليه أنه كان مرعوباً ومتأذياً مما مر عليه. أما بالنسبة لي فكان وضعه العقلاني ميزة محددة بالنسبة لي. كنت أستطيع أن أستخدم خوفه لإجباره على الكلام، لذلك بدأت أشدد عليه منذ البداية، وبعد ساعتين، تأكدت أنه لا صلة له بالمتمردين، لكن ذلك لم يعن أنه ليس لديه ما يحدثني به، فقد علمني ذلك الذكي وجده.

كان تكتيكي مع ردمان الصغير أن أتهمه مراراً وتكراراً بأنه يعرف عن دور أبيه في حركة التمرد. والحقيقة الرئيسة التي كنت قادراً على استغلالها هي اعترافه بأن والده كان يختبئ من قوات التحالف. فأنت لا تختبئ إن لم يكن لديك ما تخفيه، لكن ردمان كان ميتاً سواء كان مذنباً أو بريئاً وما كان ابنه يعرفه أو لا يعرفه بدا بعيد الصلة، لكن الأمر تعلق بما يمكن أن يعرفه عن بقية أفراد أسرته. سألته: «كم مرة كان فيها والدك يجتمع مع أخيه محمد إبراهيم؟

بوجود فارس ياسين وردمان خارج الصورة، تحول انتباهي بشكل طبيعي نحو الأعضاء الآخرين من آل المصلط الذين كانوا حراساً شخصيين. وعلى مدى عشرات الاستجوابات والاجتماع مع المخبرين، سمعت اسم محمد إبراهيم يبرز باستمرار. فقد كان هو الأخ الوحيد الذي يتمتع بالقوة والنفوذ على القيام بالعمليات.

أجاب: «لم يحضر محمد إلى بيتنا قط».

صرخت: «لا تكذب علي، أنا أعرف أن والدك قد رأى أخاه عدة مرات، كم مرة؟ أجاب ردمان الصغير بتشنج: «اعتاد أبي أن يذهب إلى بغداد، وربما تقابلوا هناك». رددت الكلمة بازدراء: «ربما؟ نحن لا نلعب لعبة التخمين هنا أيها الأبله».

أجاب: «محمد إبراهيم له أصدقاء، لم لا تسألهم؟».

كان هذا ممتعاً: «أي أصدقاء؟ ما اسمهم؟».

بدا ردمان الصغير وكأنه يحيا ثانية عندما ابتعدنا عن موضوع والده وقال: «سائقه، باسم لطيف».

لم أميز الاسم وقلت: «هذا سائقه، إننا نتكلم عن أصدقائه».

قال: «شريكه التجاري أبو إدريس».

- «سائقون، شركاء تجاريون، ماذا عن أصدقائه؟ هذا ما أريد أن أعرفه». كنت بالفعل سأحصل على ما أريد، لكن كان من المهم أن أجعل الفتى بعيداً عن الدفاع.

أصر قائلاً: «هؤلاء هم أصدقاؤه، فهم دوماً مع بعضهم بعضاً.

كان لدي مشكلة هنا. وكنت أعلم أنه عند إطلاق سراح ردمان الصغير سيقول لأهله كل ما سألته عنه، لكنه لم يكن يعرف بالضبط أفراداً معينين كنت اهتم بهم. فأنا لم اسمع أبداً باسم /باسم لطيف أو أبو إدريس من قبل، لكنهم دخلوا بسرعة على قائمة الأشخاص المطلوبين، وكان علي أن أتأكد من أن ردمان الصغير لم يدرك ذلك.

قضيت ساعتين أخريين وأنا أستجويه بقسوة حول أفراد أسرة المصلط الآخرين وأصدقائهم. وبعد انعطاف مكثف رجعت إلى الاستجواب. وسألته: «سائق محمد إبراهيم هذا، ما اسمه ثانية؟».

- «باسم لطيف».

- «أجل، هذا هو، وأين يسكن؟».

- «منزل خلف منزل الحاكم».

- «والشريك التجاري؟».

- «أبو إدريس. إنه يملك مخزناً يبيع الصخور والحجارة الخاصة بالإنشاء، ومحمد إبراهيم يملك المحل».

تلك كانت المعلومة التي كنت أنشدها. وإذا استطعت أن أقنع كيلي وبام بام، فإن هذه المواضع ستكون هدف الغارات التالية. وكي أغطي على آثاري،

قضيت ساعة أخرى في معرفة تفاصيل عن أصدقاء محمد إبراهيم وأسرته قبل أن أطلق سراح ردمان الصغير.

«نحتاج لأن نضع اسمين آخرين على الرسم البياني»، قلت لكيلي عندما عدت إلى المنزل.

«إنني متأكد من أن لديك أسبابك» رد كيلي بعد أن أخبرته عن باسم لطيف وأبو إدريس، واستدرك قائلاً «لكننا لن نطارد شخصاً لأنه فقط يعرف محمد إبراهيم». أجبته: «أنا بحاجة للعثور على هذين الرجلين يا كيلي».

أجاب كيلي بحدة: «إذا استمريت في قائمة العلاقة اللعينة هذه، فلن نصل إلى شيء، ويفترض بنا أن نصعد بعملنا في الوقت الذي تقوم فيه بإضافة أسماء إلى هذه القائمة».

قلت: «أدري، فأنا إذا لم أصعد سيتوجب علي أن أنزل، وإذا لم أنزل فإنني لن أستطيع الذهاب إلى أي مكان»..

قاطعني: إيريك، علينا أن نبرر اعتقال أناس من المستوى المنخفض الذين لم يفعلوا شيئاً. قد يكون محمد إبراهيم على رأس قائمتك. لكنه لا يعني شيئاً لمن في بغداد، والآن تريد إحضار سائقه وشريكه التجاري، كيف سنفسر ذلك؟».

أستطيع القول إن كيلي كان محبطاً، وكذلك أنا. وإذا لم أستطع أن أقنع كيلي، فلن أقنع أي شخص آخر. وفي هذه اللحظة، لم يكن مقتنعاً.

☆ ☆ ☆

على الرغم من شك كيلي، إلا أنني أدركت أن عليَّ إيجاد طريقة لجعل ذلك يحدث. فبموت ردمان وامتناع فارس ياسين عن الكلام، كان السائق والشريك التجاري هما اللذان سيقدمان الحلقة الوحيدة التي تركتها لمحمد إبراهيم. وكنت بحاجة شديدة لأن أحضر باسم لطيف وأبو إدريس.

لحسن الحظ، جاءتني المساعدة من مصدر غير محتمل. ففي صباح اليوم التالي لجلستي مع ردمان الصغير، كنت على موعد مع فريد الذي كان مخبراً عند كريس. كان فريد يقتفي آثار عصابات الشارع في تكريت، والتي كانت

تساعد المتمردين. وكان قصدي فقط أن أكشف إذا كان يعرف أي شيء عن منذر، ذلك السفاح الذي كان يدير أكبر وأسوأ هذه المجموعات. وعندما جلست معه، جاءتني فكرة أخرى. لن يتضرر الأمر إذا سألته إذا كان يعرف شيئاً عن محمد إبراهيم.

أجابني فريد: «إنه رجل مهم يا سيد».

كنت أعرف هذا لكن «هل رأيت محمد إبراهيم سابقاً؟».

أجاب: «قبل الحرب، وليس الآن».

استمريت في الكلام: «هل سمعت أبداً بشخص يدعى أبو إدريس؟».

قطب حاجبيه ثم قال: «إنه صديق محمد إبراهيم، وأنا أعرف أين يوجد، أستطيع أن آخذك إلى بيته، وهو جار لأحمد ياسين».

- «من هو أحمد ياسين؟».

- رد فريد بتأكيد: «إنه رجل سيئ، لديه آر بي جي وقد أسقط طائرتين عمودتين أمريكيتين».

رجل في تكريت لديه سلاح إطلاق صواريخ ويحقد على الأمريكان كانت أنباءً عادية، فلدي الكثير من التقارير التي أدلى بمضمونها الموقوفون منذ أن وصلت وكلها زائفة. وكنت على وشك أن أضيف فريد إلى هذه القائمة، فلم يكن من المصادر الموثوقة التي تعاملت معها، ثم خطرت لي فكرة.

- «فريد، هل تستطيع أن تخابرني عندما يكون أبو إدريس وأحمد ياسين في بيوتهما؟».

- «يا سيد، إنني أعطيك معلومات جيدة طوال الوقت، لكنك لم تفعل شيئاً حيالها».

- «اتصل بي فقط»؛ كررت الجملة وأنا أخرج بسرعة للالتقاء بكيلي.

وجدت كيلي في المنزل وأخبرته بالمعلومات التي حصلت عليها التوة، وأضفت «أظن أن هذين هدفان جيدان».

سأل كيلي بشك: «من أين حصلت على هذه المعلومات؟». فأجبته من فريد.

قهقه بصوت عال، فقد كان على معرفة جيدة بسمعة فريد.

قلت له وأنا أتكلم بسرعة: «اسمع يا كيلي، أعرف بماذا تفكر، قد يكون السلاح الصاروخي غير حقيقي، لكن أبا إدريس حقيقي، وسيقول لنا عن مكان تواجد محمد إبراهيم، كل ما نحتاج هو سبب واحد لنقوم بالغارة، وقد حصلنا على السبب الآن. سألني كيلي بشك وتردد: «هل هذا الشخص أحمد ياسين قد أسقط طائرة عمودية؟».

قلت له دون اقتناع: «ربما، لا بد إن أحداً ما قد أسقط الطائرتين، ربما يكون هذا الشخص، هل ستدفع باتجاه القيام بالضربة؟».

حدجني بنظرة طويلة صامتة، فأخذتها على أنها موافقة منه.

بعد ست ساعات كنا قد أكلمنا غارة ناجحة على هدفين. كنت في منزل الضيافة مع أبي إدريس أتساءل إذا كنت قد ارتكبت خطأ.

كان أبو إدريس شيخاً عجوزاً مضطرباً ومرتبكاً، وحاولت صابراً أن أبني خطاً زمنياً لما يقول، لكن التواريخ استمرت في التناقض ولم أكشف شيئاً من الحقيقة. كانت الكلمات تنطلق من فمه من دون ترابط، وتساءلت هل هو خرف أم أنه يمثل. وهنا كنت بحاجة إلى طريقة جديدة لأستخلص ما أريد من هذا الرجل.

وجدت الطريقة عندما بدأت أستجوب ابنه عقيل الذي قبض عليه في الغارة ووضع في غرفة منفصلة مع أحمد، ابن أبي إدريس الذي اعتقل معهم هو الآخر. كان عقيل رجلاً ضخماً طويلاً ووزنه قرابة 250 رطلاً، وكان هو الآخر مرعوباً. وكان ذلك وضع آخر يمكن أن يبرهن على أنه مفيد لأغراضي.

أجاب عن الأسئلة المبدئية بطريقة توحي بأنه أرادني أن أخبره بأن يبقى بعيداً عن المشكلات. لم أفعل شيئاً لأؤكد له ذلك واستمريت أجمع الحقائق بصبر حتى حان الوقت للقيام بتحركي، وقلت له: «يقول أبوك إنه شريك تجاري لمحمد إبراهيم». لم يقل أبو إدريس شيئاً من هذا القبيل، لكني أردت طريقة أجعل فيها الكرة تتدحرج.

أجاب بغموض والتباس: «أنا لا أعرف من هو».

- هيا يا عقيل، الكل يعرف محمد إبراهيم، وهو صديق حميم لوالدك».

ابتلع عقيل ريقه بصعوبة، وبدا أن خوفه كان في صراع مع ولائه الأسري، ثم أجاب أخيراً: «إنهما يملكان بعض البنايات، وهذا هو كل ما أعرفه».

التفت إلى أبي إدريس، وكانت إستراتجيتي سهلة: العب مع الوالد على الولد وعلى الولد مع الولد.

قلت: «أخبرني ابنك بأنك مقرب جداً من محمد إبراهيم، وهو يقول إنكما تملكان عقارات معاً».

أجاب أبو إدريس: «نعم» وهو يحدق بي كما لو أنه يحاول أن يقرر ما أعرفه وما كنت أدعي معرفته، وأكمل قائلاً: «أحياناً نشرب ونلعب الورق مع بعضنا».

- «أخبرني ابنك أنك تراه كثيراً».

هز أبو إدريس رأسه وقال «ليس منذ أن بدأت الحرب». كان يكذب.

- «هذا ليس ما قاله عقيل».

- أصر قائلاً: «ابني لا يعرف شيئاً».- «سأخبره بأنك قلت ذلك» أجبته وأنا أخرج من الغرفة متجهاً إلى الغرفة التي كان فيها عقيل.

«كل ما تعرفه أن والدك ومحمد إبراهيم يملكان بعض البنايات؟». سألت الفتى الضخم المرتعب و «ماذا عن الشرب ولعب الورق، هل نسيت ذلك أيها الأبله؟». خفضت صوتي لما يشبه الهمس حيث إنني كنت أنشد أقصى التأثير وقلت: «أبوك لا يستطيع أن يخبرني عن محمد إبراهيم يا عقيل. إنه يريد ذلك، لكنه لا يستطيع لأنه خائف. وهذا هو خطؤك، تستطيع أن تساعده ولكنك لا تريد». فتحت الباب وناديت الحارس، بعد لحظة أتى الحارس برفقة أبي إدريس البائس يمشي متثاقلاً ويرتجف بعنف، فصرخت على عقيل: «انظر إلى والدك، قد يموت في السجن وأنت لا تريد مساعدته».

لم تكن التعليمات تقضي عموماً بأن يتم استجواب أكثر من سجين في الوقت نفسه، لكن لم يكن أمامي خيار، فلا بد أن يتكلم إلي أحد هذين الاثنين، ولم تكن هناك طريقة أخرى يمكن أن يحدث فيها ذلك.

بكى عقيل قائلاً: «أبعدوه من هنا رجاء. ساعده، وسوف أقول لك ما تريد معرفته».

قام أحد الجنود بإخراج أبي إدريس، وانتظرت دقائق حتى يجمع عقيل نفسه فقال: «لقد كان محمد إبراهيم مع والدي قبل أسبوعين» كان صوته قريباً من الحشرجة ثم أكمل «أقسم على ذلك».

- «أين؟».

- «لعبا الدومينو في المخزن الذي يملكه شخص اسمه تامر العاصي. لديه ولدان وهما يساعدانه».

- «من كان هناك أيضاً؟».

- «باسم لطيف، سائق محمد إبراهيم، وهما دوماً معاً».

- «ستأخذني إلى هناك».

أجاب وهو ينتحب: «لقد ذهب محمد إبراهيم، وأنا أخبرتك بكل شيء أعرفه».

«لا تقل ذلك ثانية «صرخت بوجهه». «أنت لا تعرف ما أريد أن أعرفه، وحتى أنت لا تعرف ما لا تعرفه، سأخبرك عندما تقول كل شيء».

لكننا في الحقيقة، كنا نحن الاثنان قد انتهينا. كانت الساعة 06:00 من اليوم التالي. لقد استجوبت أبي إدريس وولديه عقيل وأحمد من دون توقف لمدة ثلاثين ساعة كاملة. وبعد تركي لعقيل كي يفكر في خياراته، يممت شطر البيت وألقيت نفسي على الفراش، وما إن وضعت رأسي على الوسادة، وكنت قد نسيت أن أسأل عن الطائرة العمودية، حتى رحت في سبات عميق.

الفصل الحادي عشر

السائق

20:00

2003/11/16

تبين إن الشخص الذي كان من المفترض أنه يسقط الطائرات العمودية بريء تماماً. وكانت جريمته الوحيدة أنه كان مالك البناء الذي يسكن فيه المخبر. لم يكن فريد يريد أن يدفع أجرة السكن. وظن بأن الأمريكان يمكن أن يحلوا له مشكلته. وقد أخبرت فريد بذلك. وعلى الرغم من أن الغارة التي أرسلنا إليها لم تسفر عن شيء، إلا أنها جلبت لي أبو إدريس، وهذا ما جعلني أقرب بخطوة إلى محمد إبراهيم.

في هذا الوقت اقتنعت بأن آل المصلط ليسوا الآن من نخبة الحرس الخاص بصدام حسين بعد أن أصبحوا قلب قيادة المتمردين. قد لا أكون قادراً على إثبات نظريتي بشكل مطلق، لكن لم يكن هناك شيء يضمن هذه النظرية. واستمريت، في الحقيقة، في الحصول على معلومات استخبارية جيدة تعزز نظريتي بأنني أسير في الطريق الصحيح.

تجمعت لدي بعض المعلومات المتفرقة التي وجهتني نحو تامر العاصي. فقد كان صديقاً لمحمد إبراهيم، وكنت قد سمعت اسمه من ابن أبي إدريس. كان تامر وابناه أمير وأحمد يديرون مخزناً للإسمنت في تكريت، وكان محمد إبراهيم كثيراً ما يزورهم للعب الدومينو. ومن استجوابي لأبي إدريس وابنيه، اكتشفت أن تامر كان أكثر من صديق. فقد كان فعلاً يعمل كمالك

للعقارات التي يملكها شراكة مع محمد إبراهيم، بما في ذلك مخزن الأسمنت، كما كانت بعض العمارات المجاورة من ملكية تامر العاصي ومحمد إبراهيم، كذلك كان يملك البيت الذي يقيم فيه سائقه السابق باسم لطيف. لقد بدأت شبكة آل المصلط وشركاؤهم والمستفيدون تتضح. كان لمحمد إبراهيم ثلاثة أصدقاء، أبو إدريس وباسم لطيف وتامر العاصي. وقد علمت بوجودهم من استجوابي لردمان الصغير، ومنذ ذلك الوقت سرعوا بحركة علاقة القرابة في القائمة.

في منتصف تشرين الثاني ظهرت إلى السطح معلومات استخبارية قيمة وجديدة عندما قام شاكر، الذي كان وأبو قصار من الأصدقاء المقربين لفارس ياسين، بتسليم نفسه إلى الشرطة المحلية. قمت على الفور باستجوابه وأثبت إنه شخص لديه معلومات غزيرة جداً. رفض في البداية الاعتراف بأي علاقة له مع فارس ياسين أو إنه على معرفة بنشاطاته. لكن بعد استجواب مكثف لعدة ساعات استطعت أن أكسره في النهاية. وبدأ بعدها يعطيني بنية السلطة التي تجعل آل المصلط يعملون معاً. وقال شارحاً: «أنا كنت أعمل لفارس وكان فارس يعمل لردمان، لم أر ردمان مطلقاً، فقط فارس، أقسم».

- «لمن يعمل ردمان؟».

هز كتفيه وقال: «لا أعرف، لكني سمعت أنه يعمل لحساب أخيه محمد إبراهيم».

- «متى كانت آخر مرة رأيت فيها محمد إبراهيم؟».

- «كان ذلك منذ عدة شهور، منذ ما قبل الحرب».

- «هل أنت صديق له؟».

ضحك كما لو أن الفكرة كانت غريبة وأجاب: «أنا كنت صديقاً لفارس، ومعرفتي بردمان قليلة، لكن محمد إبراهيم كان مختلفاً».

- «كيف كان مختلفاً؟».

- «يا سيد، بالإضافة إلى عبد محمود، سكرتيره الشخصي، لم يكن صدام يثق بأي شخص مثل ثقته بمحمد إبراهيم».

كان ذلك ما كنت أود معرفته، وكل ما قمنا به منذ وصولي إلى تكريت، التركيز على الحراس الشخصيين وتتبع آثار آل المصلط وإنشاء هيكل القرابة لمتهم واحد في كل وقت. كله صب في هدف واحد: إيجاد صدام. فالمعلومات التي قدمها شاكر كانت جزءاً مهماً من الأحجية.

كانت مشكلتي هي نفاذ الوقت مني. كانت خدمتي على وشك الانتهاء وعلي العودة إلى الولايات المتحدة في موعد أقصاه الخامس عشر من كانون الأول. إذن، المدة المتبقية لي في تكريت هي ثلاثة أسابيع وعليَّ أن أنهي العمل كله.

الخطوة التالية كانت واضحة بالنسبة لي. علي التحدث إلى باسم لطيف الذي قال عنه ردمان الصغير وابن أبي إدريس إنه سائق محمد إبراهيم وصديقه الحميم. أردت أن أحصل عليه بأسرع وقت ممكن، لكن كان من السهل قول ذلك لأن التنفيذ صعب.

عندما ذكرت موضوع إحضار باسم، احتج كيلي قائلاً: «لقد أغرنا على مسقط الطائرات العمودية، ومن الممكن ألا نحصل على موافقة لجلب آخر غير معروف».

أجبته: «إن باسم ليس شخصاً غير معروف، إنه قد يأخذنا إلى محمد إبراهيم، وقد يقودنا محمد إبراهيم إلى... وسكت. فآخر شيء هو أن أخلق توقعات وآمال لا أستطيع إنجازها.

قال كيلي وهو يتنهد بغضب: «اسمع يا إيريك، لقد أخبرتك إنه علينا أن نصعد السلم، باسم لطيف وأبو إدريس وأي شخص آخر كان له علاقة بمحمد إبراهيم كلها أهداف ثانوية إذا كنا نتعقب محمد إبراهيم، فعلينا التركيز عليه، فهو خطوتنا التالية».

كان علي الآن أن أغضب وقلت: «إذا كان محمد إبراهيم هو هدفنا التالي، فليس هناك هدف تال، فأنا لا أعرف أين هو ولا أعرف كيف أجده، يستطيع باسم أن يخبرنا، فهو يعرف أين يجده، علينا إحضاره إلى هنا».

كان الأمر صعباً. اكتشفت ذلك من اتصالاتي بفرقة شرطة الجيش الرابعة الذين كان جزءاً من عملهم تعقب أشخاص من مستوى أدنى من

المتمردين في تكريت. فقد جمعوا قوائم طويلة من الأسماء كثيراً ما يوجد أمامها كلمة أو كلمتان كتعريف لنشاط المشتبه به: صانع قنابل، ممول... إلى آخره. كنت أتصفح هذه الأوراق بعد ظهر أحد الأيام عندما صادفت اسم باسم لطيف. وكانت ملاحظة التعريف المحاذية لاسمه هي «قريب مسؤول الأمن». وظهر أن باسم هو ابن أخ الرئيس القوي المسؤول عن الأمن في تكريت.

سألت ملازم الشرطة العسكرية: «ماذا تعرف عن باسم لطيف؟».

هز كتفيه قائلاً: «لست متأكداً. لقد اعتقلته الشرطة المحلية وقد تدبر عمه إخراجه من السجن إذا كان سيصبح مخبراً لنا».

- «هل تحصلون على معلومات منه؟».

- «لم نتكلم معه بعد. فقائد الفرقة يعمل على الإبقاء على علاقة جيدة مع المسؤول عن الأمن، وكانت هذه طريقة لعمل معروف له».

أجبته: «اسمع، ستعمل لي معروفاً إذا تدبرت إحضار باسم كي أتحدث معه».

بعد اعتقاله بثلاثة أسابيع أصبح باسم لطيف فجأة في صفنا، وهذا الأمر جعل من الصعب علي أن أستخلص منه ما أريد. وكمخبر يعمل لنا، فإنه لم يكن لدى باسم حافز يجعله يكشف عما يعرف، وكي يحدث هذا لا بد أن يكون سجيناً مع تهديده بحبس مفتوح النهاية مسلط فوق رأسه. وهذا هو سبيلي الرئيس في حاجتي لأن يكون في عهدتي. لكن الوضع كان حساساً. فليس هناك من طريقة أستطيع بها اعتقال أحد أفراد أسرة مسؤول أمن الحاكم وكما قال لي ملازم الشرطة العسكرية فإن ضباط الفرقة الرابعة قد قضوا الكثير من الوقت لإنشاء تحالف مع حاكم تكريت، وهم لا يسمحون بأن تكون هذه العلاقة محل تسوية مذلة.

كنت أفهم السبب، كان حاكم تكريت هو الصديق السني الوحيد المتعامل معنا في كل المثلث السني. ومن المتصور أن الدوس على طرفه سيؤدي إلى شكاوٍ تصل إلى أعلى المستويات العسكرية والسياسية، وكان خياري الوحيد هو التكلم مع باسم بشروطه والأمل أن أستطيع القيام بالعمل بما يتوافق مع

حصانته. وحيث إن قائد الفرقة الرابعة للشرطة العسكرية على علاقة خاصة مع مسؤولي تكريت، فإن اجتماعي بباسم لا بد أن يتم عن طريقه. وافق القائد بشرط أن تتم المقابلة في مقر الشرطة العسكرية وألا يتم اعتقال السائق تحت أي ظرف من الظروف.

كان باسم في نحو الخامسة والأربعين من العمر، لكن شمس الصحراء قد كبرته قرابة عشر سنوات. وقد أدى الشرب إلى إضافة بضع سنين إلى عمره وبضعة أرطال إلى جسمه.

بدا سعيداً لأن يساعد وتواقاً إلى أن يُسر وهو يعلم أنه بحاجة إلى أن يظهر بما يتواءم مع الترتيب الذي قام ابن عمه. لكنه لم يكن ليدلي بأي معلومات عن رب عمله السابق.

- «لماذا اعتقلوك يا باسم؟». سألته وأنا أحاول أن أكون ودوداً معه. أجاب: «كنت سائق محمد إبراهيم وأنتم تلاحقون محمد إبراهيم، وظنت الشرطة أنني قد أساعد في هذا».

- «هل تستطيع أن تساعد؟». هز كتفيه وابتسم بهدوء.

- «كم من الوقت كنت سائقاً عنده؟».

- «لمدة سنتين».

- «هل كنت تراه كل يوم؟».

- «ليس كل يوم».

- «هل عملت سائقاً له بعد الحرب؟».

- «نعم، كنت ما أزال سائقة».

- «هل ما زلت سائقة حتى الآن؟».

- «لم أره منذ شهر».

- «لكنك ما تزال سائقه».

تكلم باسم ببطء كما لو أنه كان يشرح الحقائق لطفل وقال: «لقد اعتقلت ثم أطلق سراحي، ولم يعد يثق بي، وهو يظن أنني جاسوس للأمريكان».

- «هل أنت جاسوس؟».

- «أجل. لقد أقسمت لابن عمي أنني سأعمل أي شيء أستطيعه كي أساعدكم».

- «ساعدنا إذن».

تكلف الابتسام وقال: «كيف أستطيع أن أساعدكم؟».

- «في أي مكان شاهدت محمد إبراهيم لآخر مرة؟».

- «كنت في الشارع ورأيته يمر بسيارة».

- «لماذا لم تكن أنت السائق؟».

تنهد وقال: «قلت لك يا سيد إنه لم يعد يثق بي».

- «أين محمد إبراهيم الآن؟».

- «لا أدري، سأحاول أن أساعدكم في العثور عليه».

- «كيف ستقوم بذلك؟».

- «سأختبئ لمدة حتى يثق بي ثانية. وعندها سيأتون لي».

- «من سيأتي إليك؟».

- «لمحمد إبراهيم أناس عديدون».

- «من هم أقرب الناس إليه؟».

- «أبو إدريس».

- «أي شخص آخر؟».

هز باسم كتفيه ثانية، وذكره لاسم أبي إدريس لم يكن مفاجأة. فلا بد أنه قد علم أننا قد قبضنا على أبي إدريس ولم يكن ما يستدعي توريط الرجل العجوز، وكان واضحاً أنه لم يذكر اسم تامر العاصي أو ولديه. فلو كان ملتزماً بالتعاون معنا فإنه سيقدم لنا أي شخص وكل شخص يظنه إنه صديق أو زميل لرئيسه السابق.

- «هل سيساعدك هؤلاء الناس في العثور على محمد إبراهيم؟».

أومأ برأسه وقال: «سيأخذونني إليه، ثم سينظر في عيني ويقرر إذا كان يثق بي أم لا».

لم يكن باسم أول شخص يخبرني بأن العراقي يحدق بالعينين ثم يقرر إذا كان الشخص موالياً أم لا. لم أملك هذه القدرة، لكني لم أكن بحاجة إليها لأعرف أن باسم لم تكن نيته مساعدتنا في العثور على محمد إبراهيم. وما دام تحت حماية ابن عمه المسؤول الأمني فلم يكن لديه دافع للتعاون معنا، قد يكون ما يزال يعمل مع رئيسه السابق أو قد لا يكون، وكل ما عليه الآن هو أن يبقى ساكناً ليرى أي جانب يخدم مصالحه هل هم الأمريكان أم المتمردون.

عندما انتهيت من استجواب باسم، انتحيت بكيلي جانباً وقلت له باقتناع تام: «إننا بحاجة إلى اعتقال هذا الشخص، إنه يكذب وأنا أريد باسم الشريف، ولن يحدث ذلك ما لم يكن مرعوباً، مرعوباً بشكل حقيقي».

أجاب كيلي: «يجب أن تقنع بام بام بذلك» واتجهنا نحن الاثنان لنفتش عنه.

وجدنا بام بام في غرفة الطعام جالساً إلى المائدة، ثم ناقشنا نحن الثلاثة الخيارات المتاحة. أخبرته بما سمعته من باسم وما ادعى أنه يعرفه وما ظننت أنه يخفيه عنا. أردت أن أتأكد أن بام بام قد فهم العلاقة بين أبي إدريس وباسم لطيف وتامر العاصي. كانوا هم أقرب ثلاثة لمحمد إبراهيم، وكانوا يعرفون بعضهم بعضاً، وكنت متأكداً من أننا سنتمكن من تعقب هدفنا الرئيس عن طريقهم.

كان باسم هو الخطوة المعقولة التالية، وكنا جميعنا نعرف إن اعتقال السائق سيضع بام بام في مخاطرة كبيرة. لقد كان بام بام في خضم المعركة وأن عليه أن يتحمل أي صخب سياسي ينشأ عن ذلك. لكن في الوقت نفسه، كان هو وكيلي يدركان أنني كنت أسعى نحو شيء خضم. وحقيقة إننا لم نذكر صدام قط بالاسم لا يعني أننا لم نكن جميعنا نفكر في إمكانية القبض عليه. لم يتم ذكر ذلك، لكن الإمكانية الحقيقية أن ذلك كان في الميزان.

«ماذا تريدني أن أفعل يا إيريك؟». قال بام بام.

فكرتُ لحظة ثم قلت ببطء وتعمد «أريدك أن تستمع إلى باسم وأنا أستجوبه. لقد قلت لك ما أظن أنه يعرفه. وإذا لم توافق معي بأنه يكذب أو يخبئ معلومات، سأتوقف عن طلبي إليك بأن تعتقله، لكن إذا ظننت إنني على حق، فإننا بحاجة إلى أن نأخذه في عهدتنا ونعامله كأي سجين آخر».

سأل كيلي: «ما الذي سيكذب بشأنه؟».

أجبت: «لا أدري، لكني سأجعله يكذب، وعندما يفعل ذلك، ستعلمون أنه يخفي شيئاً. إنني أضمن ذلك».

تحدث بام بام، واسترعت كلماته كل انتباهي: «اسمع يا إيريك، هذا الأمر سيثير اهتماماً أكبر بنا وهو ما لا نريد. وقد ينفجر الوضع في وجوهنا، من المفترض أننا سنغادر هذه البلاد في يوم ما، وعندما يحدث ذلك، سنسلمها إلى حلفائنا. أما الآن، فإن أحد هؤلاء الحلفاء هو حاكم تكريت، وهو بالنسبة لواشنطن وبغداد أكثر أهمية منك ومني».

جلسنا صامتين لما بدا إنه وقت طويل، ثم تساءل كيلي في النهاية: «ماذا تريد أن تفعل يا بام بام؟».

نظر إليَّ واستطعت أن أرى في عينيه ثقل القرار الذي سيأخذه، ثم قال: «دعونا نذهب للتحدث مع هذا اللعين باسم».

☆ ☆ ☆

مضت عدة أيام قبل أن تستطيع الفرقة الرابعة تأمين اللقاء. قضيت عيد الشكر مع بام بام وكيلي والمترجمين. أما باقي أفراد القوة الضاربة فقد تم استدعاؤهم إلى بغداد ليكونوا فرقة أمن خاصة للرئيس بوش الذي قدم إلى العراق في عطلة لرفع المعنويات.

بدا وكأن عيد الشكر هو العطلة الوحيدة في بلد معاد بعيد جداً عن الوطن، لكنه كان فرصة لي لأراجع كل ما مررت به في الأشهر العديدة الماضية. لقد أصبحت في تلك المدة مستغرقاً في عملي، وأدركت أنني لم يكن لدي فكرة عما يجري في بقية أنحاء العراق أو في الولايات المتحدة. كانت الصلة الوحيدة لي مع

حياتي السابقة هي فريق سونرز. كنت بحاجة إلى أن يكسبوا المباريات أكثر من أي وقت آخر. ومشاهدتي لتلك المباريات في الساعات المتأخرة من مساء كل سبت كانت راحة لي وأنا أرى كل أولئك المشجعين الأبرياء المبتهجين الذين يملؤون الإستاد وينعمون بلعب سونرز. كنت أستطيع أن أهرب لعدة ساعات من التوترات والغضب والخداع الذي أتعامل معه كل يوم.

كنت أتصل بزوجتي وأولادي قدر ما أستطيع. لكن كان في سماع أصواتهم آتية من بعيد شيء جعلني أفهم أنني لم أقم بما أقوم به من أجلهم. كنت بحاجة إلى هذه الحرب وكنت بحاجة إلى أن أكون جزءاً منها لأسباب أنانية خاصة بي. وقد وقعت عقداً على أن أكون محارباً، إذ يكون الجنود في أسعد حالاتهم عندما يقاتلون، وبناء بلد هو هدف نبيل، لكن السبب الحقيقي لوجودنا هناك هو لتدمير العدو.

في ليلة عيد الشكر تلك، وجدت نفسي أفكر بصديقي كيسي. تصورته في الجنة مع أبطال آخرين كانوا في حياتي. كانوا مقاتلين أيضاً، وأنا أحاول أن أحوز على مكان إلى جانبهم.

★★★

في الأول من كانون الأول وكنت ما أزال على رأس عملي جاءني الخبر أخيراً بأن أمامي فرصة أخرى لاستجواب باسم لطيف. ولم يكن بام بام وكيلي ليحضران فقط، بل الفريق كله، وكان من المقرر أن تحدث جلسة الاستجواب في مكتب محافظ تكريت الموجود في بناية من ثلاثة طوابق.

على الرغم من أن أفراد القوة كانوا يحضرون إلى بيت الضيافة لمشاهدة الاستجوابات في الماضي، إلا أن الأمر اختلف هذه المرة. وبدا الأمر أنهم كانوا كلهم يدركون كم أعلق على مواجهتي مع باسم، دون أن يقول أي منهم كلمة حول ذلك. وعلى الرغم من أنه سيكون لدي مشاهدون هذه المرة، إلا أنني شعرت بهدوء عميق. لقد كنا جميعاً في هذا الأمر، من بام بام إلى أصغر جندي، وأي نجاح يتأتى مما سيحدث، سيكون نجاحاً نشترك فيه جميعنا.

كانت شوارع تكريت خالية ونحن نتجه إلى بيت المحافظ، كانت رحلة سريعة من وراء الأسلاك، وكان لدي فرصة أخيرة للتفكير فيما أحتاج أن أفعله: أن أقنع بام بام باعتقال مواطن تكريتي له علاقات جيدة ويبدو مواطناً بريئاً.

راجعت الحقائق في ذهني، كان باسم لطيف هو السائق السابق لمحمد إبراهيم، وهي الحلقة التالية في السلسلة الطويلة من الحراس الشخصيين من آل المصلط والتي جمعتها من سلسلة القرابة. وكنت على ثقة بينة من أن باسم يستطيع أن يأخذنا إلى رئيسه السابق إذا استطعت أن أجعله ينفتح ويتكلم. وبعدها ربما يكون محمد إبراهيم، المستشار الموثوق لصدام حسين، قادراً على أن يأخذنا إلى رئيسه القديم.

لكن باسم كان أيضاً ابن عم أحد أهم المسؤولين عن الأمن في تكريت، وكانت مهمته هي المحافظة على أمن حاكم المدينة السني. وبمساندته للأمريكان، جعل الحاكم من نفسه هدفاً أولياً للمتمردين. وحقيقة بقائه على قيد الحياة تدل على أن مسؤول الأمن كان رجلاً قوياً. وإذا لم يرد لابن عمه أن يعتقل، فإن باستطاعته أن يخلق لنا مشكلة كبيرة.

ما كنا على وشك القيام به كان مخاطرة من جميع الوجوه. قلبت في رأسي أسوا سيناريو ونحن نشق البلدة. إذا أجاز بام بام اعتقال باسم فإنه يكون بذلك قد وضع حياته المهنية على المحك، لكني كنت أعلم أيضاً أن اعتقال باسم كان أفضل ضربة لنا وخطوة تقربنا أكثر من صدام. ومن دون باسم، سأصل إلى طريق مسدود.

مسحت جبهتي بكم قميصي الأزرق الذي كنت أرتديه لما يزيد عن أربعة أشهر. وصلنا إلى السلك الشائك الذي يحيط بمكتب المحافظ الذي تحرسه الشرطة المحلية والجنود العراقيون والقوات الأمريكية. رافقونا على الفور عبر دهاليز محيرة إلى مكتب مسؤول الأمن، وعند وصولنا إلى الباب الخشبي الثقيل، ألقيت نظرة على بام بام. كنت أعرف أنه ما يزال لم يقرر اعتقال باسم لطيف، وسوف يفكر ملياً بخياراته عندما تتكشف له.

كان مسؤول الأمن ضابطاً واثقاً من نفسه للغاية يرتدي زياً نظيفاً متجعداً، وكان لطيفاً عذب الكلام. وعلى الرغم من المخاطرة التي كانت على المحك إلا أن الأمر كان سيسير بود واحترام.

قال عندما دخلنا: «إن ابن عمي ليس هنا وسيجلبه رجالي» ثم بدأ يتكلم بالكلام الذي قاله العراقيون عدة مرات للأمريكان: «أريدكم أن تعرفوا كم أنا سعيد لأننا كنا قادرين على دعمكم ومساندتنا لمهمتكم لجعل العراق بلداً آمناً وحراً. إننا نعمل كأخوة لإكمال المهمة وأنا على ثقة من أن ابن عمي باسم سيكون مصدراً قيماً جداً لكم».

لم يفوت بام بام الفرصة وقال: «أيها الرئيس، إذا كان باسم أميناً تماماً، فلن تكون هناك مشكلة».

أجاب الرئيس: أؤكد لك أن ابن عمي سيكون أميناً معكم، وأعطيكم كلمتي على ذلك، وبالمقابل، أريد تأكيدكم على أنكم لن تأخذوا باسم معكم».

كرر بام بام: «إذا أخبرنا بالحقيقة فلن تكون هناك مشكلة».

أجاب المسؤول: «كما قلت، لقد أعطيتكم كلمتي».

بدا واضحاً أن المسؤول كان مستعداً للدفاع عن ابن عمه، وهو أمر ليس جيداً.

فتح الباب ثانية ودخل باسم مع المرافقين. كانت معنوياته عالية وتبادل القبلات التقليدية على الخد مع ابن عمه الأكبر، ثم استدار نحونا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة. نظر لي بام بام وأعطاني إشارة واضحة: هذا هو وقت العرض.

امتلأت الغرفة بالنظارة بما فيهم ستة من أفراد الفريق الضارب وغيرهم من الفرقة الرابعة مشاة والشرطة العسكرية واستندوا إلى الحائط ليشاهدوا العرض. وضعت في حسباني أن هناك 45 دقيقة لأثبت أن باسم كان يكذب حول شيء ما، أي شيء، ومن المحتمل ألا نصل إلى هذا الوقت قبل أن يتدخل المسؤول إذا ظن أنني أحاول أن أهين ابن عمه.

جلستُ أنا وباسم إلى طاولة صغيرة وبدأت بتوجيه بعض الأسئلة البسيطة: كيف حاله؟ هل كان متزوجاً؟ كم ولداً لديه؟ كانت إجاباته سريعة وواثقة، لكنه كان يتحسب أيضاً، واستمر بالنظر إلى ابن عمه كما لو أنه يريد أن يتأكد من أنه ما يزال يسانده.

- «ما المبلغ الذي حصلت عليه من عملك سائقاً لدى محمد إبراهيم؟». سألته فجأة وأنا أحاول أن أغير مجرى الاستجواب بعد أن جمعت بعض المعلومات.

أجاب: «أربعمئة دولار أمريكي، لكن لم يدفع لي شيئاً منذ عدة شهور. وإيجار منزلي هو مئة وخمسون دولاراً وأنا متخلف عن الدفع لمدة ثلاثة أشهر؟». احتفظت برده في مخيلتي حيث إنني لم أسأل عن معلومات، لكن قد يفيد ذلك.

استمرت الأسئلة والأجوبة على وتيرة سريعة. وكرر باسم معظم القصة التي كان قد أخبرني بها سابقاً مؤكداً إنه منذ اعتقاله لم يعد موضع ثقة محمد إبراهيم.

ملت بنفسي إلى الأمام وقلت: «باسم، لقد أطلقنا سراحك في المرة الأولى لأنك قلت أنك ستساعدنا في العثور على محمد إبراهيم، وها أنت الآن تخبرنا إنه لم يعد يثق بك. إذا كنت لا تستطيع مساعدتنا، فلماذا لا نعتقلك ثانية؟».

أجاب: «لأن محمد إبراهيم ما يزال في تكريت، وأستطيع مساعدتكم في العثور عليه».

- «كيف تعلم أنه في تكريت؟».

- «رأيته بأم عيني قبل يومين فقط».

كان ذلك شيء جديد. عندما استجوبت باسم قبل ثمانية أيام، ادعى إنه لم ير رئيسه القديم لمدة شهر، وسألته: «أين كان؟».

- «في السوق في منطقة العوجة الجديدة، لكنني لا أعرف أين ذهب بعد ذلك».

- «هل يعيش في العوجة الجديدة؟».

أومأ برأسه: «قبل الحرب، إنه يملك بيتاً هناك».

«هل كنت تأخذه من ذلك المكان؟».

- «أحياناً».

- «كم تبعد المسافة بين بيتك وبيته؟».

فكر ثم خمن: «ربما ثمانية كيلومترات».

- «إذاً رأيت محمد إبراهيم في سوق العوجة الجديد قبل يومين؟».

- «أجل أيها السيد».

- «لماذا لم تبلغنا بذلك؟».

- «ليس لدي هاتف، إذا زودتموني بهاتف، سأتصل بكم في المرة الأخرى التي أراه فيها».

- «لماذا تأخرت اليوم؟». سألته وأنا أجرب زاوية أخرى. «لقد قلت إنك ستساعد، لكنك لم تصل في الوقت المحدد لاجتماع مهم».

- «لأنه لم يعد لدي سيارة إذ أن أخي يحاول أن يبيعها في سورية».

ذكرته: «لقد كنت في سوق العوجة الجديد قبل يومين، كيف وصلت إلى هناك؟».

بدا باسم مضطرباً وأجاب بتلعثم: «لقد... مشيت».

خرجت مني صفرة منخفضة: «هذا واضح عبر البلدة، ولا بد أن المسافة هي 16 كيلومتراً ذهاباً وإياباً».

أومأ برأسه باستياء.

«إذاً أنت تخبرني بأنك قد مشيت 16 كيلومتراً إلى العوجة الجديدة حيث بالصدفة رأيت محمد إبراهيم، لكنك لم تستطع أن تمشي خمسمئة متراً من بيتك إلى هنا؟».

حدق بي. كنت بحاجة إلى أن أفقده توازنه وسألته:

- «ما المبلغ الذي ستحصل عليه من بيع سيارتك؟».

- «ألف ومئتي دولار».

- «ما الذي ستفعله بها؟».

- «أدفع الإيجار» أجاب بحذر.

الإيجار ثانية. أدركت فجأة لماذا أثار ذلك انتباهي عندما ذكر الأمر لأول مرة. شققت قطعة ورق من دفتري وكتبت عليها ملاحظة ووضعتها في جيب قميصي، وكنت حريصاً على أن يرى كل من الغرفة ما كنت أفعله، ولا سيما بام بام.

سألت باسم: «أين تذهب لدفع الإيجار؟».

أجاب: «إلى مخزن صغير عند مفترق الطرق» كنت أستطيع أن أراه يتساءل إلام سيفضي هذا.

- «ما الذي يبيعونه في هذا المخزن؟».

- «أعتقد إنه الإسمنت».

- «تعتقد؟».

بدا حذراً وقال: «الإسمنت».

- «من يدير المخزن؟».

- «لا أدري يا سيد» أستطيع أن أرى الخوف في وجهه الآن وأسمع الارتجاف في صوته.

- «هيا يا باسم، لقد عشت في تكريت طوال حياتك، وأنت تعرف كل شخص وأعمامه، من يدير المخزن؟».

مضت مدة صمت طويلة وأجاب بهمس أجش: «أعتقد أن اسم الرجل أمير».

صرخت: «أمير ماذا؟».

- «أمير العاصي» أجاب وهو يحدق بالطاولة.

أخرجت قصاصة الورق من جيبي دون أن أفتحها وسلمتها إلى بام بام. فتحها ونظر إلي ثم أومأ برأسه.

قرأ بام بام الورقة بصمت وكان فيها: «تامر العاصي شريك لمحمد إبراهيم وصديق مقرب من باسم لطيف وهو يدير مخزناً للإسمنت مع ولديه أمير وأحمد».

كان قصدي أن أجعل بام بام يعرف أنني كنت أتوقع إلى أين سيأخذنا هذا. وفي الحقيقة، لم أكن متأكداً حتى بدأ السائق يتكلم عن دفع الإيجار. عند تلك

النقطة، ضممت قصته إلى ما كنت قد جمعته عن محمد إبراهيم الذي يملك فعلاً مخزناً للإسمنت والبيت الذي يسكن فيه باسم مع أسرته. كان صاحب منزله هو محمد إبراهيم ولم يكن هناك أي شيء يمنع من معرفة باسم بذلك.

إذا اعترف باسم صراحة بأنه كان يعيش دون دفع إيجار في منزل وفره له رئيسه السابق، فإنه يبرهن على أين يقع ولاؤه. لكنه بدلاً من ذلك، كان يحاول إخفاء علاقته الوثيقة بالرجل الذي نتعقبه. لقد أمال باسم يده وكان ذلك واضحاً للجميع، لكن الأهم هو بام بام.

استمريت في الكلام قائلاً: «باسم، من يملك منزلك فعلاً؟».

تلعثم وقال: «لا أدري، أنا أعرف أمير فقط. إنني أحاول أن أساعدك يا سيد». كان واضحاً إنه لم يرد أن يذكر اسم تامر العاصي وأنه يحاول حرفنا عن المسار بذكر ابنه أمير.

تقدم المسؤول قائلاً: «لقد حان وقت صلاتي». من الواضح أنه لم يحب الاتجاه الذي يأخذه التحقيق، وفي أقل من ساعة، أكدت أن ابن عمه كان يكذب عن رغبته في العمل إلى جانبنا، والأكثر أهمية أن باسم ما تزال لديه علاقات مباشرة مع محمد إبراهيم وكان يخفيها عن الجميع بما فيهم ابن عمه.

أصدر بام بام الأمر إلى الشرطة العسكرية في الفرقة الرابعة مشاة أن يأخذوا باسم إلى غرفة أخرى، وأشار إلي أن ألحق به إلى القاعة، وسألني بعدما أصبحنا لوحدنا «وماذا الآن؟».

قلت: «بام بام. أريد هذا الشخص، وأريده في عهدتنا، إنه مفتاح الوصول إلى محمد إبراهيم ومحمد إبراهيم هو المفتاح إلى صدام». كانت هي المرة الأولى التي أذكر فيها العلاقة بصوت عال. لا مجال لرجعة الآن، وأصبح الأمر كله بيد بام بام.

فقال: «يا إيريك، إذا أخذنا هذا الشخص اليوم فلا بد لك أن تخرج ببعض النتائج بسرعة، وألا فسترافقني إلى القيادة العليا لتشرح للجنرال أبي زيد كيف وضعنا كامل الجيش الأمريكي على القائمة القبيحة لمحافظ تكريت».

أخذت ذلك على أنه موافق، وسنعتقل باسم.

عدنا إلى مكتب المسؤول حيث تكلم بام بام مباشرة عن المطاردة قائلاً: «لم يكن ابن عمك أميناً يا سيدي، وأنا آسف لأنه لا بد أن يذهب معنا». جاء رد المسؤول: «سأكون مسؤولاً مسؤولية تامة عن باسم وسيكون أحسن مخبر لكم، وأنا أضمن ذلك. سيعيش داخل منزلي وسيكون بإمكانكم رؤيته متى تريدون». هز بام بام رأسه وقال: «لقد كذب عليك وكذب علينا».

كان باستطاعتي أن أرى الذهول على أفراد الفرقة الرابعة مشاة، فهم لم يعتقدوا لدقيقة واحدة أن باستطاعتنا أن نأخذ باسم معنا. وكنت أستطيع أن أراهم يتوقعون المشكل الذي وضعنا أنفسنا فيه. لكن لم يرف جفن لبام بام وكذلك بقية أفراد الفرقة. في تلك اللحظة كنت أكثر فخراً إنني جزء من هذا الفريق.

حتى ونحن عائدون إلى سياراتنا، علمت أن العمل الصعب قد بدأ التوة. وأكد بام بام ذلك عندما استدار نحوي قائلاً: «إيريك، أريد أي أهداف تحصل عليها من باسم في أقرب وقت ممكن».

الفصل الثاني عشر

الحنفيـــة

14:30

2003/ 12/ 1

بعد أن رجعنا إلى بيت الضيافة انقضضت على باسم بسرعة وغضب. كنت أريد أن أبدأ ببطء محاولاً أن أبني علاقة، لكن ما دام باسم قد تمسك بروايته عن أنه يريد فقط أن يكون مخبراً متعاوناً بالكامل، فإنه لم يترك لي خياراً.

قضيت ساعة لأقنعه بأنه لم يعد صديقاً، وإنه منذ الآن فصاعداً سجين وسيعامل على هذا الأساس. كانت الأسباب بسيطة: له علاقات سابقة مع قائد تمرد مشتبه به، قدم أجوبة غير صحيحة عند استجوابه من قبل أفراد الجيش الأمريكي وأنه يمكن أن يعرض قوات التحالف للخطر إذا تم الإفراج عنه.

كان رده هو إصراره على أننا إذا اعتقلناه، فإنه سيفقد أي إمكانية في استعادة ثقة محمد إبراهيم. وكلما شددت عليه، غاص في الأرض. قلل من شأن ارتباطه برئيسه القديم مدعياً أنه لم يكن إلا سائق تكسي. وأعتقد أنه أرادني أن أرسم صورة عنه وهو يقود السيارة بمحمد إبراهيم من وراء نافذة زجاجية مغلقة أمام أي اتصال بينه وبين الراكب. لم يكن لديه فكرة عما يدور في الخلف. بينت له، إذا كان هذا صحيحاً، فليس هناك من سبب يجعل محمد إبراهيم قلقاً حيال اعتقال باسم. وإذا لم يكن لديه شيء يخبرنا به ويمكن أن يورط محمد إبراهيم، لماذا يحتاج إلى استعادة ثقته به.

لم يجد جواباً جيداً لذلك استمريت. كان اهتمامي التالي ينصب على تامر العاصي، مالك مخزن الإسمنت والشريك التجاري المزعوم لمحمد إبراهيم. وفي الوقت

الذي كنت أعرف فيه أن تامر سيكون موضع ضربتنا التالية بغض النظر عما يكشفه باسم، إلا أنني لم أرد له أن يعرف ذلك. وبدلاً من ذلك، اقترحت على باسم أنه إذا أخبرنا عن مكان وجود هدفنا، فلن يكون هناك سبب للقبض على تامر.

وإذا لم يخبرنا، فإننا سنتحرك نحو المصدر الثاني المحتمل ليقودنا إلى محمد إبراهيم.

أصر باسم: «ليس هناك من داع للقبض على تامر، فهو لا يعرف مكان تواجد محمد إبراهيم».

- «هل أوصلته مرة إلى منزل تامر؟».

- «العديد من المرات».

- «هل بات ليلته هناك؟».

- «أجل».

- «لماذا لا يكون هناك الآن؟».

أجاب: «منذ اعتقالي اختبأ محمد إبراهيم، إنه يظن أنني أعمل معكم وأنني سأخبركم عن كل شيء يفعله، لذلك فهو الآن يغير كل شيء، ولن يذهب ثانية إلى بيت تامر العاصي».

أعطاني باسم منفذاً جديداً وأنا أخذت به. صرخت: «سيغير كل شيء لأنك تعرف كل شيء يا باسم. إنه قلق لأننا اعتقلناك وهو يعرف ماذا يمكن أن تخبرنا إذا أردت، ولكنك لا تريد إخبارنا، أليس كذلك يا باسم؟ إنك تلعب لعبة معنا وتضيع وقتي. سأقبض على تامر لأنك لم تترك لي خياراً، ولسوف تأتي معي. وبهذا الشكل سيعرف الجميع بأنك تعمل معنا، وسأتأكد من حصول ذلك». اقتربت منه أكثر وقلت له: «كما أنني سأتأكد من أنك ستقضي بقية حياتك في السجن».

نقل باسم عينيه عن وجهي ونظر إلى الجدار ثم إلي. لقد بدأ الاختراق. وبدأ يفهم أن خياراته قد ضاقت إلى الغاية. وقال أخيراً:

- «لن تجد محمد إبراهيم، إنه لم يعد في تكريت».

- «باسم، لقد أخبرتني أنك رأيته في السوق قبل عدة أيام».

- «هذا ليس صحيحاً، فأنا لم أره».

قلت وأنا عن بعد بوصات من وجهه: «هكذا إذن، إذا لم يكن في تكريت، فأين هو الآن؟».

- «سمعت أنه في سامراء».

- «لماذا سامراء؟».

شرح باسم الأمر قائلاً «لقد اعتقل العديد من أقربائه هنا، ولذلك خشي أن يتحولوا لمطاردته».

- «ما هو دور محمد إبراهيم في التمرد؟».

كان هناك صمت طويل آخر، ثم بدأ باسم يبتسم وسأل بازدراء:

«أنت حقاً لا تعرف؟».

صرخت: «أنا الذي أوجه الأسئلة هنا أيها الأبله. من المسؤول عن محمد إبراهيم؟».

أجاب بسخرية: «من تظنه برأيك؟».

- «لا تتغابى معي يا باسم. أجب عن السؤال».

- «إنه يأخذ أوامره من الرئيس». قال ذلك وهو يعرف تماماً التأثير الذي يحدثه قوله.

شعرت بأحشائي تتحرك. لأول مرة استطعت أن أوجد صلة مباشرة بين محمد إبراهيم وصدام. رجعت خطوة إلى الوراء وحدقت طويلاً بباسم.

حدق بي كما لو أنه يتحداني أن أقول أنه يكذب. وكانت الحقيقة أنني صدقته.

ومع ذلك، فقد كان السائق يحاول أن يخدعني، فليس هناك من سبب يجعله يربط بين رئيسه القديم وصدام حسين. لقد اجتزنا زاوية وكنا كلانا نعرف ذلك.

«وهكذا فإن الرئيس هو المسؤول عن محمد إبراهيم» رددت الجملة بقدر ما أستطيع من الهدوء. «من يأتي تحت محمد إبراهيم؟».

- «الجميع». أجاب باسم.

- «من هم الجميع؟». شددت عليه.

- «الكل» أجاب «إنهم جميعهم يعملون لحسابه».

- «إلى من يعطي أوامره؟ من يراه وجهاً لوجه؟».

- «القليل منهم، في المقام الأول أخوه ردمان. كان مسؤولاً عن بغداد وتكريت وأماكن في الغرب».

- «ردمان ميت يا باسم. أعطني اسم شخص حي».

أخذت نفساً عميقاً، فالمعلومات أصبحت تأتي بسرعة الآن كما لو أنني قد فتحت حنفية في مخ باسم. وعندما أفتحها تصب الأسماء والأماكن.

في الدقائق القليلة التي تلت كشف باسم قادة المتمردين في الفلوجة وسامراء. وقال «هم المسؤولون» لمست نبرة فخر في كلامه كما لو أنه كان سعيداً لأن يعرف أناساً مهمين.

سألته: «ماذا تعني بأنهم المسؤولون؟ عن ماذا هم مسؤولون؟».

أجاب: «عن جميع الهجمات. وهم يتلقون أوامرهم من محمد إبراهيم، وبعدها يدفع لهم».

- «كم يدفع لهم؟».

كانت لهجة باسم ما تزال متعجرفة وقال: «كنت دوماً أحتفظ بمئات آلاف الدولارات في صندوق السيارة، وكان محمد إبراهيم يصرفها كلما احتاج».

نظرت إلى المترجم وسألته: «هل سمعت الرقم الصحيح؟».

أومأ جيمي برأسه وقال: «مئات آلاف الدولارات، إنه يتكلم عن دولارات أمريكية يا سيدي».

بذكره لصدام حسين كان باسم يرسل إشارة عندما تكلم عن مبالغ ضخمة من النقود. لقد كان ذلك عملاً ضخماً يقوم به أناس خطرون لهدف جدي. لقد تجاوزت مرحلة استجواب معتقلين من المستوى الأدنى الذين اعتقلوا في المكان الخطأ والوقت الخطأ. لكن هذا لم يكن عن مخبرين يهتمون فقط بالحصول على الربح السريع. وعلى الرغم من الخطر الذي يمثله، فإن اعتقال باسم كان الاختراق الذي انتظرته. لقد أصبحت في الداخل الآن أحصل على نظرة مباشرة على التمرد والرجال الذين أصدروا الأوامر بقتل آلاف الأمريكيين والعراقيين.

- «أين محمد إبراهيم الآن؟». سألت باسم مباشرة إذا كان يقول الحقيقية حول كل شيء آخر فربما يعطيني الجواب عن سؤال واحد هو من أهم الأسئلة التي سألتها.

أجاب: «لا أعرف أين، لكن ربما أستطيع مساعدتكم في العثور عليه».

قلت له: «يا باسم، لن تذهب من هنا حتى يجلس محمد إبراهيم في المكان الذي تجلس فيه. وعندما تفهم ذلك، باستطاعتنا أن نقوم ببعض التقدم».

نظر إلي، واستطعت أن أرى العجرفة التي تختفي منه. لقد بدأ الوضع ينحدر ويغور، فقال برقة «أفهم ذلك».

- «جيد. والآن، أين ينام محمد إبراهيم؟».

- «كان يقيم في مزرعة أهله على الجانب الآخر من النهر بعد الحرب».

- «هل ما يزال هناك؟».

هز رأسه وأجاب: «لقد أغار عليها الأمريكيون وتم إلقاء القبض على احد أقاربه، ولم يعد ثانية، ومنذ هذا الصيف كان دوماً مع تامر العاصي وأبي إدريس».

- «هل نام في بيت أبي إدريس؟».

- «لا أستطيع الجزم بذلك. فقد كان يريدني أن أقله إلى مشارف العوجة الجديدة في الليل ويخبرني أن ألحق به في صباح اليوم التالي في مقهى في السوق أو في مخزن الإسمنت الذي يملكه مع تامر العاصي، وهم يلعبون الدومينو هناك».

قلت: «باسم، أين أذهب لأجده الآن؟».

أجاب: «هناك رجل. كانا يعملان معاً. اسمه أبو سفيان».

- «من أبو سفيان؟».

- «إنه مسؤول عن كل هجوم وانفجار حصل في سامراء».

كنت أستطيع أن أسمع الإعجاب في صوته. وكنت أنا نفسي متأثراً. ففي الشهور الأخيرة كثر الهجوم على الجنود الأمريكان في سامراء التي كانت من أخطر المناطق في البلاد كلها.

- «أين يعيش أبو سفيان هذا؟».

- «لقد مات يا سيد، مات قبل بضعة أسابيع».

- «أخبرتك يا باسم، أنا لا أريد أناساً ميتين».

- «أيها السيد، يعتقد محمد إبراهيم أنني السبب في قتل أبو سفيان، ولم يعد يثق بي قط».

- «وكيف سوف تستعيد ثقته بك يا باسم؟».

- «يا سيد، أنا لم أردك أن تعتقلني، فأنا لم أرَ محمد إبراهيم منذ أن قتل أبو سفيان».

- «هل كنت سبب قتله؟».

- «لا. لكن محمد إبراهيم كان غاضباً وأراد أن يلقي اللوم على شخص ما».

جلست قبالته وكانت ركبنا تمس بعضها وقلت: «دعنا نأخذ الأمر من القمة. كم ولد لمحمد إبراهيم؟».

- «له ولد عمره 18 سنة وثلاثة أطفال صغار وقد ولدت زوجته قبل ثلاثة أشهر».

كانت هذه معلومات مفيدة. فمحمد إبراهيم له التزامات أسرية. ومع هذا العدد من الذين يطعمهم، لا بد أن يحافظ على اتصال بطريقة ما للتأكد من أنه تتم العناية بأولاده. سألته: «أين تعيش زوجته؟». أجاب: «في بيت والدها في تكريت، وقد أرسلت الأولاد للعيش مع الأقارب».

- «أين تعيش في تكريت؟».

ضحك وأجاب: «في العوجة القديمة، فقد سد الأمريكيون الحي، والولد في أمان هناك».

- «هل يأتي محمد إبراهيم لزيارتها؟».

- «أخبرتك يا سيد إن جنودكم يحرسون المنطقة وليس هناك من طريق يستطيع أن يأتي منه. ربما يلتقون في مكان آخر، قد تجده في مزرعته أو»... ثم صمت.

- «أو ماذا؟».

- «هناك عاهرة يزورها محمد إبراهيم أحياناً. ربما يقيم هناك».

- «حسناً، عمَّن أحتاج أن أعرف أيضاً؟».

فكر لحظة. فهو إما كان يحاول أن يتذكر أسماء أخرى أو يحاول إيجاد طريقة يتجنب فيها كشف أسمائهم لي. لقد كان من المعلومات ما يكفي لأن يقتله المتمردون، ولم يكن هناك سبب يدعوه للتوقف، فقد كنا نحن الوحيدون الذين يمكن أن يبقوه حياً.

أخذ باسم يخبرني عن سائق لمحمد إبراهيم تولى العمل بعد اعتقال باسم، ثم قال: «لمحمد إبراهيم أخ أصغر».

كنت أعرف ذلك. كان هناك ما مجموعه تسعة أخوة من آل المصلط في ذلك الفرع من العشيرة، وقد حددتهم جميعاً وأنا أضع قائمة الصلات. «أي واحد؟». قلت له.

أجاب: «سلوان، إنني أراه أحياناً في سوق الأغذية».

- «ماذا يفعل هناك؟».

- «يشتري الطعام، يا سيد. الكثير من الطعام، أجاب باسم كما لو أن المعلومات غير ذات صلة.

- «ماذا يفعل بهذا الطعام؟».

- «يحمله في شاحنته ويخرج من البلدة».

- «أين يذهب خارج البلدة؟».

- «يعبر الجسر ويذهب شرقاً».

- «باسم، لمن يشتري سلوان الطعام؟».

- في هذا الوقت كانت عيناه مثبتة علي وقال «ربما كان يشتري الطعام لصدام يا سيد».



أحد جسور نهر دجلة. كانت هنا مراكز مراقبة للمتمردين لمراقبة العسكريين الذين يذهبون إلى الشرق إلى حيث يختبئ صدام حسين.



لقد استمر استجوابي لباسم ست ساعات. وكنا جميعنا بحاجة إلى راحة. اندفعت إلى المنزل لأجد كيلي وبام بام. كانا بحاجة إلى معرفة ما حصلت عليه، في أقرب وقت. فشبكة التمرد التي كنا نتعقبها بكد واجتهاد قد انفتحت على مصراعيها، وعلينا أن نقوم بتحركنا قبل أن تنغلق نافذة الفرصة أمامنا.

- «محمد إبراهيم يدير كل الأمور» قلت لهم ونحن نجلس إلى الطاولة.

- «وجميع المتمردين تحت أمرته».

- «كل ما في تكريت؟». سأل كيلي وهو غير مصدق.

- «لا. في كل أنحاء العراق» أجبته.

أعطيتهما لحظة كي يستوعبا المعلومات. وفي الوقت الذي كان فيه بام بام هادئاً، رابط الجأش، نهض كيلي ثم عاد بعد لحظة وبيده قائمة العلاقات.

«حسناً قالها وأخرج قلمه». «دعونا نراجع القائمة خطوة خطوة، لمصلحة من يعمل محمد إبراهيم؟».

- «لصدام».

كان هناك صمت طويل ثم قال كيلي في النهاية: «هل أخبرك باسم بذلك؟».

- «أجل، ولديه قادة في مناطق مختلفة. لكن محمد إبراهيم هو الذي يصدر الأوامر، ويدفع الفواتير، واعتاد باسم أن يحمل مئات آلاف الدولارات في صندوق سيارته».

- «من الرجال الذين تحت قيادة محمد إبراهيم؟». قال كيلي وهو يرسم بسرعة مربعات جديدة على قائمة العلاقات.

قلت: «كان ردمان أحدهم».

- «ماذا كانت منطقته؟».

- «بغداد وتكريت والغرب».

صدرت عن كيلي صفرة قصيرة وقال: «إنها منطقة كبيرة. من أيضاً؟».

نظرت إلى بام بام الذي كان ينصت باهتمام، لكن كان من الصعب قراءة تعبيره. كنت أدلي بمعلومات كثيرة يمكن أن تنقذ الكثير من الأرواح. وكان القرار له وحده في القيام بعمل حول ما كنت أقوله له. «فارس ياسين.

ابن عم محمد إبراهيم كان مسؤولاً عن كركوك. وهناك شخص اسمه أبو سفيان مسؤول عن العمليات في سامراء، وهو ميت الآن، لكن باسم متأكد من أنهم قد وجدوا بديلاً له». كانت هناك بعض الأسماء التي أعطاني إياها باسم وكنت قد نقلتها لهم، وكان كيلي يضعها على قائمة العلاقات. عندما انتهيت، جلسنا نحن الثلاثة نراجع تسلسل القيادة، وكان بام بام لم يزل صامتاً لا يقول كلمة.

سأل كيلي: «ما تحركنا التالي؟».

أجبت: «أعتقد أننا بحاجة إلى أن نسعى وراء تامر العاصي». كنت أعرف أن بام بام قد رفض سابقاً طلباً بالإغارة على مالك مخزن الإسمنت. لكنني كنت الآن آمل بأن تكون الأمور مختلفة. كنا نقترب أكثر وكنت أشعر بالإثارة التي ملأتنا نحن الثلاثة.

سأل كيلي وهو يشير إلى قائمة العلاقات: «لماذا تامر العاصي؟ إن أمامنا هذه الأهداف الجديدة الآن».

قلت: «لكن هدفنا الرئيس هو محمد إبراهيم، وقد قال باسم إنه ينام لدى تامر».

- «ينام، كما لو أنه ينام هناك الآن؟».

- «لا أظن ذلك، فمنذ اعتقال باسم لأول مرة قبل شهر فقد باسم اتصاله مع محمد إبراهيم، قد يكون قام بتغيرات في روتينه اليومي كي يغطي نفسه».

- «لماذا إذن نغير على مخزن تامر؟».

- «لا أظن أن محمد إبراهيم لديه خيارات عديدة الآن يا كيلي. وفوق ذلك، فإنني أظن أن باسم يريد حماية تامر، فهو قد استمر في الإلحاح على أن محمد إبراهيم لن يكون هناك، لذا أقول: «دعونا نرى ذلك بأنفسنا».

توقفت عن الكلام فجأة مدركاً أنني قد تجاوزت حدودي. فهذا القرار ليس من سلطتي. استدرت أنا وكيلي إلى بام بام، الشخص الوحيد الذي يعنينا رأيه. رأيت شيئاً في وجهه لم أره من قبل. ابتسامة. ثم قال بهدوء. «سنغير عليه، سنغير عليهم جميعهم، هل من شخص آخر علينا القبض عليه؟».

لم أكن أصدق ما كنت أسمعه. بام بام وافق لتوّه على القيام بغارة كان رفضها ـ في السابق. لقد كان يريد أن يبلغني بطريقته الهادئة أنه يثق بما كنت أخبره به، وأنني قد حظيت بثقته، فقراره باعتقال باسم كان مخاطرة كبرى، لكنها بدأت تعطي نتائج لنا. وكان مستعداً لأن ينتقل إلى المستوى التالي.

كذلك كنت أنا. ابتلعت ريقي بمشقة وأجبت عن سؤاله: «حسناً، ما دمت قد سألت، فإن باسم يستطيع أيضاً أن يقودنا إلى بيت والد زوجة محمد إبراهيم حيث تقيم زوجته مع طفلها البالغ ثلاثة شهور، كما أنه يعرف عن عشيقة سيده السابق. قد يكون مختبئاً عندها، وهناك سائق استلم محل باسم بعد اعتقاله. أود أن أغير عليهم كلهم».

فكر بام بام لحظة ثم قال: «اترك والد الزوجة، فأنا لا أريد أن أسمع بأن رصاصة طائشة قتلت الطفل، لا سيما وأننا نعرف أن الطفل ـ في البيت».

كان هذا الكلام معقولاً، فقوات التحالف ـ في العراق، تسعى بقدر الإمكان لأن تجنب النساء الخطر فنحن لم نعتقل امرأة قط أو نستعملهن كمخبرين، فهذا مخالف لكل الرموز الأخلاقية، ولن يكون ذلك مفيداً على أي حال. فالنساء العربيات لا يتجرأن على التكلم ضد رجالهن.

قرر بام بام ـ في النهاية أن يغير على أربعة أهداف: بيت تامر العاصي والعشيقة والسائق الجديد لمحمد إبراهيم، وكاحتياط جيد، ضد أحد الأخوة من آل المصلط الذي ذكر باسم اسمه أثناء التحقيق. ستقوم الفرقة الرابعة بالإغارة على المصلط والسائق، ويقوم فريقنا بالإغارة على تامر العاصي والعشيقة. وتم توقيت الغارات على أن يكون ـ في منتصف الليلة القادمة.

الفصل الثالث عشر



00:45

2003/ 12/3

في الصباح الباكر يوم 3 كانون أول والغارات المتزامنة تجري، ذهبت لأجد كيلي في غرفة الاتصالات ولأنتظر التقرير عن الوضع.

مع مرور الدقائق، بدأ التوتر يتصاعد. فالكثير يتعلق على هذه الغارات. ليس فقط لإثبات صحة نظريتي بأن محمد إبراهيم وأصدقاءه كانوا يديرون كامل حركة التمرد ويعملون تحت إمرة صدام مباشرة، وإنما أيضاً لأنني كنت بحاجة إلى اعتقاله ولأن الأهداف التي وافق عليها بام بام كانت هي أفضل الطرائق للقبض عليه. واعتمد ذلك كله على المكان الذي قرر محمد إبراهيم أن ينام فيه تلك الليلة. إذا كان في تكريت، فإن إحساسي كان يقول لي إنه في أحد هذه الأماكن التي استهدفناها.

وحيث إن أفراد الفرقة الرابعة وفريق القوة الضاربة قد عرفوا أين يذهبون ومن يريدون، فلم يكن من الضروري لي أن أذهب في إحدى هذه الغارات. وبدلاً من ذلك، علي البقاء بانتظار أن أبدأ التحقيق عندما يحضرون الموقوفين. وفي اللحظة الأخيرة، صدرت الأوامر إلى الفرقة الرابعة بالإغارة على مزرعة لإلقاء القبض على أحد الأخوة من آل المصلط. فقد أراد بام بام أن يرمي شباكه في أعرض مكان ممكن.

في نحو الساعة 01:30 بدأت الأنباء تأتي. تامر العاصي في بتيه مع ابنيه. لم نجد محمد إبراهيم. الأخ المصلط مع زوجته في بيته. لم نجد محمد إبراهيم.

في المزرعة عمال مستأجرون، ولم نجد محمد إبراهيم. في منزل السائق وجدنا فقط والديه العجوزين ولم نجد محمد إبراهيم. وأخيراً، العشيقة في البيت وحدها ولم نجد محمد إبراهيم. خمس غارات. خمس غارات فاشلة، ولم يبد أنها ليلة جيدة.

والأسوأ من كل شيء، فكل غارة كانت تتمخض عما تتوقع أن تجده إذا أغرت على بيوت أناس أبرياء تماماً: تخيف الناس وتربكهم وهم ليس لديهم أي فكرة عما تبحث عنه. وكل ما حققناه هو إيقاظ الناس الأبرياء. وعند الصباح الباكر بدا أنه إذا لم نحصل على هدف آخر، فإن الليلة كلها تكون قد ضاعت. عند تلك النقطة، قرر بام بام الإغارة على مخزن الإسمنت حيث إن باسم كان قد أخبرني إن محمد إبراهيم كثيراً ما كان يأتي هنا للعب الدومينو مع أصدقائه. وحيث إن الصباح قد انبلج وإنه لا بد أن يكون هناك أناس آخرون حول المخزن، فقد أرادني أن أشارك في الغارة. وكانت مهمتي فصل الناس الذين نود الحديث معهم عن غيرهم.

كانت الإغارة على مخزن الإسمنت ستتم في وقت متأخر ذاك الصباح. لذا قررت أن أستجوب باختصار تامر وولديه، بعد أن تم اعتقالهم وإحضارهم إلى بيت الضيافة، وكنت أريد أن أعرف ماذا سنتوقع أن نحصل عليه من مخزن الإسمنت.

استجوابي الأولي لم يسفر عن شيء كثير. كان تامر العاصي شيخاً مرتبكاً تماماً نتيجة سحبه من فراشه في منتصف الليل. لكنه لم يكن مرتبكاً بشكل يجعله يكذب كما يريد. أصر على أنه لم ير محمد إبراهيم منذ أن بدأت الحرب في نيسان. كنت أعرف أحسن من ذلك. فكل من باسم وابن أبي إدريس ذكرا إن قائد التمرد في بيت تامر أو في المخزن في الأسابيع القليلة الماضية. لكن تلك كانت قصته وقد تمسك بها.

أين أولاده إذاً. في الواقع، كان ابنه الأصغر طالباً في الجامعة أتى في عطلته لزيارة أهله. صدقته عندما قال لي إنه لا فكرة لديه عما أبحث عنه. أما الأخ الأكبر فكان قصة أخرى. كان اسمه أمير ويعمل فعلاً في مخزن

الإسمنت. ولم يشكل ذلك فرقاً، أقسم أنه لم ير محمد إبراهيم لمدة أربعة أشهر وأنه لم يتحدث معه على الإطلاق. عند ذلك، لم أستطع أن أجعل الأب أو الابن يعترفان بأنهما قد لعبا الدومينو مع الحارس الشخصي القديم. لم أكن أصل إلى شيء. تركت آل العاصي في بيت الضيافة لأفكر في بعض الأمور ولأتأهب للغارة.

لم يكن مخزن الإسمنت ليبعد أكثر من ثلاث دقائق عن البوابة. وعندما دخلنا خطر في بالي أن محمد إبراهيم كان مرة يجلس مع أصدقائه على مسافة مني لا تبعد نصف ميل، وكنت آمل أن يحدث شيء هذه المرة.

كانت الساعة هي 08:00 عندما وصلنا، والشارع يمر فيه بعض الناس، الذين يقومون بأعمالهم الصباحية. دخل أفراد الفريق أولاً يحطمون الباب الأمامي ويندفعون إلى داخل المخزن. تبعتهم، وألقيت نظرة عما حولي، فلم أر إلا أكداساً من أكياس الإسمنت وحقيبة فيها دنانير عراقية بما قيمته 500 دولار. تحرك الفريق إلى الطابق الثاني حيث توجد بضع دكاكين. بعد لحظات نزلوا ومعهم عجوز أبيض الشعر، لا أسنان في فمه وكان يشيح بنظره عن الضوء اللامع الآتي من الباب المكسور.

«وجدنا هذا الشخص في الأعلى» أخبرني أحد أفراد الفريق». إنه يقول إنه حارس هذا المكان» ضحكت، فقد كان ذلك تنفيثاً عن الإحباط الذي كنت أحس به لا سيما وأن هذا العجوز لا يمكنه حراسة أي شيء.

سألته: «من يملك مخزن الإسمنت هذا؟». وكان المترجم يصرخ بأعلى صوته حتى يستطيع الحارس سماع السؤال.

تمتم قائلاً: «تامر العاصي ومحمد إبراهيم».

- «متى كانت آخر مرة رأيت فيها محمد إبراهيم؟».

- «قبل ثلاثة أيام».

طلبت من المترجم أن يعيد السؤال كي أتأكد أنني أحصل على ترجمة صحيحة لما يقوله.

- «أين كان؟».

- «هنا. لعب الدومينو مع أصحابه».

- «أي أصحاب؟».

- «لا أتذكر أسماءهم».

- «تامر العاصي؟».

- «أجل، بالطبع إنه يدير المخزن. رأيته هنا قبل ثلاثة أيام».

- «باسم لطيف؟».

- «من هذا؟».

- «سائق محمد إبراهيم».

- «أجل. كان هنا قبل ثلاثة أيام أيضاً».

- «أبو إدريس؟».

- «نعم قبل ثلاثة أيام».

بدأت أتساءل إذا كان هذا العجوز يعي ما يقول، فكل شخص سألته عنه كان في المخزن قبل ثلاثة أيام، والمشكلة الوحيدة أن أبا إدريس وباسم لطيف كانا عندنا منذ وقت أطول. لكن على الأقل، كان لدي شيء آخر كي أرجع وأواجه تامر العاصي وابنه به.

***

كانت اثنتي عشرة ساعة مضنية. فقد أغرنا تقريباً على كل مكان في تكريت يمكن أن يتواجد فيه محمد إبراهيم ولم يسفر ذلك عن شيء. وكلما كثفت البحث عن هذا الشخص، كان يبدو أكثر تملصاً ومراوغة. وكان قد مضى قرابة الشهر على تصريح ابن ردمان إبراهيم بأقرب ثلاثة أصدقاء لمحمد إبراهيم. باسم لطيف وأبي إدريس وتامر العاصي وهؤلاء الثلاثة في عهدتنا الآن، وقد استجوبت كل واحد منهم. لكننا لم نكن قريبين من طريدتنا منذ أن بدأ. كان عدد الذين أستجوبهم يتناقص، وكذلك عدد الأمكنة. لم يكن أمامي خيار سوى أن أعود وأحاول استخلاص معلومات أخرى من السجناء. ربما كان هناك شيء سهيت عنه.

قررت أن أركز على أمير، الابن الأكبر لتامر العاصي. فقد كان يعمل في مخزن الإسمنت وأقر بأنه رأى محمد إبراهيم هناك. ربما تكون هناك فرصة لي كي أجعله يعترف بشيء آخر. لقد كان الأمر يستأهل المحاولة.

بعد ساعة من إصغائي إلى أمير وهو يصر على براءته التامة، شرحت له ببطء وحذر أنني لا أهتم. فأبوه كان صديقاً حميماً لمحمد إبراهيم. وأنا متأكد من ذلك من المعلومات التي جمعتها. لم أرده أن يؤكد أو ينكر هذه الحقيقة. فقد أغرنا على منزل أبيه ومكان عمله، أريته حقيبة الدنانير العراقية التي وجدناها في مخزن الإسمنت كي أؤكد ما أقوله. لم يكن محمد إبراهيم في أي من المكانين؟ فأين هو؟

أنكر أمير بتأكيد أنه لا يعرف شيئاً عن أنشطة والده أو عن علاقته بمحمد إبراهيم.

قاطعته «ليس هذا هو المهم. أنت واقع في مشكلة بسبب ما تعرفه، إنك تعرف أشياء لا تخبرني بها وتعرف أشياء قلتها لك التوة».

زاغت عيناه.

شرحت له: «يا أمير. لقد قلت لك كل شيء نعرفه عن محمد إبراهيم، وهذه معلومات خطيرة. لو أطلقت سراحك، فستنتقل هذه الأشياء للأشخاص السيئين. وما قلته لك يجعلك ذا قيمة لهم. لا أستطيع أن أطلق سراحك الآن إذا أنا أردت ذلك. ستبقى عندنا حتى نعرف عمن نبحث.

أجاب: «لكن أحداً لن يفتش عني، فأنا لا شيء».

قلت بتعقل: «قد يكون ذلك، وربما يكون أخوك لا شيء أيضاً».

عند ذكر أخيه الأصغر، أحمد طالب الجامعة، تيبس أمير. فقد أراد أن يبعد أخاه عن المشكلات، وهو قلق يمكن أن أستغله لمصلحتي أكملت قائلاً: «يبدو إن أخاك فتى طيب، ومن المحتمل أن يصنع شيئاً لنفسه. لكني إن أحضرته إلى هنا وأخبرته بكل ما قلته لك، فعلينا أن نتمسك به أيضاً. ومن جهة أخرى، أنا أعلم أنه يريد أن يساعدك أنت وأباك بكل ما يستطيع. إنه ابن جيد وأخ مخلص. وربما عليَّ

أن أرسله كي يتعقب محمد إبراهيم. وبالطبع، لو علم المتمردون بالجهة التي يعمل لها، فربما يحدث له شيء».

أصر أمير: «أنه لا يعرف شيئاً، فقد كان بعيداً في الجامعة لعدة شهور».

أجبته: «أنا أصدقك، لكن كما قلت لك، أنا لا أهتم. إنني بحاجة إلى اعتقال محمد إبراهيم وسأبذل جهدي كله من أجل ذلك، أخبرني أين هو وسأدعك وأباك وأخاك تذهبون، وإلا لن يصل أي منكم إلى البيت أبداً».

حدق أمير بي وظل صامتاً. وأظن أنه كان فتى ذكياً وعملياً. كان على استعداد للانهيار، وكل ما يحتاجه هو حافز آخر. خطرت لي فكرة فناديت الحارس وطلبت منه أن يحضر باسم من الغرفة الأخرى التي أعتقله فيها.

بدا أمير مضطرباً عندما رأى صديق والده العجوز يدخل الغرفة. استغليت الفرصة وتحركت بسرعة وقلت: «يا باسم. تكلم مع هذا الأبله وأبلغه أن يتعاون معي».

جلس باسم على كرسي بجانب أمير. وسأله بصوت هادئ متزن: «ما المشكلة؟ أخبره بما يريد أن يعرفه يا أمير».

- «لكني لا أعرف شيئاً» أجاب أمير واليأس يتجلى في عينيه. فقد أدى حضور باسم إلى أن تهتز ثقته بنفسه.

وبإشارة منه لي، بدأ باسم يقوم بالتحقيق والمترجم يترجم أقوالهما لي. «أنت في مشكلة عويصة يا أمير. وليس أمامك من طريق لتخرج من هنا إلا بإبلاغ هذا الرجل بكل ما يريد أن يعرفه، لقد أخبرته بكل شيء، وعليك الآن أن تقوم بالشيء نفسه».

تحول خوف أمير إلى ما يشبه الراحة. فقد كان يعتمد الآن على باسم ليقوده أثناء الاستجواب».

- «لا تراوغ معي يا أمير» قلت له وأنا أقترب منه. كنت أعرف أنه على وشك الانهيار وأردت أن أعطيه الدفعة الأخيرة فأكملت: «هذه هي فرصتك لتساعد أباك وأخاك، هي فرصتك الوحيدة».

نظر إلي ثم إلى باسم ثم حول بصره باتجاهي. أخذ نفساً عميقاً وقال بصوت مرتجف: «يا سيد، إنهم يديرون كل شيء من مخزن أبي. جميع الهجمات. لم يستطع والدي أن يوقفهم، محمد إبراهيم يملك المخزن وهو يفعل ما يريد».

«إذن هو يدير التمرد من مخزن والدك؟». أومأ برأسه دون إحساس.

«ومن يأتي لرؤيته في المخزن؟».

- «الجميع، إخوته وأولاد عمه».

- «ما أسماؤهم؟».

- «لا أعرف»، ثم استدار لباسم، اسأله، إنه يعرفهم جميعهم».

بدا باسم وكأنما ركله أحدهم بقسوة ثم رمق أمير بنظرة قاسية».

محمد إبراهيم ليس موجوداً في تكريت الآن، قل له».

- «أين هو الآن؟». بقي أمير صامتاً. فقلت بصوت فيه إقناع كبير:

«اسمع، ما الذي فعله محمد إبراهيم لك؟ إنه السبب في وجودك أنت وأبوك هنا، وربما يقضي أخوك بقية عمره في السجن، لماذا تحميه؟».

بدا أن ذلك قد أثر فيه، عدل جلسته وقال: «رأيته يقود سيارته إلى المدينة».

- «مع من؟».

- «مع رجل من سامراء».

- «أي رجل؟».

- «شقيق أبي سفيان».

راجعت في دماغي قائمة العلاقات. أبو سفيان كان قائد المتمردين في سامراء، وكان باسم قد افتخر بأنه يعرفه. وكان قد مات قبل بضعة أسابيع. سألته: «ما اسم أخ أبي سفيان؟».

أجاب أمير: «محمد خضير». نقلت بصري بسرعة إلى باسم الذي بدا وكأن هذه أخبار جديدة عليه.

سألت أمير: «أين يعيش؟». «في سامراء، بالقرب من والديّ صباح. لا أعرف بالضبط أين؟».

أسماء جديدة كانت تكر بسرعة الآن. محمد خضير كان شقيق متمرد مشهور، شوهد مع محمد إبراهيم. لكن من هو صباح هذا؟ استدرت نحو باسم الذي أخبرني بأن «صباح أيضاً يعمل لمصلحة محمد إبراهيم، وكثيراً ما كان يحضر إلى مخزن الإسمنت للحصول على النقود لعملياتهم في سامراء».

«قمت بتسليم إسمنت لمنزل والديّ صباح». قال أمير. بدأ باسم يتكلم مع أمير محاولاً أن يعرف أي بيت في سامراء قام بتسليم الإسمنت له، ثم استدار باسم إلي وقال:

«أنا أعرف بيت أهل صباح، إذا أخذتني إلى بيتهم، فإنني أستطيع أن أخبرك أين يعيش محمد خضير، إنه قريب منهم جداً».

أحببت الطريقة التي تسير فيها الأمور. ففي هذه اللحظة، كنا نحن الثلاثة نعمل مع بعضنا بعضاً، نكشف العلاقات التي قد تسير بنا نحو محمد إبراهيم، لم يكن ذلك إجراء قياسياً عندما تجعل سجيناً يتكلم مع آخر، لكنني كنت قد تخليت عن الإجراءات القياسية منذ زمن بعيد.

- «هل محمد إبراهيم في سامراء؟». سألت وأنا أعود إلى هدفي الرئيس.

أجاب أمير: «لا أدري، لكني أعرف أن أخاه سلوان إبراهيم قد استأجر بيتاً هناك».

كان سلوان أخاً آخر لمحمد إبراهيم، وهو الشخص الذي رآه باسم يشتري كميات كبيرة من الطعام في السوق، الطعام الذي ربما كان صدام يتغذى عليه. فجأة، ومن الشعور بالفشل الذريع الذي منينا به في الليلة السابقة، كان لدي جميع

أنـواع الاتجاهـات الـتي سـأتبعها. فالقائمـة الاعتباطيـة للأسمـاء والأمـاكن الـتي احتفظـت بهـا في مخيلتي منـذ زمـن طويـل قـد بـدأت تـرتبط وتتشابك، فقـد كنـت أقترب أكثر فأكثر.

سألته: «هذا البيت المستأجر، أين هو؟».

أجاب أمير: «لا أعرف، لكن محمد خضير سيعرف».

تراجعت وبدأت أراجع ما سمعت. سيأخذني أمير إلى مكان في سامراء حيث يعيش والدا مشغل التمرد. ومن هناك يستطيع باسم أن يريني بيت محمد خضير، شقيق أبي سفيان، القائد الآخر للمتمردين، وخضير بدوره قد يكون قادراً على أن يأخذنا للبيت الذي استأجره سلوان، شقيق محمد إبراهيم. كانت مهمة معقدة فيها تحدي، لكنها أيضاً كانت آخر أفضل أمل في إنجاز مهمتنا.

جعلت أمير يرسم خريطة مضبوطة بقدر الإمكان للحي الذي يسكن فيه والدا صباح في سامراء، وأراني باسم قرب بيت محمد خضير منهما. ثم ذهبت لأعطي هذه المعلومات لكيلي وبام بام.

في هذه المرة لم يستغرق بام بام أكثر من دقيقة كي يعطي قراره. وأخبرنا إننا «سنأخذ باسم والفتى كي يرينا بيت صباح بعد ظهر هذا اليوم. وسنغير عليه غداً هو وبيت محمد خضير» ثم استدار نحوي وقال: «سيأخذنا محمد خضير إلى البيت الذي يستأجره سلوان، أليس كذلك يا إيريك».

أومأت برأسي بثقة تامة. فقال: «سألزمك بذلك» ثم غادر الغرفة كي يقوم بالتحضيرات للغارات التي ستحصل.

قلت لكيلي: «لقد كان ذلك سهلاً بالتأكيد»: حتى هذه النقطة، كان من المستحيل أن تحصل الموافقة على إغارة بناء على معلومات حصلنا عليها من الاستجواب. لكن الأحداث كانت تتسارع الآن، وأبدى بام بام استعداده لأن يكون في وسط الحدث. لقد كنا جميعنا نعمل الآن على الوصول إلى الهدف الذي طالما عملنا جاهدين للوصول إليه.

قال لي كيلي: «نحن بحاجة إلى أن نحصل على شيء. فالوضع مع باسم وقريبه مسؤول الأمن سيصبح جدياً وخطيراً آجلاً أم عاجلاً، وجميع الغارات التي قمنا بها أمس لم تسفر عن شيء. ويجب أن يعوضنا مساء الغد عن ذلك. وقد تكون هي آخر رمية لنا نحو هذا الهدف».

- «دعني أسألك سؤالاً يا كيلي» قلت له وأنا أخشى رده، «هل تظن بأننا نقترب أكثر من محمد إبراهيم؟».

أجاب كيلي: ليس المهم ما أعتقده، فقد حصلنا على شيء يبرر ما كنا نفعله طوال الوقت. لقد آذينا أصدقاءنا السنيين، ولدينا قائمة علاقات مليئة بأسماء لم يسمع بها أحد خارج هذا المنزل. لقد أصبح مصيرنا كله على المحك أيها الرجل».

الفصل الرابع عشر

1.9

18:15

2003/12/4

ذهب باسم وأمير مع الفريق إلى سامراء للتعرف إلى بيت صباح تحضيراً للغارة في المساء التالي. لقد أصبح الاثنان فريقاً. وعندما أنهينا الاستجواب ذلك اليوم، تركتهما مع بعضهما بعد أن أزلت القيود عنهما وأعطيتهما سجائر. أردتهما أن يتحدثا مع بعضهما وأن يشعر واحدهما بالراحة تجاه الآخر ويتعودا على فكرة تعاونهما معي. كان هناك دافع مشترك يعمل لمصلحتي. كان بإمكانهما أن يشتركا بالمعلومات ويملأ واحدهما الفراغ الموجود في معلومات الآخر. وفي الوقت نفسه، كنت آمل أنهما سيدركان أن عملهما مع بعضهما هو الذي سيحقق لهما حريتهما.

لم أحاول أن أكسبهما إلى صفي عن طريق اللباقة والتكيف، كنت أميناً معهما. شرحت لهما الوضع الذي كانا فيه وكيف يمكنهما تحسينه، وأوضحت لهما بأنني سأفعل كل شيء أستطيعه كي أساعدهما في إطلاق سراحهما لأنني، بتعاونهما معي، كنت أعزز مهمتي. كنا بحاجة إلى بعضنا بعضاً وهذا بدوره خلق نوعاً غريباً من الصداقة التي ستدوم ما دامت هناك مصلحة في اعتمادنا على بعضنا بعضاً.

لكن في الوقت ذاته، لم أخدع نفسي بالتفكير في أنهما في صفنا فعلاً. فكرت للحظة في أن أحول والد أمير، تامر العاصي، وأخاه الأصغر إلى سجن

الفرقة الرابعة، فأنا لم أعد بحاجة إليهما في ذاك الوقت، لكنني قررت بسرعة أنني بحاجة إلى أن أبقيهما قريبين كي أذكر أمير إن عمله لحسابي هو فكرة صائبة. إذاً علي إبقاءهما في بيت الضيافة.

في مساء يوم الغارة بقيت أنا وسجيناي نتحدث لأكثر من أربع ساعات، ثم اقترحت عليهما أن نأخذ قسطاً من النوم، فهذه الليلة ستكون عظيمة.

أصر باسم قائلاً: «لا، سأغلي إبريقاً جديداً من الشاي، فنحن بحاجة إلى أن نستمر في العمل.

وافق أمير وقال «إذا كان علينا أن نخرج من هنا، فإن هناك أشياء كثيرة لا بد أن تعرفها.

ضحكت في سري. فأنت تعرف أن الموقوف قد أنهار نهائياً عندما يصر على الاستمرار في جلسة الاستجواب.

كنت بحاجة إلى كل المساعدة التي أستطيع الحصول عليها. وعند حلول 6 ديسمبر/ كانون الأول، صباح يوم الغارة على سامراء، كانت مدة خدمتي في تكريت تقترب من النهاية. لم يخبرني أحد بموعد مغادرتي، وأنا لم أرد أن أطرح الموضوع، لكني كنت واثقاً من أنني سأسمع من بغداد هذا الخبر أثناء بضعة أيام على الأكثر.

كانت فكرة مغادرتي قبل إنجاز المهمة أمراً غير قابل للتفكير فيه. فأنا لا أستطيع أن أحزم أغراضي وأغادر قبل أن أرى تحقيق ذلك. لقد كنت أنا الذي وضع كيلي وبام بام وبقية الفريق في مواقف حرجة في المقام الأول، وكنت مقتنعاً بأننا على وشك الإطباق على شيء حقيقي ضخم: فقد كان محمد إبراهيم يدير التمرد في العراق بأوامر من صدام حسين. وهذا يعني أنه على علاقة مباشرة مع الرقم 1 في القائمة السوداء. إذا اعتقلناه، فإنه لن يكشف بالضرورة عن مكان اختباء صدام حسين، لكن اعتقاله سيكون بمثابة قطع اليد اليمنى لصدام حسين.

عندما حل الليل بذلت جهدي في أن أجعل باسم وأمير مستعدين للغارة، وحيث إن الحياة في بيت الضيافة كانت ثقيلة ومملة، فقد شعر باسم بالإثارة

حول شن غارة حقيقية قتالية. لكنني مع مرور الساعات لاحظت أنه أصبح عصبياً كنت أريدهما أن يبقيا هادئين مركزين، وأن يعرفا قبل كل شيء بأننا نعول الكثير الكثير على نجاح مثل هذه الغارات. وضمنت لهما إطلاق سراحهما في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة إذا قبضنا على محمد إبراهيم. لكن إذا فشلت هذه الغارة مثل مثيلاتها، فإن مستقبلهما سيصبح أكثر تعقيداً.

كذلك سيصبح مستقبلي. فمن المحتمل أن اقضي بقية خدمتي في الجيش وأعود إلى الحياة المدنية مدركاً أنني قد فعلت أقصى ما أستطيع لكن كيف سأعيش وأنا أدرك أن أفضل ما قدمته لم يكن كافياً تماماً.

☆☆☆

كانت الساعة 00:30 من يوم 6 كانون أول عندما جرت غارة سامراء. ومرة أخرى كنت أنا وكيلي في غرفة الاتصالات لسماع الأخبار التي يبثها اللاسلكي. بدا الانتظار طويلاً جداً. وفي النهاية، عند الساعة 01:00 سمعنا خبر اقتحام الفريق للبيت الذي يسكنه والدا صباح. بعد ساعة، قدم بام بام تقريره الأول: «حملة فاشلة على الهدف الأول». غاص قلبي، أكمل «سنتحرك نحو الهدف الثاني».

تبادلنا أنا وكيلي نظرات عبرت عن ارتباكنا. هل يعني ذلك أنهم يتحركون باتجاه موقع محمد خضير؟

- «أكدوا لنا موقع الهدف الثاني» طلب منهم كيلي.

أجاب بام بام: «نحن في طريقنا إلى البيت المستأجر».

«شكراً لك يا إلهي، همست، ما حدث في الإغارة على صباح جعلهم يحصلون على معلومات كافية للذهاب إلى البيت المستأجر لسفيان إبراهيم. لكن إذا لم يعتقلوا أي شخص في الغارة الأولى، فكيف عرفوا أين يذهبون الآن؟».

بعد عشر دقائق جاء صوت بام بام بأنهم أغاروا على البيت المستأجر. انتظرنا بقلق ثلاثين دقيقة أخرى قبل أن نسمع النتائج.

«إغارة فاشلة على الهدف الثاني» قالها بام بام بصوت يخلو من الانفعال. سنعود إلى القاعدة.

انتهت الغارتان، وكان الجلوس في تلك الغرفة الضيقة المليئة بأدوات الاتصال قد أشعرني بأنني مضطرب تماماً. ما الذي حدث؟ لم نجد أهدافنا، لكنهم عادوا ومعهم أسيران. بدا وكأننا قد وصلنا إلى طريق مسدود.

هل كان محمد إبراهيم شخصاً حقيقياً أم أننا كنا نطارد شبحاً؟ استطعت أن أعثر على رجاله وسائقه وشريكه التجاري، على الكل باستثناء الرجل نفسه. لقد نفذ وقتي وكذلك خياراتي.

وصل الفريق مع طلوع الشمس وجلبوا السجينين لي من أجل الاستجواب. كان الأول اسمه لؤي، وهو شقيق صباح، قائد التمرد في سامراء. كان هو الرشيد الوحيد في بيت والديه زمن الغارة. وكان لؤي هو الشخص الذي كشف للفريق مكان البيت المستأجر. وحيث بدا إن الاحتمال الأكبر بأن يكون محمد إبراهيم يختبئ هناك، فقد اتخذ بام بام قراراً سريعاً بتخطي بيت محمد خضير والذهاب مباشرة إلى الموقع الجديد، وهناك ألقوا القبض على ابن محمد إبراهيم البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً وكان اسمه الكامل هو مصلط محمد إبراهيم عمر المصلط.

بدأت أتنفس بسهولة أكثر. لم تكن الغارة إخفاقاً تاماً. فقد وجدنا البيت المستأجر وقبضنا على ابن الهدف الرئيس. كنت ما أزال في اللعبة.

قبل أن أبدأ استجواب السجينين الجديدين، راجعت الأمور مع باسم لأعرف رأيه في الأحداث التي جرت هذه الليلة. وحالما دخل الغرفة عرفت أن لديه شيئاً في رأسه فسألته إذا كان هناك خطأ.

رد باسم بحدة: «سأخبرك ما الخطأ. لم يذهبوا إلى بيت محمد خضير، أنا أعرف أن محمد إبراهيم كان هناك ولم نذهب لإلقاء القبض عليه».

أذهلني ما قاله باسم. وفوجئت لأن أراه مهتماً جداً بنجاح الغارة. وبالطبع، هناك الكثير مما سيكسبه إذا ألقي القبض على رئيسه السابق. لكن في ذلك الوقت، بدا وكأنه بالفعل ينحاز إلى جانبنا. أدركت ذلك وأنني على الرغم مني بدأت أحب باسم.

سألته: «ماذا عن هذا الشخصَ الذي قبضنا عليه في بيت صباح؟». سألته وأنا أحاول تهدئته، ثم قلت: «هل هو شقيق صباح؟».

أومأ برأسه: «نعم، فقد رايته من قبل، لكني لا أعرف اسمه».

قلت: «أحتاج إلى أن أتكلم معه الآن، لكن إذا لم يتعاون فربما أكون بحاجة إلى مساعدتك».

أكد لي باسم قائلاً: «لن تحتاج إلى مساعدتي، ستجعله يتكلم».

لم أستطع مقاومة توجيه السؤال إليه: «ما الذي يجعلك واثقاً هكذا؟».

قطب حاجبيه وقال: «لم أكن أريد أن أخبرك بشيء، وانظر الآن إلى ما حصلته مني.

توجهت إلى الغرفة التي حجزوا فيها لؤي. وكالعادة، بدأت بأسئلة تمهيدية كي أعرف شيئاً عن خلفيته. لكن قبل أن أستمر حتى نهاية الأمر، ناداني كيلي وقال: «عليك الحضور إلى هنا».

فكرت، «ماذا الآن؟ هل أنا واقع في مشكلة؟».

أجاب كيلي: «فقط احضر إلى هنا. هناك شيء يجب أن تعرفه قبل أن تبدأ استجواب شقيق صباح».

ذهبت إلى المنزل ودخلت من باب المطبخ وهناك تخشبت. كان كيلي والفريق يقفون عند الطاولة التي كان فوقها «رزمات» من مئات الدولارات وقد صفوها كالهرم. كان مبلغاً لم أر مثله في حياتي، لقد كان مبلغاً يفوق أي مبلغ رأيناه كلنا مجتمعين.

قال كيلي: بابتسامة عريضة: «ظننت أنك تحب أن تعرف كيف يبدو مبلغ مليون وتسعمئة ألف دولار أمريكي.

حدقت بالمبلغ وسألت: «من أين أتى هذا المبلغ؟».

«بعد أن أغرنا على منزل صباح، كنا نستعجل ذهابنا إلى البيت المستأجر» قال أحد أفراد الفريق، «ثم كدسنا كل شيء نستطيع أن نجده وخرجنا. رأينا خزنة حديدية لم نستطع أن نفتحها إلا بعد عودتنا: «أشار إلى النقود وقال: «هذا ما وجدناه فيها».

التفت إلى كيلي وقلت: «نحن بحاجة إلى ذلك، وآمل أن يعني ذلك أننا نستطيع أن نستمر الآن».

أجاب كيلي: «لقد اشتريت لنا من الوقت ما قيمته مليون وتسعمئة ألف دولار».

- «كم هي المدة؟».
- «أطول مما كان لدينا قبل عدة ساعات».

رجعت إلى بيت الضيافة وأنا أشعر بالغبطة، أحدث نفسي ولا يهمني من يسمعني. «لم ننته بعد، هل انتهينا يا كيسي؟ لا، لم ننته يا أخي، لقد بدأنا التوة». بوجود مليون وتسعمئة ألف دولار، اكتسبت نظريتي مصداقية كبيرة. والأهم من ذلك، فقد برر ما كنا نفعله في تكريت. لقد كنا نطارد الأشخاص المناسبين، الذين لديهم الإمكان لتمويل وتنفيذ التمرد. لقد برهنا على ذلك، وكل ما علينا الآن هو أن نقبض عليهم.

☆☆☆

دب في النشاط عندما استمريت في استجواب شقيق صباح. كنت مستعداً لأعمل طوال اليوم لأحصل على كل شيء يعرفه. لكن لم يتعين علي بذل الجهد، فقد انهار الرجل أثناء خمس دقائق.

في الوقت الذي لم يعترف فيه بأن أخاه إرهابياً، أقر لؤي أن المبلغ الذي صادرناه كان يستعمل لتمويل التمرد. وقال إن محمد إبراهيم قد أعطاه لأخيه صباح لتمويل عمليات سامراء، واعترف لؤي أيضاً بأنه قد جلس عدة مرات في لقاءات بين أخيه ومحمد إبراهيم وأبي سفيان قبل أن تقتله قوات الائتلاف وكان

الجميع يشربون الشاي وهم يخططون لهجمات ويدلون بتقارير عن الذين جندوهم مؤخراً.

إدراكي بأن لؤي لم يكن هو نفسه من المتمردين فعلاً لم يستغرق وقتاً طويلاً. فهو لا يملك الجرأة على ذلك، فقد كان مهتماً أكثر بعرسه القادم، كما أخبرني، وكان من المقرر أن يحصل العرس بعد أربعة أيام. وقد اعترف بابتسامة خجولة أنه لم يسبق له أن عاشر النساء قبلاً وأنه أراد أن يتزوج في الوقت المحدد، ولم تكن أي حرب عالمية لتثنيه عن الحصول على زوجة المستقبل، وأنه سيفعل ويقول أي شيء مهماً كان لإنهاء توقيفه بالسرعة الممكنة.

بعد ساعتين، استدعيت المساندين الجدد باسم وأمير، وكنت متحرقاً لأعرف رد فعل لؤي. ربما كان لديه المزيد ليقوله، ووجودهما سيطلق لسانه وبالفعل، بدا مذهولاً ومتفاجئاً عندما دخلا، وبدا يتحدث بأسرع مما كان عليه في البداية.

«غادر أخي صباح إلى بغداد قبل ثلاثة أيام» قالها لؤي قبل أن يتسنى لي توجيه السؤال، وأكمل قائلاً: «لم أره منذ ذلك الوقت، لم أر أياً منهم منذ ذلك الوقت».

- «ما المدة التي كنت تراهم فيها قبل ذلك؟».

- «كل يوم تقريباً، وأحياناً كانوا يجلسون ويتحدثون، لكنهم في العادة كانوا يأخذون صباح ويغادرون».

- «إلى أين ذهبوا؟».

- «لا أدري، اعتادوا أن يغادروا في الليل وكان صباح يعود في الصباح».

تقدمت نحوه أكثر وأنا أريده أن يفهم أن رده على سؤالي سيكون حاسماً.

- «ما المدة التي كنت ترى فيها سلوان؟». حتى الآن، كان سلوان - شقيق محمد إبراهيم هو حلقتي المباشرة للعثور على صدام. فقد رآه باسم يشتري كميات ضخمة من الأغذية في السوق.

أجاب: «كنت أراه كثيراً مع محمد إبراهيم. كان يأتي إلى المنزل. لكن أثناء النهار».

- «لماذا في النهار فقط؟».

هز كتفيه وقال: «لأنه سيغادر في المساء. لم أره في الليل قط».

- «أين ذهب؟».

- «لم أسأله قط». نظرت إلى باسم، فقد كان من الواضح أنه يفكر بمثل ما أفكر فيه. كان سلوان يذهب في الليل إلى المكان الذي يختبئ فيه صدام.

- «هل يعيش سلوان في البيت الذي استأجره في سامراء؟».

- «لا. لا أعتقد أنه أقام في سامراء».

- «إذاً، لماذا استأجر البيت؟».

«كان ذلك من أجل محمد إبراهيم. بعد اعتقال باسم لم يعد باستطاعته البقاء في تكريت». حدق لؤي بباسم وقال له: «كان محمد إبراهيم متأكداً من أنك تعمل لصالح الأمريكان».

«هل تعرف من هذا؟». سألته وأنا أغير اتجاه الحديث وأشرت إلى أمير. كنت أريد أن أعرف الحد الذي يتآلف فيه التمرد في سامراء مع تامر العاصي وولديه.

أجاب لؤي: «نعم، هذا أمير تامر العاصي، لا يجب أن يكون هنا. لم يفعل شيئاً». صرخت فيه: «أجب عن السؤال فقط أيها الأبله. ليس لك الحق في إعطاء رأي. باسم حصل على هذا الحق». ضحك السائق. وكان إعطاؤه هذا الدعم شيئاً صحيحاً، فأنا لم أكن أصل إلى هذا الحد لولا تعاونه معي عن طيب خاطر.

حصلت على الكثير من لؤي، على الأقل في تلك اللحظة. وكان الوقت قد حان لاستجواب السجين الآخر. قلت لباسم وأمير ولؤي: «سأذهب للتحدث مع ابن محمد إبراهيم الآن. هل تريدون أن تسمعوا ما يقول؟». ومرة أخرى، كنت أخالف قانون الاستجواب، لكن تركي للسجناء يتحدثون مع بعضهم أفادني جداً حتى الآن، وكنت تواقاً لأعرف ماذا سينتج عن ذلك ما دام الثلاثة تحت سيطرتي.

لم يكونوا مهتمين، وبدا عليهم الهلع من إمكانية مقابلتهم له. «إذا عرف أننا نساعدك، فمصير أسرنا الموت» قالها باسم نيابة عن الآخرين. «قد يكون مجرد غلام، لكن والده قوي جداً. لم لا يمكن أن ندعه يرانا».

«ليس هناك مشكلة» قلت ذلك وأنا أحدق بلؤي. فقد بذل كل ما يستطيع لمساعدتي. ربما يكون مفيداً أكثر فيما بعد. استدرت نحو باسم وأمير وسألتهما: «ماذا تقولان؟ هل تريدان رفيقاً آخر في الغرفة؟».

وافقوا ثلاثتهم ورافقهم الحراس إلى الخارج. سيحصل لؤي على سرير ونصيب من السجائر وفرصة ليمضي بعض الوقت مع أعز أصدقائه. تمنيت لو أنني ذبابة على الحائط لأعرف ماذا يقولون.

★★★

كان مصلط محمد إبراهيم عمر المصلط عينة مثيرة للشفقة تماماً. ابن مسؤول حكومي كبير مدلل ومحمي طوال حياته، كان من الصعب أن والده هو أحد قادة التمرد عديمي الرحمة. كان مصلط يخاف من خياله.

بدأت أسئلتي ببطء وأنا أحاول أن أستشف مع من أتعامل. لم يستغرق الأمر طويلاً، فقد كان يصر على أنه لا يعرف شيئاً عن أنشطة محمد إبراهيم. شعرت بالأسى تجاهه عندما فسر لي السبب.

«يشعر أبي بالحرج لأنني ابنه، وهو لا يثق بي أبداً فيما يخص المعلومات المهمة».

قلت وأنا أحاول أن أحدد بالضبط ما يعلمه مما لا يعلمه: «أي معلومات؟».

غاص في كرسيه كما لو أنه يريد أن يختفي تماماً وقال: «إنه يختبئ من الأمريكان ولو أخبرني عن مكان وجوده فإنه يخشى أن أدلكم عليه». «هل ستخبرني؟».

«إذا استطعت، ليس عندي ما أقوله».

أجبته: «أنا سأقرر ذلك، منذ متى وأنت في البيت الذي وجدناك فيه؟».

«ثلاثة أسابيع، ليس أكثر».

«أين كنت تعيش قبل أن تنتقل إلى سامراء؟».

«في مزرعة عمي سلوان في كركوك». كان ذلك مكان آخر عليَّ أن أبحث فيه. كان الشاب يعرف أكثر مما يظن».

- «لماذا غادرت؟».

- كان عمي مضطرباً، وكان يخشى أن يكون أحدهم يتجسس عليه».

- «هل ذهبت إلى سامراء من قبل؟».

- «اعتدنا أن نذهب هناك لصيد السمك. عندما كنت صغيراً، كان أبي يأخذني معه إلى النهر».

«لم تذهب إلى أي مكان آخر؟».

هز رأسه ونظر لي نظرة بائسة وقال: «إن أبي يكرهني».

فطر مصلط قلبي وسألته: هل تفتقد الصيد مع والدك؟».

أجاب بأسى: «أجل. إنه ما يزال يصطاد في بركته في سامراء، لكنه لم يطلب مني قط أن أذهب معه إلى الصيد. أنه هناك طوال الوقت». كانت هذه معلومة مثيرة. لدي على قائمتي مكان آخر يتردد عليه محمد إبراهيم. استمريت في الاستجواب بشكل هادئ ومتوازن، وكنت أشجعه على أن يتحدث لي أكثر عن علاقته المضطربة مع والده. فقد كانت هناك معلومات كثيرة بين السطور.

سألته: متى كانت آخر مرة رأيت فيها والدك؟».

أجاب: «كان في البيت قبل ساعتين من حضور جنودكم إليه».

«ماذا؟». لم أصدق أذني. لكن كان من الواضح أن الشاب لم يكن يكذب. فهو لم يكن مكاراً. لقد كان محمد إبراهيم في البيت الذي استأجره سلوان، ولو كنا هناك قبل ساعتين لكنا قبضنا عليه. وعلى الرغم من الإحباط الذي صاحب هذه المعلومة، إلا أنني سررت لأننا كنا على الطريق الصحيح. وكان قرار بام بالذهاب مباشرة إلى البيت المستأجر صائباً. لكننا وصلنا إلى هناك متأخرين.

سألته: «متى كانت آخر مرة تواجد فيها سلوان في البيت؟».

- «كان هناك أيضاً في تلك الليلة، لكنه غادر قبل العشاء كما يفعل دوماً».

- «إلى أين ذهب؟». هز الفتى كتفيه.

- «هل ما يزال والدك يعيش هناك؟».

- «أحياناً. وفي مرات أخرى يذهب إلى مكان آخر، لا أعرف أين هو. فهو لا يأخذني معه».

- «هل تعرف متى سيكون هناك ثانية؟

هز مصلط رأسه. «إنه لا يخبرني مثل هذا الأمر».

- «متى كانت آخر مرة تواجد فيها أبوك هناك قبل ليلة البارحة؟».

«غاب ثلاثة أيام ثم أتى بعد الظهر وغادر ليلاً».

- «ما السيارة التي يستعملها؟».

- «لقد التقطه شقيق أبي سفيان واسمه محمد خضير».

- «أين ذهبوا؟».

- «أعتقد أنهم ذهبوا لبيت محمد خضير» تذكرت إصرار باسم أن هدفنا في الأمس كان هو المكان الصحيح. كنت بحاجة إلى النقاش، فتركت مصلط وذهبت إلى الغرفة التي يوجد فيها المحتجزون الثلاثة. «مرحباً باسم»: قلت للسائق عندما دخلت الغرفة. «ربما كنت مصيباً، فمحمد إبراهيم كان في بيت خضير مساء أمس».

- «بالطبع كان هناك» رد باسم بغرور.

استمريت قائلاً: «حسناً، سأعطيك هذه الواحدة، أين هو الآن؟».

هز باسم كتفيه: «يمكن أن يكون في أي مكان، في فندق أو في بناء مهجور أو في بيت أحد أقاربه».

فكرت للحظة ثم سألت: «ماذا كان يفعل من أجل الاسترخاء عندما يتواجد في سامراء؟».

- «كان يذهب للصيد» رد لؤي متحمساً وهو يريد أن يساعد.

كان ذلك تأكيد لما أخبرني به مصلط من أن والده كان شديد الولع بالصيد.

سألت لؤي: «أين يذهب؟».

- «أنهم يملكون بحيرة لتربية السماك، ويملكها محمد إبراهيم ومحمد خضير، وقد ملؤوها بأسماك من النهر، والبركة بجانب النهر تماماً.

- «هل ذهبت إلى هناك؟». وجهت السؤال والتفت إلى باسم.

هز رأسه وقال: «إنهما يذهبان إلى هناك طوال الوقت، لقد سبق أن أوصلتهما، إنهما يصطادان ويشربان الويسكي».

أحبطني ذلك وقلت له: «لماذا لم تخبرني عن ذلك من قبل؟».

أجاب بعبوس: «لم تسألني، إن عقلي يا سيد لا يشتغل مثل عقلك لكن لو سألتني، سأخبرك بما أعرفه. كان من الصعب أن أظل غاضباً من الرجل.

- «أين هي البركة؟».

- «إنها خلف منزل محمد خضير، هناك طريق ترابي وتستطيع أن تسير عليه لمسافة خمسة كيلومترات ثم تراها، وهناك كوخ عند الشاطئ».

- «هل تظن أنهما يختبئان هناك؟».

أجاب باسم: «بالتأكيد، إنهما يختبئان من زوجتيهما».

لم أحتج إلى ضمانات أكثر. فالكلام معقول. وكان هناك منع تجول في جميع أرجاء المنطقة. وإذا كان محمد إبراهيم قد غادر البيت المستأجر مساء أمس، فإنه لن يكون قد ذهب بعيداً، ولا بد أنه في مكان قريب كي يتجنب نقاط التفتيش والدوريات. ومكان صيد منعزل خارج البلدة هو مكان صحيح، وكنت جاهزاً لأن أستفيد من حقيقة وجود 1.9 مليون دولار لدى الفريق.

«لقد أخطأنا محمد إبراهيم بساعتين» قلت لكيلي بعد رجوعي إلى البيت لأخبره بما حصل في التحقيق. أردت أن أبدأ بمعلومات جديدة قبل تقرير غارة ثانية.

لاحظت على وجه كيلي الانفعالات نفسها التي شعرت بها: الإحباط الذي تبعه إدراك مبتهج في أننا كنا على طريق الحراس الشخصيين لصدام، وسأل: «ما خطوتنا التالية؟».

قلت: «نحتاج للقيام بغارة ثانية يا كيلي، فقط استمع لدقيقة. مكث محمد إبراهيم في بيت أخيه سلوان في سامراء. لم يمكث سلوان في البيت وهو يذهب إلى مكان آخر كل ليلة، فأين يذهب؟

أخبرني أنت: قالها كيلي بشك.

بدأت أعرض له قائلاً: «أخبرني باسم أنه شاهد سلوان في السوق يشتري كميات كبيرة من الأطعمة، لمن كل ذلك الطعام يا كيلي؟».

أجاب: «ادخل في الموضوع».

قلت: «حسناً. أعتقد أن سلوان يأخذ ذاك الطعام لصدام، وأعتقد أنه يقضي الليل هناك ليحرسه ويأتي في الصباح».

ساد الصمت ثم قال كيلي: «أين هو؟. أين صدام؟».

رجوته السكوت قائلاً: «انتظر. استمع إلي فقط. أتذكر أنني قلت لك إن صدام يفضل نوعاً واحداً من السمك المطهو بطريقة محددة؟».

أجاب: «أجل. كان السمك المسقوف، أليس كذلك؟».

«ذاكرة حية»، قلت مازحاً قبل أن أنتقل إلى العمل». لنفترض أنك ديكتاتور اعتاد الحصول على ما يريد، فهل تعيش دون أن يخدمك أحد؟».

«ما الذي ترمي إليه؟». قالها كيلي وقد بدأ صبره ينفذ.

لقد حان وقت القطاف. «أخبرني مصلط محمد إبراهيم بأنه أعتاد مرافقة والده لصيد السمك، وقد توقفا عن ذلك، وهذه قصة أخرى. يحب محمد إبراهيم الصيد لدرجة أنه اشترى بركة مع محمد خضير وملأها بالسمك، وهما يملكان كوخاً صغيراً هناك، السمك يا كيلي، هل ترى ماذا أقصد؟».

- «تريد الإغارة على مزرعة أسماك؟».

- «هل يبدو ذلك بعيداً عن العقل؟».

فكر كيلي لحظة ثم قال: «ليست بأكثر جنونية مما قلت لي سابقاً، إنني سعيد لأننا وجدنا تلك النقود، هذا ما سيعطينا هدفاً لهذه الغارة».

سألته: «ما الذي حدث لكل تلك النقود؟».

- «سنسلمها إلى الشؤون المدنية. ومن المفترض أن تأتي الفرقة الرابعة لأخذها، وسيقوم بام بام بشرح كيفية الحصول عليها».

«لماذا؟».

قال كيلي: «لأنهم سينالون الفضل في ذلك. سيعقدون مؤتمراً صحفياً وقد يأخذون المراسلين الصحفيين إلى الموقع، سينالون المجد بينما نحن تحت المراقبة. هذه هي الطريقة المفضلة».

ضحكت «هذه هي الطريقة التي يحبونها، وعما قليل سيصدقون أنهم أنفسهم قد قاموا بالعمل».

«ليست غلطتهم. نحن طلبنا منهم أن يقوموا بذلك» وقف كيلي ثم قال: «هيا بنا. دعنا نرى إن كنا سنستطيع القيام بالإغارة على مزرعة الأسماك».

وجدنا بام بام يجلس مع بقية الفريق في غرفة الجلوس. وعندما بدأت أنا وكيلي نعطيه فكرة عما نفكر فيه، توقف الجميع عما كانوا يفعلونه وأخذوا ينصتون لما نقول. ساد المكان صمتاً مطبقاً. في تلك اللحظة، كنا جمعنا نفكر في الشيء نفسه: قد يكون هناك إطلاق نار عند الإغارة على صدام. لم يقل أي واحد شيئاً، لكنك كنت تشعر بذلك. وأعتقد أن بام بام أحسَّ بذلك أيضاً. ووافق على الإغارة على مزرعة الأسماك في تلك الليلة.

كنت آمل أن أذهب في هذه الغارة، وكنت متأكداً من أنها ستسفر عن اعتقال محمد إبراهيم. أردت أن أكون حاضراً في تلك المناسبة، وكانت من أصعب الدروس التي تعلمتها في الأشهر التي قضيتها في تكريت. في منزل مليء بأفضل الشخصيات كنت أنا الشاذ الوحيد الذي لا يستطيع مجاراة الرماة عند الالتحام، لذلك قرروا أن يأخذوا لؤي كدليل لهم. أخبرت أفراد القوة الضاربة بكل ما أعرفه عن الأهداف التي يسعون وراءها، وكان معظمهم قد قرأ قائمة العلاقات التي كنت قد وضعتها، وكان لديهم فكرة كاملة عن محمد إبراهيم وشبكته، وكانوا على استعداد لهم.

في الساعات التي سبقت الغارة، بقيت مع باسم وأمير ولؤي. لم يكن الاستجواب إيجابياً وإنما طريقة تجعل التواصل بيننا فعالاً. لقد ساعدني هؤلاء

الثلاثة أكثر من معظم السجناء الآخرين مجتمعين، وكان لدينا جميعنا اهتمام أصيل في تحقيق ذلك الآن.

انضم إلينا بعد ظهر ذلك اليوم جميع المترجمين الذين اعتمدت عليهم في الأسابيع الماضية: جيمي وسمير وجعفر الذين تعلموا كيف يعملون كآلة حسنة التزييت، يتبادلون الجلسات فيما بينهم أو يقومون بالعمل مع بعضهم للتأكد من أن الترجمة صحيحة. ومع سير أيام وأسابيع العمل المكثف، انتقلت من المنزل الرئيس إلى ركن في بيت الضيافة وكان المترجمون يقيمون هناك أيضاً، كي أتأكد من تواجد أحدهم في الليل أو النهار، لم يكن ذلك من متطلبات العمل، لكنني فكرت والوقت يمر في أنهم قد بدؤوا يدركون أن محمد إبراهيم كان شخصية رئيسة في قيادة التمرد الذي يمزق البلاد. وكانوا يريدون أن يكونوا جزءاً من مجهود إحضاره، وأدركوا أهميتهم بالنسبة للمهمة.

عند حلول الظلام، شممت رائحة شواء كان الفريق يقوم به في الفناء الأمامي، وكان الطبخ خارج المنزل جزءاً من الروتين. أخذت المترجمين الثلاثة معي لتناول العشاء، ووجدت نفسي أتمنى لو استطعت أن أحضر معي أيضاً الموقوفين الثلاثة، لكنهم كانوا ما يزالون سجناء. وبغض النظر عما كنت أكن لهم من حب، إلا أن كونهم سجناء كان أحد العوائق أمام إحضارهم.

بينما كنت جالساً أتناول طعامي جاء كيلي ليعيد سرد خطة تلك الليلة وأخبرني بأننا «سنغير على بيت محمد خضير، لكنهم سيرسلون فريقاً من بغداد للإغارة على مزرعة السمك». لم تكن هذه من الأخبار الجيدة التي سمعتها طوال اليوم لأن الرماة القادمين من بغداد لا يعرفون الوضع مثلما يعرفه أفراد فريقنا. وسألت: «لماذا نحتاج إلى رماة من بغداد؟ نستطيع الإغارة على كلا الموضعين». فسر كيلي الأمر قائلاً: «لقد جذبت النقود انتباه كبار الضباط في بغداد، وهم يريدون أن يشتركوا في اللعب الآن».

أردت الاسترسال في الكلام قائلاً: «لكن»... فقاطعني كيلي قائلاً: «اسمع يا إيريك. لا بأس في ذلك. فالقادمون جزء من فريقنا، وهكذا نستطيع الإغارة على

كلا الهدفين في الوقت نفسه، وليس علينا أن نشرك الفرقة الرابعة. من السهل إيجاد المكان ولن تكون هناك مشكلة».

سألته: «متى وقت الإغارة؟».

أجاب: «الساعة 01:00 ولسوف تقتضي الأهداف منا بعض الساعات. سامراء منطقة ملتهبة ويريد بام بام الدخول والخروج منها. سنغير على خضير، لكننا سننتظر بعض الوقت حتى يظهر أحد ما عند البركة قبل أن نقوم بالغارة».

سألته: «كيف تعرفون أن أحداً موجود هناك؟».

أجاب: «سنراقب المكان» كان كيلي يقصد توجيه أقمار صناعية عسكرية تركز على الإحداثيات المضبوطة لمزرعة السمك وترسل صوراً. لم يكن لدي وقت لأفكر بعجائب التكنولوجيا الحديثة، إذ انصب تفكيري كله على ما سيحصل. وهكذا كانت حالة كيلي الذي قال لي: «منذ أن وجدنا تلك النقود ونحن في أحسن حال، كانت نقود إرهاب، والكل يعرف ذلك. لكني كما أرى الأمور يا إيريك، فإن هذه قد تكون آخر ضربة لنا، ولا أدري إلى أين سنذهب بعدها». وافقته قائلاً: «وأنا أيضاً لا أدري أين سنذهب».

قال مازحاً: «ليس هناك أماكن أخرى ما زلت تخبئها في كمك؟».

كان يعرف كما أعرف أنا بأن المعلومات التي كنت أحصل عليها كانت معلومات جيدة جودة المصدر الذي يقدمها لي. وإذا فشلت غارتنا هذه الليلة، فإنني كنت أشك في أن أحصل على أفكار جيدة أخرى من هؤلاء الثلاثة الذين أحتجزهم في بيت الضيافة وأعتمد عليهم. وعليه فقد تكون آخر ضربة لنا.

★★★

توجه الفريق إلى سامراء عند قرابة منتصف الليل. راقبتهم يغادرون ثم توجهت إلى المنزل لأراقب مباراة كرة قدم أمريكية. كان شعوري جيد جداً. فنحن في طريقنا للقبض على محمد إبراهيم الذي كنت أشعر بثقة تامة من أنه سيقودنا إلى صدام حسين نفسه. ذهبت لأرى كيلي الذي كان في غرفة الاتصالات كالمعتاد،

وكان يفحص شاشات المراقبة الخاصة بمزرعة السمك. وسألني عندما دخلت»: «هل تريد أن تشاهد؟».

جلست بالقرب منه، وعلى الشاشة تغطية حية بالأشعة تحت الحمراء لمنطقة الهدف حول البركة والنهر المجاور. كانت واضحة بشكل يعطي فكرة جيدة عما يدور على الأرض. بعد أن شاهدت تلك المناظر الطبيعية لنحو عشرين دقيقة، كنا والفريق نرى الشيء نفسه في الوقت نفسه: شخصان يبرزان من الظلام. جلسنا متسمرين ونحن نراهما يتجهان إلى حافة الماء، يستقلان قارباً ويتجهان نحو البركة. لا بد أنهما محمد إبراهيم ومحمد خضير، تماماً في المكان الذي كان من المفترض أن يكونا فيه.

قام كيلي بمكالمة عاجلة إلى وولت زميله المحلل في بغداد، وأخبره: «إنهما في البركة، أستطيع أن أراهما الآن».

أجاب وولت: «لا أرى شيئاً. لن نتحرك حتى نتأكد من وجودهما».

اقسم كيلي على ذلك ثم أغلقه بعنف.

سألته: «ما الذي يجري؟».

قال: «يبدو أنهم يراقبون نظام مراقبة مختلف».

قلت: «وماذا في ذلك؟».

قال: «إذا لم يستطيعوا أن يروه على قناتهم فإنه ليس موجوداً» قلت وأنا أشير إلى الشاشة: «الهدف موجود. هناك قارب على متنه رجلان».

أجاب كيلي بتجهم: «أنت تراه وأنا أراه. لكن إذا لم يروه، فلن يقوموا بالغارة».

قلت له: «انظر يا كيلي»، كنت أتحدث بأسى وبسرعة محاولاً أن أجعله يفكر بطريقة ما وبأي وسيلة يمكنها أن تحقق الغارة، «هؤلاء الرجال يعرفون بأننا نقوم بالغارات بعد منتصف الليل، ويمكنهم البقاء في منازلهم حتى ذاك الوقت، وبعدها يلجؤون إلى مكان يختبئون فيه. ألا ترى؟ إنهما يختبئان في النهر، يصطادان لبضع ساعات إلى أن يحسوا بالأمان عند عودتهم. معظم غاراتنا جرت بعد الثالثة صباحاً ويمكنك أن تصطاد الكثير من السمك لعمل الكثير من السمك المسقوف».

حتى وأنا أتكلم محاولاً أن أقنع نفسي واقنع كيلي، جاءت التقارير من بام بام. كانت الإغارة على بيت محمد خضير فشلاً ذريعاً. لم يكن هناك أي ذكر راشد في المكان. والعديد من النساء اللواتي تواجدن هناك كن زوجات وأرامل قادة التمرد بما فيهن زوجة سلوان وصباح وأبي سفيان، ولم يكن ذاك مفيد لنا. ولم نرد أن نحدث ضجة عالمية بإحضار النساء للاستجواب. كان الوقت ينفذ، وتعين علي التفكير في شيء ما. قلت وأنا في قمة اليأس: كيلي، دعنا نجعل بام بام يقوم بالغارة على مزرعة السمك الآن».

هز رأسه وقال وهو ينظر إلى ساعته: «ليس أمامهم وقت الليلة. إنها قرابة الثالثة صباحاً، وعلينا أن ننتظر بام بام حتى يعود وعندها نتكلم معه في هذا الأمر».

«لكنهما سيكونان قد غادرا» قلت له وأنا أنظر إلى صور الصيادين حتى عندما قلت ذلك، كنت أدرك أن الأمر ميئوس منه. فلم يكن باستطاعة كيلي أن يفعل شيئاً. فقد قالها بام بام صراحة إن جميع العمليات في مكان خطر كسامراء يجب أن تجري تحت جنح الليل. وآخر شيء كان يريده أي واحد منا هو مقديشو ثانية.

مرة أخرى بدا أن محمد إبراهيم قد نجا. وكل ما علي أن أثبت أنه موجود هو أثر حراري ضعيف على شاشة الكمبيوتر. وحيث إنني كنت منهكاً وأنا أجلس إلى طاولة غرفة الطعام فكرت في أنني لم أكن بهذا الإنهاك قط.

الفصل الخامس عشر

نفـــاذ الوقـــت

04:45

2003/ 10/ 7

كـان بـام بـام واضحاً جداً، فهو لن يعود إلى مزرعة السمك في تلك الليلة. وكنت أعرف أن هناك مخاطرة كبيرة في نجاح المهمة. لكنه كان قائداً جيداً بحيث إنه لم يسمح لعاطفته بأن تجرفه بعيداً.

هذا لا يعني أنني لم أبذل جهدي في الحديث معه عن ذلك. قلت له بتوسل: «المحمدان في مزرعة السمك وأنا متأكد من ذلك مئة بالمئة». نظر إلي كيلي نظرة حنق. وكنا جميعنا نتذكر ما حصل في المرة الماضية التي قمت فيها بتأكيد واثق بناءً على نسب مئوية. لكن كيلي وافقني هذه المرة وقال: «ما زال أمامنا بضع ساعات حتى ينبلج الصبح، وإذا ذهبنا الآن فبإمكاننا الدخول والخروج قبل الصباح. نستطيع أن نلقي القبض على من يتواجد هناك ثم نعود».

أجاب بام بام بهدوء: «نستطيع أن نذهب غداً، فليس لدينا تعزيز أو مساندة من بغداد، فقد وافقوا على القيام بهذه الغارة ولا نستطيع أن نتجاهلهم».

عرفت أنا وكيلي ما يكفي لأن يجعلنا نتراجع، لكني كنت أشعر أن ما عملنا له لمدة طويلة بكل جهد قد بدا يتراجع، ولم نستطع أن نترك ذلك يحدث، فقلت: «ما إن بدأنا نتعقب محمد إبراهيم في تكريت وجدنا أنه قد

ذهب إلى سامراء، والآن بما أننا قد أغرنا على بيت محمد خضير فقد علم أننا نتعقبه. ومن المؤكد أنه قد هرب إلى مكان آخر، ولسنا قادرين في هذه المرة أن نعرف أين ذهب، وقد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يتواجد فيها في هذه المنطقة».

لم يتزحزح بام بام عن موقفه وقال: «أولاً، لسنا متأكدين من وجوده عند البركة، وثانياً، إذا كان هو الموجود هناك، فمن الواضح أنه يشعر بالأمان، وإذا كان هو الموجود هناك، من المحتمل أن يرجع إلى المكان، لذا سنقوم بالغارة غداً».

التقط ملابسه وعدته، وقبل أن يصعد إلى الطابق الثاني، التفت نحوي وسأل: «كيف فعل فريق سونرز الليلة».؟ إما أنه لا يعرف أنهم هزموا أو أنها طريقته في إرسال رسالة لي، وكنت في صباح ذلك اليوم متأكداً من أنهم سيهزمون فريق ولاية تكساس، لكن ذلك لم يحدث، ربما أكون لا أعرف ما أتحدث عنه، وقد أكون مخطئاً حول القيام بالغارة.

كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الصور الظلية على شاشة الكمبيوتر. إذا أسعفنا الحظ ووجدنا محمد إبراهيم في مزرعة السمك ثانية، فإنني سأواجه تحدياً في جعله يتكلم. ففي هذه الأسابيع الماضية كنا جميعنا نعلق الآمال على اعتقال هذا الرجل. والشيء الوحيد الثمين الذي يمكننا أن نستخلصه منه هو مكان اختباء صدام حسين.

بعد تعاملي مع الكثيرين من المحيطين بمحمد إبراهيم، عرفت الولاء المطلق الذي يدينون له به. أبو إدريس وتامر العاصي وفارس ياسين كانوا رجالاً صعبين ليس من الممكن كسر إرادة أحدهم، فما الذي سأواجهه عندما أرى نفسي أستجوب قائدهم؟ هل أستطيع أن أجعله يعترف بأنه إرهابي، وأنه يأخذ أوامره من صدام حسين؟ لقد كنت أتحرق شوقاً للعثور على محمد إبراهيم. وفي ساعات الصباح الباكر، وأنا أتقلب في سريري، ذكرت نفسي بأن أكون حذراً فيما أتمناه.



حدثت الغارة الثانية على مزرعة السمك في الساعة 02:00 من اليوم التالي.. وبدا، منذ البداية، أننا سنحصل على مدة راحة. ظهر الرجلان على شاشة جهاز المراقبة واستقلا قاربهما. في هذا الوقت، كان فريق المراقبة في بغداد يراهما على الشاشة أيضاً. قاومت أنا وكيلي إغراء الذهاب إلى اللاسلكي لإبلاغهم بأنني قد قلت لهم سابقاً إن الرجلين في المزرعة.

بعهد نصف ساعة، رجع الرجلان بقاربهما إلى الشاطئ باتجاه الكوخ مع ما اصطادوه، كان الأمر سهلاً جداً، فليس أمامهما مكان يذهبان إليه أو يهربان منه. لقد حاصرناهما. وفي الوقت الذي كنت فيه وكيلي نراقب الشاشة، هرع الرماة واتخذوا أماكن آمنة لهم. دبت الحياة في اللاسلكي. لقد اعتقلنا رجلين تبادلت النظرات مع كيلي، وكانت التهاني واجبة - تقريباً.

بعد قرابة عشرين دقيقة سادها التوتر، جاءت رسالة أخرى. غارة فاشلة. لقد أتوا ببعض الموقوفين، لكن لم يكن بينهم من نطاردهم ونسعى وراءهم.

مستحيل! فكرت وأنا أغوص في مقعدي. كان كيلي يحدق في الكمبيوتر وعلا محياه الذهول. هل هذه خاتمة لنوع من المزاح الثقيل؟ لقد حصلت على كل المصادر المتاحة لإنهاء هذه المهمة. فالرجال الذين أفخر بالعمل معهم كانوا من أفضل الجنود في العالم وكان يقودهم قائد جريء شجاع. ولدينا أفضل محلل وفريق من المترجمين المخلصين وثلاثة سجناء عملوا معنا بلا كلل، ومع ذلك فإننا لم نستطع القبض على هذا الرجل.

هل تواجد في أي مرة في مزرعة السمك؟

هل هو موجود في مكان ما؟

هل له وجود؟

شعرت وكأنني سأفقد عقلي، لكن كان عليَّ أن ألملم أطراف نفسي فاستدرت نحو كيلي وسألته: «ما الذي تريدني أن أفعله الآن؟».

استمر في التحديق في الشاشة، وقال في صوت يشبه الهمس: «أردت أن أنتظر لأخبرك هذا. لقد اتصلت بغداد في وقت مبكر وقالوا إن عليك أن تستقل الرحلة التالية للعودة. كان باستطاعتي أن أبقيك هنا لو وجدنا محمد إبراهيم، لكن ذلك لم يحدث، ستعود إلى الوطن، هناك هيلكوبتر ستطير في الساعة 21:00 من مساء الاثنين، ويفترض أن تكون على متنها». نظر إلى ساعته ثم قال: «سيأخذونك في الساعة 17:00 يا إيريك».

هكذا هو الحال إذن. لقد انتهى وجودي في تكريت رسمياً. أحسست بالخدر يسري في بدني. فقد حلت أسوأ توقعاتي. سأغادر دون إكمال مهمتي. لقد استجوبت مئات السجناء وقابلت العشرات من المخبرين وأجهدت عقلي كي أفتح شبكة العصاة التي كانت تعبث فساداً في البلاد وعملت لساعات غير محدودة لتكون النتيجة لا شيء. بعد 17 ساعة سأغادر ولن يشكل ذلك أي فرق.

حان موعد العودة إلى بيت الضيافة لأبدأ بحزم أمتعتي. وقفت، ثم سألني كيلي وأنا أتوجه إلى الباب: «هل هناك شيء جديد آخر نبحث عنه؟».

أجبت بصوت أجوف: «ليس لدي أي شيء الآن، أنا آسف».

بذل كيلي كل جهده لرفع معنوياتي ثم قال: «سأطلب منهم أن يرسلوا صور رجلي مزرعة السمك، ومن الممكن يكون من الأفضل أن يلقي باسم والشابين نظرة عليها. من يدري... قد يكون أحدهما أحد المحمدين دون أن نعرف ذلك».

شككت في ذلك. فالرماة كانوا يعرفون أهدافنا. وتأكدت شكوكي عندما أحضروا الصور واريتها لباسم و أمير و لؤي، لكن لم يتعرف أي منهم على الرجلين المعتقلين من مزرعة السمك.

لم أستطع تحمل الموقف، فنفثت إحباطي على السجناء الثلاثة مركزاً على باسم: «انظر ثانية إلى الصور اللعينة. هل تظن أن هذين الشخصين قد قررا أن يظهرا ويصطادا على مدى ليلتين؟ من هما؟

نظروا إلى الصور ثم إلي، وعلى وجه كل منهم تعبير الإحباط. أعتقد أنهم كانوا مضطربين ومحبطين مثلي، أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن أهدئ نفسي. ما هي خطواتي التالية؟

من الواضح أنني كنت بحاجة إلى أن أتكلم مع الموقوفين من مزرعة السمك. وكانت المشكلة الوحيدة عدم استطاعتي الوصول إليهما. ومنذ أن وجدنا، النقود، فإن اهتمام واشتراك القيادة في بغداد قد عطل السير المرن لنظام التحقيق الذي بدأته. فقد تم أخذ السجينين إلى سجن بغداد لاستجوابهما هناك.

تحدثت مع صديقي القديم لي الذي كان متمركزاً في مطار بغداد. وكنت لم أره منذ أن ركبت الطائرة العمودية متوجهاً إلى تكريت. وطلبت منه على خط هاتفي عسكري آمن أن يدقق في هوية الرجلين وأن يخبرني من هما وماذا كان يعملان في بركة السمك.

خابرني بعد عدة ساعات قائلاً إنهما صيادان عاديان.

سألته: «هل استجوبتهما أنت بنفسك يا لي؟».

أجاب: «لا. لم أعد مسؤولاً عن الاستجواب. ويعين المحققون كيفما اتفق. لكني تحدث إلى المحقق الذي استجوبهما، وهو على يقين من أنهما اثنان من المواطنين، وبما أن المكان مزدحم بالسجناء، فليس لدينا وقت أو مكان نضيعه، وهم يريدون أن يطلقوا سراحهما في أقرب وقت. توسلت إليه قائلاً: لي، سأحضر إلى بغداد الليلة. هل تستطيع أن تحجزهما حتى ذلك الوقت؟ إنني فعلاً بحاجة إلى أن أتكلم مع هذين الشخصين».

أحس لي بالتوتر في صوتي وأجاب: «سأبذل ما بوسعي. لكن إذا كان لديك شيء ضدهما فأخبرني به لأن هذا يسهل أمر الاحتفاظ بهما لمدة من الزمن».

قلت له: «لا شيء لدي ضدهما. كان من المفترض أن يكونا هدفين مختلفين، محمد إبراهيم ومحمد خضير».

ساد الصمت على الطرف الآخر من الخط ثم سمعت لي يقول: «لم أسمع بهما قط، وظني ألا أحد هنا قد سمع بهما من قبل. من هما؟».

قلت: «إنها قصة طويلة، لكني أريدك أن تتأكد من الاحتفاظ بهذين الصيادين أطول وقت ممكن. سأكون مسؤولاً عنهما حالما أصل عندكم».

- «اعتبر ذلك قد حصل يا أخي».

أغلقت الخط، وكانت مكالمتي مع لي قد أوحت لي بفكرة. إذا كانت القيادة في بغداد لن تدعني أبقى في تكريت، فربما آخذ تكريت معي إلى بغداد. وذهبت لمقابلة كيلي.

عندما جلسنا إلى طاولة غرفة الطعام قلت لكيلي: «انظر. علي المغادرة هذه الليلة، وستبقى لوحدك مع جميع هؤلاء السجناء الذين اعتقلناهم في الأسابيع الأخيرة الماضية. لماذا لا آخذهم معي إلى بغداد؟ سأكون هناك لبضعة أيام، وربما أستطيع أن أستخلص شيئاً من هذين الصيادين»، وما لم أقله هو أنني أردت أن يكون باسم وآخرون معي عندما أتحدث إلى الصيادين. وبعد أن فهمت قيمة مجابهة أسير بآخر، فلم أكن أريد أن أفقد ذلك.

- «من هم الذين تريدهم؟». سأل كيلي.

- «باسم» أجبت على الفور.

- «ماذا عن أمير، ابن تامر العاصي؟».

أجبته: «لا. أعتقد أننا يجب أن نطلق سراح هذا الشاب. إنه يحاول أن يبقى حياً، فدعنا نعطيه فرصة».

«ولؤي؟».

فكرت لحظة ثم قلت له: «لقد كان يجلس في جميع اللقاءات التي عقدها محمد إبراهيم، وقد وجدناه في البيت مع كل تلك النقود، قد يكون ما يزال لديه شيء آخر يخبرنا به، كما أنه لديه دافع عال. ومن المفترض أن تتكسر إرادته بعد يومين».

أجاب كيلي: «بما أنك تتحدث عن الأمر، ما رأيك في أن تأخذ أبا إدريس وتامر العاصي؟ نستطيع أن نجد فراغاً أكثر في السجن لدينا.»

هززت كتفي وقلت: «سآخذهم جميعاً يا كيلي».

قال: «إذن سأحصل لك على الموافقة اللازمة». ساد صمت طويل، وكنا كلانا نعرف أن هذا هو نهاية علاقتنا العملية. لقد مررنا بمواقف غير مؤكدة ولا واعدة وبواسطتها أصبحنا فريقاً. لقد طلبت منه أن يقوم ببعض المجازفات وناصرني في ذلك. أنجزنا الكثير، لكننا لم ننه العمل. وكان ذلك أمراً كنا نشترك به نحن الاثنان عندما جلسنا لآخر مرة إلى طاولة غرفة الطعام حيث قضينا الكثير من الساعات مع بعضنا.

اقتربت منه وضربته على قفاه وأنا أقول: «لقد كان العمل معك أمراً عظيماً يا كيلي».

كان الليل يسدل أستاره عندما وقفت عند منصة انطلاق طائرة الهليكوبتر ومعي العديد من السجناء الذين ينتظرون الذهاب إلى بغداد. لقد كان منظراً غريباً، شخص بقميص أزرق باهت وحقيبة يرافق سجناء يتراوحون بين مراهق وشيخ. لقد بدا المنظر وكأنني أجلب تذكارات معي من إقامتي في تكريت.

ودعت الرماة، وإذا كانوا يأسفون لمغادرتي. فلم يظهروا ذلك. كانوا محترفين بارعين تدربوا على عدم إظهار عاطفتهم. وأنا واثق من أنهم أحبوني واحترموا العمل الذي قمت به. أما بالنسبة لهم، فقد كانت تكريت واحدة من مهمات الحرب التي تقرب الناس من بعضهم وتفرقهم دون اعتبار للصداقة. فهم لم يتقربوا إلى أحد سوى أنفسهم وقد احترمت فيهم ذلك، وكنت شاكراً لأنهم تركوني أكون واحداً منهم لمدة من الزمن.

بينما كنت أنتظر لأركب، برز شخص من الظلام لتوديعي. لقد كان بام بام الذي قال: «إننا ننقلهم مقابل نقودهم، لقد كنا على وشك الانتهاء من هذه العملية. لقد عملت بجد فلا تظن أننا لا نقدر لك ذلك».

صافحته وأنا أقول: «أشكرك يا بام بام». وضاع كل شيء آخر قلناه وسط ضجيج الطائرة التي كانت تهبط. صعدت إلى الطائرة العمودية أنا وحمولتي

الفصل السادس عشر

العـــودة إلى بغـــداد

22:12

2003/12/8

وصلنا إلى مطار بغداد بعد الساعة 22:00 من ليل الاثنين 8 كانون الأول. كان لي ينتظر على المدرج ومعه شاحنة. ومنذ اللحظة التي رأى فيها كل منا الآخر بدأنا بالحديث حيث توقفنا قبل خمسة أشهر. كان لي صديقي الحميم، ومع أننا كنا سعداء لأننا نرى بعضنا، إلا أنه لم تكن هناك حاجة لأن نعبر عن شعورنا بالكلمات.

رفع حاجبيه باستغراب وهو ينظر إلى زمرة السجناء وقال مازحاً: «هل أنت متعلق جداً بمساجينك بحيث لم تستطع أن تخلفهم وراءك؟». ضحكت، لكن عقلي كان يفكر بشيء آخر وسألته: «هل ما زلت تحتفظ بالصيادين؟». أومأ برأسه وقال: «إنهم بانتظارك، والمحققون الذين استجوبوهم حصلوا على أسماء أشخاص آخرين للتعامل معهم، إنهم لك».

«هل أستطيع الحصول على مترجم؟».

قال: «استعمل مترجمي، إنه الأفضل».

بعد أن سلمت المساجين من أجل التسجيل، قدمني لي إلى المحققين الآخرين. كانت العملية برمتها مختلفة تماماً عما هو الحال في تكريت. كان هناك ستة محققين يعملون بموجب جدول صارم في بناء تم تعديله لهذا الغرض. كانوا على وشك عقد اجتماع يسمونه تغيير النوبة ودعوني لحضوره. بعد خمسة شهور من العمل

بمفردي، كان من الصعب علي أن أجلس إلى طاولة حيث يقوم كل محقق بالإبلاغ عما فعله في الاثنتي عشرة ساعة الماضية. بدا الأمر لي وكأنه ضياع الوقت، لكني احتفظت برأيي لنفسي.

شرح أحد المحققين كيف أنه قضى الثلاثة أيام الماضية وهو يحاول أن يجعل سجيناً يوقع اعترافاته الخطية. كان مقتنعاً بأن الاعتراف يعني أن موضوعه قد انهار. فكرت في تجربتي السابقة، فلو اعتمدت على الاعترافات الموقعة لكنت أجلس مع كومة من الأوراق من دون معلومات يمكن العمل عليها. وأنت تعرف أن السجين قد انهار عندما يخبرك بشيء يمكنك أن تستعمله وتبني عليه.

عندها فقط قدرت بالفعل كم كانت تجربتي في تكريت قيمة. لم أكن أضيع وقتاً كثيراً في العمل الورقي سواء كانت اعترافات موقعة من الموقوفين أو تقارير عادية تتعلق بالتحقيقات التي قمت بها. لم أكن بحاجة إلى أخذ موافقة على من أستجوب أو كيف أقوم بالمهمة. ومع ذلك، فإنني قط لم أستعمل العنف أو الوسائل اللاأخلاقية. لم أكن بحاجة إلى ذلك، فقد طورت أساليبي التي أسفرت عن نتائج حقيقية.

لم تسنح لي الفرصة حتى الساعة 01:00 تلك الليلة عندما بدأت استجواب الصيادين المحتجزين. وبقدر ما كنت تواقاً للتحدث إليهما، إلا أنني لم أكن واثقاً من أنهما سيدليان بمعلومات قيمة. ولو قاما بذلك، فإنه لن يكون لدي وقت لأتابع ما سيحصل لأنني سأتوجه إلى الولايات المتحدة.

حتى هذا الوقت، كنت قد اعتدت أن أتمسك بقشة. استجوبتهما كلاً على حدة واستطعت الحصول على بعض المعلومات القيمة.

ادعى السجين الأول الذي اعتقلناه عند البركة أنه يملك مزرعة السمك. كنت أعلم أن ذلك ليس صحيحاً لأنني كنت أعرف أن محمد إبراهيم ومحمد خضير هما من يملكان سند الملكية، لماذا كان هذا الشخص يكذب؟ كان بإمكانه أن يقول إنه وصاحبه كانا ببساطة في المكان الخطأ في الزمن الخطأ يصطادان عشاءهما في الليل. أما أن يصر أنه بالفعل يملك المكان فقد جعله ذلك يقع في المصيدة.

كان تحركي التالي هو إخراج الصياد من الغرفة. بعد خروجه استدعيت باسم وجعلته يجلس في زاوية خلفية. وعندما أعدت السجين لاستكمال التحقيق حرصت على أن يجلس في مقابلتي. بقي وجه باسم في الظلام، فقد أردته أن يسمع قصة الصياد ويعطيني رأيه.

جعلت السجين يردد كل شيء قاله لي ثم أجمل علاقاته الأسرية ومعلومات خلفية أخرى. بعد نحو ساعة، تم إخراجه من الغرفة.

عندما أصبحنا وحدنا قال باسم: «المعروف إن هذا الرجل هو أفضل من يعد السمك المسقوف. لقد أكلت من إعداده سابقاً. وكان محمد إبراهيم كثيراً ما يجعله يطبخ لأصدقائه».

وهكذا فإن هذا السجين يعرف محمد إبراهيم، وقد بدا أنه يحاول إخفاء هذه المعلومات عني بادعائه أنه يدير مزرعة السمك بدلاً من الاعتراف على من يملك المزرعة مثلاً. وما كنت بحاجة إلى معرفته الآن هو طبيعة العلاقة بين السجين والرجل الذي مضى علي وقت طويل وأنا أطارده (محمد إبراهيم).

جلبت الصياد الثاني، وبقي باسم في الظل. حمدت نفسي لأنني قد أحضرته معي إلى بغداد، فقد أثبت باسم أنه قيم بالكثير من الطرق.

منذ بداية استجوابي له، كان من الواضح أن الصياد الثاني ليس لديه الكثير الذي يقدمه. وأشار لي باسم على الفور أنه لا يعرف هذا الشخص، لكني تعلمت من تكريت إن من لا علاقة لهم يمكن أن يكشفوا عن الكثير إذا سألتهم الأسئلة الصحيحة.

سألته: «منذ متى وأنت تصطاد مع صديقك؟».

أجاب بسرعة: «منذ قرابة الشهر، فنحن نصطاد معاً في الكثير من الليالي».

- «كيف قابلته؟».

- «عن طريق أخي. قال إن هذا الرجل يفتش عن شخص يعمل لديه، وكنت بحاجة إلى العمل».

- «ماذا كان عملك؟».

- «الصيد».

- «هل رب عملك يملك مزرعة السمك؟».

- «لا أعرف». صدقته، إذ كان يتصرف كما لو أنه لا يخفي شيئاً، ثم قال «أظن أنها أعطيت له».

- «من أعطاه إياها؟».

- «مات ابن عمه في الشهر الماضي وأعتقد إن أسرته أعطته إياها. لكني لست واثقاً من ذلك يا سيد. أنا فقط أعمل لدى هذا الرجل وأقسم أنني لم أقم بأي عمل خطأ».

أمرته أن يسكت وقلت له إنني سأجعله يعرف إذا كان قد ارتكب خطأ. كنت أفكر ولم أرد أن تتقطع أفكاري. من الذي مات مؤخراً؟ رادمان إبراهيم المصلط، شقيق محمد إبراهيم مات من ذبحة قلبية وهو في الاعتقال في بداية شهر نوفمبر /تشرين الثاني. لكني كنت أعرف كامل أسرة المصلط ولم يكن هذا الشخص فيها. من هو؟ أبو سفيان، قائد التمرد في سامراء وشقيق محمد خضير قتلته قوات الائتلاف قبل شهر. هل من الممكن أن يكون الصياد الأول قريباً لمحمد خضير؟

أخرجت الصياد الثاني من الغرفة ثم طلبت رأي باسم فيما أفكر به، فقال إن ذلك قد يكون ممكناً.

كان ذلك ما أردت سماعه. أحضرت الصياد الأول الذي شككت بقرابته لمحمد خضير.

بدأت توجيه الأسئلة إليه واضعاً نصب عيني إثبات نظريتي بقرابته، وكان هدفي أن أجعله يعترف بعلاقته بكل من محمد إبراهيم ومحمد خضير.

سألته: «كم عشت في سامراء؟».

- «طوال حياتي».

- «منذ متى وأنت تملك المزرعة؟».

- «منذ شهر فقط».

- «كيف حصلت عليها؟».

- «أعطتني إياها أسرة والدتي».

- «من أعطاك إياها؟».

- «شقيق والدتي. خالي. لقد مات».

حدقت فيه وقلت: «إذا كان قد مات، فكيف أعطاك مزرعة السمك؟».

تلعثم قائلاً: «ابنه. ابن خالي، لقد مات هو أيضاً.

كنت على وشك أن أضحك هل يسمع هذا الشخص الأموات؟ وصرخت فيه «أريد اسم شخص حي، من أعطاك المزرعة؟».

بدأ يرتجف، وأخيراً قال: «ابن خالي، له شريك تجاري وهو أعطاني المزرعة».

«ما اسم ابن خالك الذي ما يزال حياً؟».

«محمد» قالها بصوت خافت أشبه بالهمس.

«محمد ماذا؟». ألححت عليه.

«محمد خضير».

إننا الآن نصل إلى شيء ما، انحنيت أمام الصياد المضطرب حتى قاربت أن ألامس وجهه. خفضت من صوتي حتى إنه بالكاد يسمعه وقلت له: «أريدك أن تنظر إلي وتستمع بانتباه هل تعرف لماذا أنت هنا؟».

أجاب: «لا... أنا لم أفعل شيئاً».

هززت رأسي وقلت له: «لقد فعلت شيئاً ما. لقد تورطت مع بعض الرجال السيئين. هل تعرف من هؤلاء الرجال؟».

أجاب «لا» ولم يستطع أن ينظر في عيني.

إنهما قريبك محمد خضير وشريكه التجاري. هل تعرف اسم شريكه التجاري، الرجل الذي أعطاك مزرعة السمك؟». أردته أن يقول الاسم أولاً. أخبرته أنني اعرف إنه محمد إبراهيم. قد ينكر ذلك أو يدعي أنه لم يسمع قط بهذا الاسم، وعليه سألاحق الأشباح ثانية. لقد كان الموقف يتطلب أن يأتي الاسم منه مباشرة.

قال: «لا... لا أعرف اسمه».

كان هناك طرق على البابا. ظهر لي على الباب وطلب مني الخروج. أرسلت السجناء إلى زنزاناتهم وانضممت إلى لي في القاعة. كان معه شخص قدمه لي على أنه وولت، وهو محلل وزميل لكيلي في بغداد. لم أكن قد قابلته سابقاً لكني كنت أسمع باسمه. لقد كان هو الشخص الذي لم يستطع نظام التعقب التابع له أن

يرى القارب في البركة عندما قمنا بالإغارة على مزرعة السمك. لم يعد هذا يهم الآن، فالهدفان اللذان كنت أصر أنهما المحمدان كانا صيادين. لكني كنت ما أزال في غنى عن وولت. فقد مثل لي عقبة أخرى أمام إتمام مهمتي، وأنا واثق من أن الشعور كان متبادلاً.

لكن شعوري تبدل بسرعة عندما سألني ونحن نتصافح: «هل ما زلت تحقق مع الصيادين؟». أجبته قائلاً إن «أحدهما هو قريب محمد خضير وهو أكثر من مجرد صياد». كنت تواقاً لأعرف فيما إذا كان الاسم يعني له شيئاً. حصل ذلك، ثم سأل: «هل تمانع في حضوري للتحقيق؟». لقد كان مهتماً لمعرفة إلى أين سيؤدي بنا ذلك.

قال: «كان كيلي يبلغني بما يجري، وأنا أعرف أنك تسعى وراء محمد إبراهيم وأنا أتفهم السبب. إنني أعتقد أنه وراء كامل التمرد».

ارتفع تقديري لوولت وقلت له: «أنا سعيد لأنك تفكر بهذا الشكل، ولدي شعور بأنه لا أحد هنا قد سمع به من قبل».

شرح وولت قائلاً: «إن كيلي يرسل كل شيء لي مباشرة، وأنا على اطلاع دائم على كل ما فعلته في تكريت».

قلت له: «من المفترض أن أغادر هذا المكان في غضون أيام، لكني واثق من أنني سأحصل على شيء من هذين الصيادين، لا سيما من قريب محمد خضير». نظرت إلى عينيه، ولم يعد لدي ما أخسره ثم قلت له «إذا حصلت على هدف، هل ستدفع باتجاه القيام بالإغارة عليه؟». تبسم وولت وأجاب: «كل ما أستطيع فعله هو القيام بتوصية إلى القائد، لكنه دوماً يفعل ما أقترحه عليه، وقد أخبرني كيلي بأنه إذا كان بمقدور أحد أن يستخلص شيئاً من هذين الصيادين، فهو أنت لذلك تجدني هنا أمامك».

قلت: «دعنا نبدأ العمل».

بالإضافة إلى معرفته بالعمل الذي كنا نقوم به في تكريت ودعمه له، أثبت وولت قيمته بطريقة أخرى. لقد كان محققاً جيداً جداً، وحالما جلبنا قريب محمد خضير للاستجواب، بدأنا التحقيق معه نحن الاثنان بسرعة وغضب. لقد بدا الأمر كما لو أن وولت فهم ضرورة وأهمية شعوري في الساعات الأخيرة لي في العراق

وكيف أنه يجب الحصول على معلومات قيمة قبل مغادرتي. ومن حجم وسرعة أسئلتنا للصياد أوضحنا له أننا كنا مصممين على الحصول على الإجابات التي نسعى إليها. وعندما كان أحدنا يبطئ. كان الآخر يشن هجومه بالأسئلة حتى لكان السجين لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه.

مضت ثلاث ساعات قبل أن تبدأ قصته بالانهيار. أصر في البداية على أن محمد خضير لم يكن إلا قريب بعيد له وأنه ليس لديه فكرة عن شريكه التجاري. امتنعت عن ذكر محمد إبراهيم لأني أردته هو أن يذكر الاسم.

كان الوقت يفلت مني، وفي النهاية وجدت نفسي مضطراً لأن أذكر له اسم الرجل الذي كنا نبحث عنه بيأس ولا أمل. وصرخت فيه: «شريك قريبك هو محمد إبراهيم، أنت تعرف ذلك وأنا أعرف ذلك، وهناك شيء آخر أنا أعرفه. ستمضي بقية حياتك في السجن لأنك ساعدت وحرضت إرهابياً مشهوراً. لقد حاولنا أن نساعدك لكنك لا تريد مساعدتنا، وقد فات الوقت الآن.

أدى هذا الكلام الغرض منه وبدأ الصياد يتكلم. وحالما بدأ الكلام، كان من الصعب إيقافه. قال: «أجل أيها السيد. لقد تذكرت الآن. إنه محمد إبراهيم ومنذ أن مات أبو سفيان، شقيق محمد خضير، والرجلان دوماً معاً.

سأله وولت: «هل يذهبان إلى مزرعة السمك؟».

- «كل يوم تقريباً، لكنهما لا يمكثان هناك».

سألته: «أين يقيمان؟».

- «في منزل قريبي أو في منزل محمد إبراهيم المستأجر في سامراء». لقد أغرنا على هذين المنزلين من قبل، وكانت غارات فاشلة، ثم سألته: «في أي مكان آخر؟».

تردد قائلاً: «لا أعرف، فقد غادرا سامراء».

سأله وولت: «متى؟».

أجاب الصياد: «قبل أربعة أيام، وكانت تلك آخر مرة أراهما فيها».

ألححت: «أين ذهبا؟».

أجاب السجين: «إنهما دوماً مع بعضهما».

صرخت: «أنا لم أسألك عن ذلك. لقد سألتك أين ذهبا»

نقل نظره بين وولت وبيني. لقد كنت تستطيع أن تسمع تصارع الأفكار في رأسه. لقد وصل إلى النهاية التي لا بد منها. لم يكن أمامه طريق الآن إلا طريقنا. وبدأ كلامه قائلاً: «أقسم إنني لا أعرف». أخذ نفساً عميقاً وتابع» لكن قريبي وأنا لنا خال في بغداد. ربما يكونان هناك».

سأله وولت: «أين منزل خالك؟».

أعطانا الصياد موقع المنزل. لقد أصبح الآن متعاوناً تماماً. كان النموذج التقليدي للسجين المنهار ينتقل من المراوغة إلى التحدي ثم إلى أن يكون جاهزاً ومتلهفاً لأن يساعد. لم يمانع عندما أخبرناه بأنه سيذهب معنا كي يدلنا على موقع بيت خاله.

بعد أن أرسلناه إلى زنزانته، تحادثت أنا ووولت وقلت له:

«أعتقد أن بيت خاله هو هدف جيد للإغارة عليه».

سأل وولت: «هل تظن حقاً إنهما هناك؟».

بعد كل ما جرى في الثماني والأربعين ساعة الماضية، كان آخر شيء أردته هو القيام بغارة فاشلة. قلت لوولت: «لا أدري، لكن الأمر يستحق المحاولة». أما ما لم أقله فهو إن من المحتمل أن تكون آخر غارة، على الأقل تحت إشرافي.

أومأ وولت برأسه وقال «سأبلغ القائد وأنا واثق تماماً من أنه سيقوم بذلك، فهو عدواني عند اللزوم».

سكت وأنا أنتقي كلماتي التالية بعناية ثم قلت له بإخلاص: «أشكرك يا وولت، لطالما افترضت أنك... شيطان».

ضحك ثم أجاب: «الأمر نفسه هنا. لقد افترضت دوماً أنك كنت تحاول أن تجذب كيلي إلى صفك وتعيب علينا عملنا فيما يخص تكريت».

أردت أن أقول له إن السبب في ذلك هو أن استخباراته في تكريت كانت مخطئة، وأنا الآن بحاجة إلى مساعدته، فما سيجري في الخارج سيحدث من دوني. لقد أردت شخصاً ما لأنهي العمل.



حسبما أسفرت عنه الأحداث، تبين أن الاستفادة مني لم تنته. ففي وقت متأخر من ذاك المساء وأنا أقلب أحداث جلستي المستفيضة مع الصياد، طلب لي مني أن أذهب معه إلى مدرج الطيران. فقد أسفرت غارة حديثة عن إلقاء القبض على بعض المحتجزين وأرادني أن أساعده في تسجيلهم لإدخالهم السجن.

ونحن نقف على المدرج بانتظار هبوط الطائرات العمودية، اقترب منا عقيد قدمني لي إليه قائلاً: «الرقيب مادوكس، هذا هو العقيد ووكر. كان ووكر ضابط الاستخبارات الأول لكامل القوة الضارية. وكانت رتبته أعلى من أي مسؤول استخبارات أو تحليل أو تحقيق في القوة العاملة. نظرياً، كان العقيد ووكر على معرفة بكل عمليات جمع المعلومات التي كانت القوة العاملة تقوم بها. لكن الأمر لم يكن يجري على ذلك النسق، فقد علمت من تجربتي المباشرة أن المعلومات الاستخبارية التي جمعت في تكريت كانت تبقى في تكريت، وكان الهدف هو جعل اتخاذ القرار محلياً قدر الإمكان. وكيلي والمحللون الآخرون كانوا يعرفون أفضل من غيرهم الوضع في دوائر اختصاصاتهم، وكانوا يبتعدون عن مقر قيادة قوة المهمات قدر الإمكان كي يتجنبوا التدخل غير الضروري. ولهذا السبب لم يكن المطلوب مني أن أكتب تقارير مطولة عن عملي وذلك لتجنب التعقيد.

لكني الآن وأنا أمام الرجل وجهاً لوجه وهو المسؤول عن جمع المعلومات الاستخبارية بدأت أفكر بشيء آخر. لقد كان مهتماً بما كان يجري في تكريت. وسألني: «كم من الوقت أمضيت في تكريت يا رقيب مادوكس؟». رددت: «خمسة شهور يا سيدي.

- «ماذا كنت تفعل هناك؟».

- «فقط أحاول التخلص من الأشخاص السيئين يا سيدي».

- «هل أصبت أي حظ؟».

صمت وأنا أتساءل فيما إذا كنت سأشرح كم كنا على وشك الاقتراب، لكني قلت «لقد قمنا بعمل جيد؛ يا سيدي».

استدرك قائلاً: «كيف إنني لم أر أياً من تقارير تحقيقاتك؟

بلعت ريقي بصعوبة ثم قلت: «أخبروني ألا أقلق حول كتابتها».

أجاب بانزعاج: «من أخبرك بذلك. إننا بحاجة إلى تلك التقارير، لا سيما بعد تلك الرزم المتراكمة من النقود التي وجدتموها. هل باستطاعتك كتابة ملخص سريع لما كنت تفعله في تكريت؟».

أجبت: «بالتأكيد، يا سيدي، لكني لا أعرف كم سيكون التقرير الخطي واضحاً. إن لدي قائمة ارتباطات أستطيع تقديمها، وأستطيع أن أعطي فكرة عنها لمن يريد».

قال العقيد ووكر: «ممتاز، متى ستسافر؟».

- «يوم الأحد في الرابع عشر».

- «سأعقد اجتماع تحليل يوم الخميس وأريدك أن تكون هناك، واجلب معك قائمة العلاقات».

غادر العقيد، وبعد أن غاب عن الأنظار، التفت إلى صديقي لي وسألته «هل هناك أي شخص يريد أن يعرف عن تكريت قبل عثورنا على تلك النقود؟». أجاب: إيريك، لقد كنا في بغداد ويتركز اهتمامنا على بغداد».

وقفنا صامتين للحظة، ثم سألته: «هل تعتقد أن صدام في بغداد؟». أجاب: «ليس لدي فكرة، لماذا؟ هل تظن إنه في تكريت».

فكرت بكل الأخطاء التي ارتكبتها والغارات الفاشلة كلها، وعلى الرغم من كل ذلك، كان هناك شعور بأنني لن أغير فكرتي، أجل يا لي، أظن إن صدام في بغداد».

★★★

وصلت إلى غرفة الإيجاز في الساعة 14:00 لأجد أكثر من دستة من المحللين وضباط المخابرات ينتظرون قدومي. وكان من الواضح منذ دخولي أن هذا كان آخر مكان يودون التواجد فيه. لقد كنت محققاً مغموراً لا يظن الآخرون إن له أهمية في مطاردة المتمردين. وكان الجميع يعتقدون أن ما يحدث في العراق هو ما يحصل في بغداد، وكل شيء آخر مضيعة للوقت. ولو لم يكن العقيد ووكر يجلس في الصف الأول لما اهتم أحد منهم بالحضور.

أخذت نفساً عميقاً وأزحت الغطاء عن قائمة الارتباطات التي كنت قد أعددتها تلك الليلة ثم بدأت بإعطاء ملخص سريع لما تعلمته في الأشهر الخمسة الماضية. أخبرتهم عن محمد حدوشي وآل المصلط وردمان إبراهيم وفارس ياسين وتامر العاصي وأبي إدريس وياسم لطيف وردمان الصغير. وعندما كنت أتكلم، كنت أفكر بكل واحد منهم. بدا أنني قد قضيت نصف حياتي وأنا أحاول أن أدخل إلى رؤوسهم لأكتشف أسرارهم. وفي بعض الأحيان بدا كما لو أني أعرفهم أكثر من أصدقائي وأقاربي. لقد قاريتهم في الذكاء وواجهتهم في معركة الإرادة ودفعتهم إلى حد ما. انهار بعضهم وصمد آخرون. أخبرني بعضهم بما كنت أود سماعه وسيذهب البعض إلى قبورهم وسرهم معهم لأنهم لم يريدوا أن يخونوا ولاءهم. كانوا جنوداً لقضية استعد البعض منهم للموت في سبيلها. لم أستطع إلاّ أن أعترف بتلك الحقيقة الواقعة، ولو عنت قضيتهم موت آلاف الأمريكان والعراقيين. كانوا، بطريقتهم الخاصة، رجالاً ذوي ولاء كرسوا أنفسهم لقضيتهم. وحتى أوقفهم يجب أن أكون مثلهم.

لم أدرك المدى الذي نفذت فيه إلى أعماقهم إلا عندما حاولت أن أشرح ذلك للآخرين. لقد حققت مع أكثر من ثلاثمئة سجين أثناء وجودي في تكريت، وكان معي كل شيء اكتشفته بما في ذلك تخميناتي التي وضعتها في قائمة الارتباطات. كنت أعرف كل شخص في القائمة ومن منهم أعطاني المعلومات التي استطعت بواسطتها أن أملأ كل مربع في القائمة. لقد كانت قائمة ذات أربعة أبعاد تمثل التمرد.

عندما كنت أتكلم، لم أستطع أن أزيح من مخيلتي حقيقة أن هؤلاء الأشخاص قد ربحوا وأنني خسرت. فصدام ما يزال طليقاً، وهو أكثر الرجال المطلوبين في العراق. ها هو يعيش ليقاتل يوماً آخر. وكان كل أملي هو أن يقوم الرجال والنساء الموجودون أمامي بإكمال المهمة والقبض عليه.

لم يبد ذلك محتملاً، فقد كنت متأكداً أنه مع نهاية الأسبوع سيكونون قد نسوا كل ما ذكرته لهم. حتى عندما تركت تكريت، كنت آمل أن يقوم أحدهم بتدبير قيام الفريق بالاستمرار في البحث عن محمد إبراهيم. لقد تم نشرهم هناك

لمدة شهر آخر. إذا لم يتم استكمال المهمة، فإن المعلومات التي يمكن لأحد آخر أن يستعملها لإكمال المهمة ستكون قد ضاعت.

لم يكن ذاك هو الحال في تكريت. فالكم الكبير من المعلومات القيمة كان ينغرس في عقول الجنود. صحيح أن بعض القادة قد قاموا بجهد متناغم للحفاظ على المعلومات الاستخبارية ونقلها إلى غيرهم، لكن ما يحصل في العادة هو أن بعض الضباط والمحللين يفضلون تطوير أساليبهم ومصادرهم. وفي كل مرة يتغير الضباط، يبدو وكأن المرء يجب أن يبدأ من البداية. ويتم تجاهل المعلومات السابقة كلها. وقد انطبق ذلك على حالتي. لماذا ينصت أي منهم إلى محقق ذي نظريات غبية عن التمرد لم يستطع أن يثبتها. لكن مبلغ 1.9 مليون دولار أضاف بعض المصداقية لما كنت أقوله. لكن السطر الأخير ما يزال مفقوداً. وصدام حسين ما يزال طليقاً. ولم يبد أن أحداً في تلك الغرفة كان يتابع الإشارات والدلائل التي كنت أسوقها.

لكن تكشف الأمر عن أن واحداً من الحضور كان يتابع كل شيء بدقة. عندما انتهيت من إيراد ملاحظاتي وأجبت عن أسئلة بعض المحللين انتحى العقيد ووكر بي جانباً وقال: «كان ذلك مؤثراً، سنقوم غداً بإعطاء هذا الإيجاز للأميرال ماك كرافن. هل تعرف الأميرال يا رقيب مادوكس؟».

قلت وأنا لا أصدق ما أسمعه: «أعرف أنه قائد قوة المهمات الآن يا سيدي».

- «هذا صحيح» قال العقيد ووكر.

لم يسبق لي أن تحدثت إلى ضابط كبير مزين بالنياشين. والآن المطلوب مني أن أقابل الرجل الذي يدير صفوة الوحدات العسكرية في العالم. لقد كانت آخر أيامي في العراق ذات تحول.

قال العقيد: «في الوقت نفسه، أريدك أن تجلس مع محلل وتراجعا قائمة العلاقات بتفصيل كامل. لا أريد أن أضيع هذه المعلومات عندما تغادر إلى بلدك. هل هذا مفهوم؟».

«أجل يا سيدي» لم يكن ذلك مفهوم فقط وإنما كان مقدراً أيضاً.

الفصل السابع عشر

القطـــاع

11:15

2003/12/11

كنت أتطلع لأن أقدم إيجازاً لرئيس قوة المهمات. ولو استطعت أن أقنعه بصواب نظريتي حول التمرد، فربما يستمر العمل الذي عملناه في تكريت.

كانت استجابة العقيد ووكر إيجابية، لكن مخاوفي كانت هي أن يقوم أحد آخر بأداء دوري. لم أفكر بأنه لا يمكن الاستغناء عني، لكن الذي لا يمكن الاستغناء عنه هو المعلومات التي جمعتها على مدى خمسة أشهر. لم يهم كم عدد الإيجازات التي ألقيتها على المحللين، لكن لم تكن هناك طريقة فعالة لأنقل هذه المعلومات، ليس في الوقت الذي غادرت فيه.

كنت ما أزال آمل في أن أسمع شيئاً من وولت عن الغارة التي قاموا بها على بيت خال محمد خضير في بغداد. وقد بدا أن هذه هي أفضل وآخر فرصة نستطيع بها القبض على محمد خضير ومحمد إبراهيم. وحتى 12 كانون أول أي قبل يومين من سفري للولايات المتحدة، لم أسمع منه شيئاً. عرفت أنه قد فهم أهمية إلقاء القبض على محمد إبراهيم، لكني لم أكن واثقاً من أنه قد ضغط باتجاه القيام بغارة.

كان الوضع قد تغير بصورة جذرية منذ أن غادرت تكريت. هناك، كان قرار القيام بالإغارة بيد بام، وكان ذلك يعتمد على مدى ثقته بالمعلومات الاستخبارية التي أزوده بها. كانت بيننا علاقة عمل ممتازة، ولم يُوجه تعنيف عندما

لا تسفر الإغارة عن شيء. فلو أرسلت الفريق في إغارات متعددة، فإن ذلك سينعكس على سمعتي ومصداقيتي لدى الفريق، والحفاظ على ثقتهم كان أحد أهدافي الرئيسة.

اختلف الأمر في بغداد. فطلب وولت من قائده القيام بغارة سيكون واحداً من عدة طلبات، والموافقة تتطلب معلومات صائبة وليس اعتماداً على الحدس الذي طورته في تكريت. كان الأمر خارج نطاق سلطتي.

وصلت إلى مكتب الأميرال قبل الثانية عشرة بقليل، وبعد دقائق ظهر العقيد ووكر. كان معه بعض النسخ من قائمة الارتباطات وبدا مستاءً. كنت أعلم سبب استيائه. كضابط أول لاستخبارات قوة المهمات، كان على وشك أن يسلم الزمام لرقيب، ولو لم أقدم قضية مقنعة، فإنه هو الذي سيكون على المحك. لم أكن قلقاً، فأنا أعرف عن ماذا أتكلم، وكنت أعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر. وعلى الرغم من جميع نكساتنا، إلا أنني كنت ما زلت أؤمن بنظريتي.

كان الأميرال ماك كرافن رجلاً طويلاً نحيلاً ذا حضور قوي، وبعد أن حياه العقيد، قدمني إليه قائلاً: «الرقيب مادوكس هنا ليقدم لك إيجازاً عن الوضع في تكريت يا سيدي».

قال الأميرال: جيد جداً، أيها الرقيب مادوكس، أنت محقق، أليس ذلك صحيحاً؟». كنت على وشك أن أجيب عندما تقدم العقيد ووكر وقال: «سيدي، الرقيب مادوكس قضى أفضل وقت من الشهور الستة الماضية في تكريت وهو يعيش مع الفريق هناك. وقد بنى هو والمحلل كيلي قائمة ارتباطات بناء على المعلومات التي جمعها من الموقوفين ومن مصادر العملاء. وأعتقد أنك ستهتم جداً بما سيقوله».

«ممتاز» أجاب الأميرال، ثم استدار نحوي قائلاً: «هل أنت مستعد للبدء؟». قلت: «أجل يا سيدي». كنت أرى العقيد ووكر من جانب عيني، كان ما يزال غير واثق عندما رمى الكرة إلي. لكنني كنت هادئاً، ولم يهم من هو الموجود هنا. فباستطاعتي أن أعطي فكرة عن هذه القائمة لأي شخص في أي وقت، فقد كنت أعرفها كظاهر يدي.

على مدى خمسين دقيقة قدمت التفاصيل وأنا أؤكد النقاط التي أردت الأميرال أن يستوعبها ويحتفظ بها. ذكرته بمبلغ المليون وتسعمئة ألف دولار التي وجدناها. وشرحت له بأن النقود كانت لتمويل التمرد ليس في تكريت فقط، وإنما عبر البلاد. وإذا كان هناك شيء أردت أن يستوعبه جيداً فهو اسم محمد إبراهيم، ولو أننا ألقينا القبض عليه فسيقودنا إلى صدام».

أنهيت الإيجاز بإبلاغه عن تحقيقاتي مع الصياد، وقلت: «كقريب لمحمد خضير، فإنني أعتقد أن هذا الرجل يمكن أن يقودنا إلى محمد إبراهيم والمكان الذي يختبئ فيه. وإذا كان وولت لم يستطع أن يقنع قائده بالقيام بغارة، فها أنذا أقولها مباشرة للأميرال ماك كرافن، فقد كان الأمر جديراً بالمحاولة.

قوبلت كلماتي الأخيرة بصمت طويل، وبدأت أفكر فيما إذا كنت قد تخطيت حدودي.

حدق بي الأميرال كما لو أنه كان يحاول أن يعرف إذا كنت أعرف. حبس العقيد ووكر أنفاسه، وكنا نحن الاثنان نفكر بالخيار الذي سيتخذه الأميرال، هل سيرمينا خارج المكتب أم يشكرنا على الوقت الذي صرفناه وينسى كل شيء.

لم يكن أي منا مستعداً لما حدث فيما بعد. نظر الأميرال إلى ساعته ثم استدار إلى العقيد وقال: «المفروض أن أطير إلى الدوحة في قطر غداً. وسيرافقني الرقيب مادوكس في تلك الرحلة». ثم نظر إلي وقال: «رقيب مادوكس، سأقدم إيجازاً للجنرال كستارد مستشار الجنرال أبي زيد في سنت كوم، وسيكون حول الوضع. ليس لدي الوقت لأتعلم كل شيء حول هذا الموضوع «ثم أشار إلى قائمة الارتباطات التي على الطاولة وقال لي: «سيكون إيجازك له حول هذه القائمة، هل هذا واضح؟».

- «أجل يا سيدي».

تنحنح العقيد ووكر وقال للأميرال: «سيدي، من المفروض أن يعود الرقيب مادوكس إلى الوطن يوم الأحد الرابع عشر، وأظن أن ليس هناك مشكلة».

أجاب الأميرال: «لا توجد مشكلة، يمكنه أن يطير في رحلة مدنية من الدوحة إلى الولايات المتحدة، وأنا أريده لأسمع منه ما يريد قوله». بدا الاجتماع على وشك الانتهاء، لكن قبل ذلك، كان لي طلب.

قلت: «سيدي، لي زميل وصل إلى العراق معي. ومن المقرر أن يعود إلى الوطن يوم الأحد. هل هناك من مشكلة إذا جاء معي إلى الدوحة حتى يمكننا العودة معاً؟».

أجاب الأميرال: «ليس هناك من مشكلة» ثم التفت إلى العقيد ووكر وقال له: «أود أن أشكرك على أنك جلبت هذا الموضوع إلى انتباهي». تساءلت كيف سيشعر لي عندما يعلم بأن قائد قوة المهمات قد وافق على خطة سفره.

صافحني الأميرال وقال بصدق: «يا رقيب مادوكس. أود أن أشكرك على العمل الجاد الذي تقوم به، فالرقباء أمثالك هم الذين يكسبون الحروب ويجعلون الضباط مثل العقيد ووكر ومثلي نبدو جيدين».

منذ اللحظة التي تركنا فيها مكتب الأميرال، أخذ العقيد ووكر يعاملني كما لو كنا أفضل الأصدقاء، حتى إنه بدا يناديني باسمي الأول.

كانت فكرتي الأولى أن أسأله أن يضغط باتجاه القيام بالإغارة على الأهداف التي حددها قريب محمد خضير، لكن لم يكن هناك من طريقة أستطيع أن أتدخل فيها مباشرة بعملية اتخاذ القرار. وولت كان هو الوحيد الذي يمكنه الدفع باتجاه ذلك إذ له اتصالات بالفريق في بغداد وهم يثقون به. وكل ما استطعت أن أفعله هو الأمل بأن وولت سيقوم بأفضل ما عنده لتحقيق الغارة.

في هذا الوقت، قابلت لي وأنبأته عن أخبار سفره. سنذهب معاً إلى الدوحة ونطير مع الأميرال ماك كرافن في طائرته الخاصة. أنهينا يومنا في مطعم فتح في مطار بغداد للأمريكيين وكان الطعام جيداً. أما حقيقة أنني كنت سأغادر، فقد نغصت علي. فأفضل أوقات حياتي المهنية والشخصية قد قاربت على الانتهاء. وكنت فخوراً جداً بالعمل مع الكثيرين من الرجال المخلصين ولا سيما فريق تكريت. فقد حاولنا إيقاف الأشرار عن القيام بأعمال شريرة. لكن للأسف، في مثل هذا الوقت من الغد، سأكون على متن طائرة والعراق بعيد عني. ولم يهم كم اقتربنا من القبض على القائمة السوداء رقم 1 (صدام حسين)، لكننا حاولنا وفشلنا.



عندما عدت إلى خيمتي، استلقيت وأغمضت عيني، لكني عرفت أن ذلك من العبث، فلن أنام في آخر ليلة لي في العراق.

قمت وغادرت باتجاه السجن، فقد كان لي وبقية المحققين هناك. كنت أريد شخصاً أتحدث معه، لكن علي أن أكون حذراً. فباستثناء لي، سيبقى بقية الفريق خلفنا لأسابيع أو لشهور. وآخر شيء يودون سماعه هو التحدث عن الذهاب إلى الوطن. أسعدني أن أكون مع المحققين الزملاء، لذا جلست وتناولت مجلة.

بعد عدة دقائق دخل رائد ولمحني ثم قال: «مرحباً يا مادوكس، لقد أرسلوا صيادك في مهمة، فهل يعني ذلك أنهم سيتخلصون منه غداً؟».

انتصبت واقفاً وقلت بحذر زائد: «أي مهمة؟».

أجاب بغير اكتراث»: «الم تسمع بذلك؟ لقد أخذوه أمس».

- «هل وجدوا الهدف؟».

- «أجل في الحقيقة، هم يقومون بالإغارة الآن».

فجأة عدنا إلى اللعبة. لقد عظم تقديري لوولت، فقد كان ميالاً للمخاطرة بالفشل ولو كان في ذلك أقل احتمال لإنجاز المهمة. لقد بخسته قدره والآن في الساعة الحادية عشرة خرج سالماً.

رن الهاتف والتقطه أحد المحققين. وبعد محادثة قصيرة صرخ لي قائلاً: «إيريك، هل تعرف أحداً اسمه محمد خضير؟».

قفزت. كان وولت على الهاتف. لقد قبضوا على محمد خضير وبعض رفاقه، وهم في طريقهم إلى هنا الآن.

سألت: «ماذا عن محمد إبراهيم؟».

هز الرائد كتفيه وقال: «قال وولت إنهم لم يجدوه. وجدوا محمد خضير فقط».

كانت تلك أخبار جيدة، لكنها لم تكن تلك التي كنت آملها. لو كان محمد إبراهيم موجوداً في مكان الغارة لعرف وولت بذلك. لقد كان محمد خضير هو الصلة الوحيدة للحارس الشخصي لصدام. لكن الوقت كان يفوتني وأنا أتابع الوضع. لقد كنت أريد أن محمد إبراهيم كان في البيت.

لكن محمد خضير كان أفضل من لا شيء. استدرت نحو لي وسألته:

«هل تريد العمل هذه الليلة؟».

أجاب بتقطيب: «وهل لي خيار آخر؟». ثم نادى محقق وردية الليل وقال له:

«سنأخذ السجناء الذين سيأتون».

في النهاية، سأستجوب محمد خضير. لقد كان أول اسم سمعت به من ابن تامر العاصي الذي قال عنه إنه شقيق قائد التمرد أبي سفيان. كان قريباً من محمد إبراهيم أكثر من أي شخص آخر في قائمة الارتباطات، وكان محمد إبراهيم على بعد خطوة من صدام نفسه. لقد كان المحمدان «محمد خضير ومحمد إبراهيم: شبحين، وها نحن نحصل على واحد منهما، وعلينا الآن الوصول إلى الآخر.

كانت الساعة 02:00، عندما ظهر الرماة ومعهم أربعة سجناء. كانت رؤوسهم مغطاة وأيديهم مصفدة، وكان محمد خضير أحدهم. أما الباقون فلم يكونوا معروفين. على الفور سألت قائد الفريق الذي قال لي إن محمد إبراهيم لم يكن في موقع الإغارة، وكان الرماة يحتفظون بصورة له، وكانت بالأبيض والأسود، وكانوا يعرفون عمَّن يبحثون، لكنهم لم يجدوه.

لم يكن أمامي إلا بضع ساعات لاستجواب محمد خضير، وعلى الرغم من الضغط، إلا إنني كنت هادئاً مسيطراً تماماً على نفسي.

عندما جهزت للاستجواب، أدركت أنه قد مضت علي مدة في ذلك القطاع. لقد بدأت في منتصف أكتوبر/ تشرين أول عندما استجوبت أحمد ياسين، واعترف بأن أسرته كانت تقود التمرد، والتحقيقات الأساسية أكدت نظريتي، وأعطت لي الدافع للبحث عن هذه الأسرة المحددة من أفراد الحماية عندما تركزت المطاردة الرسمية على أهداف ذات قيمة عالية. والأهم من ذلك، أن ذلك منحني القدرة على التركيز على عملي، فالمحقق الجيد فعلاً يمكنه عادة أن يختار واحداً من خمسة وعشرين سجيناً كي يجعله ينهار ويقدم معلومات عملياتية. أما الآن فلدي واحد فقط لأكسره وأجعله ينهار وليلة واحدة للقيام بالعمل. لم أكن قلقاً، لقد كنت داخل النطاق.

02:18

2003/ 12/ 13

في طريقي إلى زنزانة التحقيق، قابلت جون، مترجم لي، الذي سأعمل معه هذه الليلة.

قال وهو يسرع الخطى ليمشي بمحاذاتي: «ظننت أنك ستغادر يا إيريك» فأجبته: «ما يزال أمامي ست ساعات وأنا بحاجة ماسة لمساعدتك يا جون».

ذهبنا إلى السجن وكان لي يقوم بالإجراءات. انتحيت به جانباً وقلت له: «سيكون الأمر سريعاً، وأريدك أن تحضر بعض السجناء الذين جلبتهم معي من تكريت، فقد أحتاج إلى مساعدتهم».



المحقق لي على اليمين ومترجمه جون في الوسط وأنا على اليسار أخذت بتاريخ 2003/12/13 قبل ساعات من مغادرتي للعراق

أجاب لي: «أعطني الأسماء وسأجعل الحراس يحضرونهم. سيكونون جالسين في الممر بعد ثلاث دقائق».

«هل ستتمكن من سماع التحقيق من هناك؟». فقد أردتهم أن يكونوا في الاستجواب عندما يلائم ذلك غرضي.

أكد لي: «لا تقلق، سأجعلهم يضعون سدادات في آذانهم ولن يسمعوا شيئاً».

«عظيم». أخبرته أنني أريد أخلص المتعاونين معي وهما باسم لطيف ولؤي، شقيق صباح.

توجهنا إلى الزنزانة حيث كان السجناء الذين أتوا بهم من الغارة والأغطية على رؤوسهم والأصفاد في أيديهم. أشار الحارس لمحمد خضير. أخذته أنا وجون إلى غرفة التحقيق. كانت الساعة تقارب 04:00.

آخر شيء أردته أن يعرفه هو أنني كنت في عجلة. أردته أن يفكر بأننا سنقضي الليل بطوله وكذلك النهار إن تطلب الأمر. وبدأت كالعادة بالأساسيات:

- «ما اسمك؟».
- «محمد». عرفت من أول جواب له أنه لن يتعاون عن طيب خاطر.
- «محمد ماذا؟».
- «محمد خضير».
- «أين تقيم؟».
- «أقيم في البيت الذي جلبني جنودكم منه».
- «كم مضى عليك وأنت تعيش هناك؟».
- «منذ سقوط بغداد».
- «في أي مكان آخر كنت تقيم؟».
- «تعيش أسرتي في سامراء، وأنا أزورهم عندما لا أكون أبحث عن عمل».
- «كم مضى عليك وأنت تعيش في بيت بغداد؟».
- «قرابة شهرين».

عند هذه النقطة قمت بمغامرة محسوبة، فلعبة القط والفأر كانت تستنفد الوقت، وأنا لا أستطيع تحمل ذلك. حاولت أن أشعر بشيء نحو مع من أتعامل

وما يريد أن يخفيه عني قبل توجيه الأسئلة المهمة له. لم يكن هذا تحقيقاً عادياً، ولن يعطيني محمد خضير الوقت الكافي الذي أحتاجه لأكسره وأجعله ينهار، علي أن أسرع وأجرب شيئاً جديداً، شيئاً هو «الأسلوب القاسي الأمين»، لم يكن أمامي خيار آخر.

قلت له بصوت منخفض وأنا أتعمد أن يجهد نفسه في سماعي: «محمد أريدك أن تنظر لي وتستمع بانتباه. إنني أعرف بالضبط من أنت وما فعلته. لقد ألقيت القبض على العديد من الأشخاص الذين عملوا معك واستجوبتهم. أخبروني كل شيء. عليك أن تكف عن التفكير في كيفية خروجك من هذا الوضع. عليك أن توقف التفكير بما صفتك وما الشيء الذي لن تخبرني به. سأشرح بالضبط ما عليك أن تخبرني به. والطريقة الوحيدة التي تساعد بها نفسك هي أن تساعدني وتخبرني أين أجد محمد إبراهيم عمر المصلط.

حدق بي بازدراء وقال: «لا أعرف هذا الشخص».

قلت له وبنغمة الصوت نفسها: «دعنا نبدأ ثانية، أنا أعرف أنك المسؤول عن موت الكثيرين من الأمريكان والعراقيين في سامراء وبغداد، وأعرف أنك تعمل مباشرة مع محمد إبراهيم عمر المصلط، وأعرف أنك دوماً معه منذ مقتل أخيك «أبي سفيان» قبل شهر. أنا أعرف كل ما فعلته».

- «أنا لا أعرف الشخص الذي تبحث عنه».

وقفت وأشرت للحراس أن يأخذوا السجين إلى أقصى الغرفة ويكمموا فمه. توجهت إلى الممر حيث كان لي ينتظر مع السجناء من تكريت، وكما وعد، كانا يضعان سدادات آذان. أزحت العصبة عن عيني لؤي، شقيق صباح قائد التمرد في سامراء وجلبته إلى غرفة التحقيق وأجلسته أمامي. لم ير أو يسمع محمد خضير الذي كان يراقب من مؤخرة الغرفة. كنت ارتجل وأنا آمل في أن أسمع منه ما يجعل السجين ينهار.

سألته: «لؤي، كم اجتماعاً جلست فيه مع أخيك ومجموعته عندما كانوا يخططون لقتل الأمريكيين؟».

أجاب: «الكثير».

- «متى كانت آخر مرة؟».

- «نحو قبل أسبوعين».

- «من كان في ذلك الاجتماع مع أخيك؟».

- «محمد إبراهيم ومحمد خضير».

- «هل كانا يحضران كل اجتماع؟».

- «أجل».

قلت له: «استدر يا لؤي».

كسا الخوف وجهه عندما عرف أننا لم نكن وحدنا، تحرك في مقعده ليرى محمد خضير يحدق فيه وهو مكمم. لقد شهد لؤي وهو يروي معلومات تجرمه.

تابعت: «لؤي، من ذاك الرجل؟».

همس: «محمد خضير».

جعلتهم يخرجون لؤي من الغرفة، وبالكاد كان يستطيع المشي بساقيه المرتعشتين. جلست قبالة السجين وتابعت القول بتهكم وأنا أقرر حقيقة واضحة: «الآن بعد أن عرفت، لن أسمح لك بمغادرة المكان، لأن ذلك يعرض حياة لؤي للخطر. أخبرني أين أجد محمد إبراهيم. إذا فعلت ذلك، فسأعرف أنك في صفنا مثل لؤي. وكان عليه أن يفهم أنني أحتفظ به في المكان الذي أريده له، فإذا حاول أن يقوم بالاعتداء على لؤي فسأعلنها أنه قد ساعدنا في القبض على محمد إبراهيم، أما إذا تعاون، فإن ذلك سيكون سراً - سراً يشارك لؤي به. «هل أوضحت لك ما أريد؟».

مرت لحظة صمت طويلة ثم قال: «سمعت بمحمد إبراهيم لكني لا أعرفه». تركت الغرفة ثانية ورجعت هذه المرة ومعي مصلط، ابن محمد إبراهيم. كان الغطاء ما يزال على وجهه، لكني رفعته بما يكفي محمد خضير ليتعرف إليه. وللمرة الأولى منذ بدء التحقيق، استطعت أن أرى رباطة جأشه تهتز. أخرجت مصلط، وعندما عدت قلت له: «أنا أعرف أنك تعرف من يكون ذاك» توقفت لحظة كما لو أنني أراجع خياراتي ثم تابعت: «هاك

ما أفكر فيه. إنني أفكر بإعادة مصلط إلى هنا كي ينظر إليك، ثم أتأكد من إرسال رسالة مفادها أن ابن محمد إبراهيم سيقضي الخمسين سنة القادمة في السجن بسبب المعلومات التي ستخبرني بها، وأنا أتساءل كيف سيكون شعور محمد إبراهيم تجاهك».

أجاب: «محمد إبراهيم لا يعتبر أو يقدر ابنه».

قلت: «قد يكون كلامك صحيحاً، لكنني أتساءل كيف سيشعر إذا علم انك قد أرسلت أصدقاءه المقربين إلى السجن ليقضوا بقية حياتهم فيه أيضاً».

سأل: «أي أصدقاء؟».

- «باسم لطيف وتامر العاصي وأبو إدريس. إنهم في حوزتنا الآن. وأستطيع أن أبقيهم هنا وأجعل الجميع يعتقد بأنك أنت السبب. هل تريدني أن أحضرهم إلى هنا الآن؟».

هز رأسه ولم يقل شيئاً. وصلنا إلى مأزق. قلت: «محمد خضير! أنا أعرف أنك تكذب علي لأنك تظن أنني غير متأكد من معلوماتي، لكنك مخطئ، إنني أعرف كل شيء عنك، وأعرف الجرائم التي ارتكبتها جميعها، وأعرف أن الطريقة الوحيدة التي تنفذ فيها من العقاب هي أن تأخذني إلى محمد إبراهيم».

- «إذا أخذتك إليه سيقتلني». كنا نحرز بعض التقدم ولو كان بطيئاً. في بداية الاستجواب، أنكر السجين معرفته بمحمد إبراهيم، والآن يخبرني أنه يخشى الرجل. كان خوفه حقيقياً. لو تم اكتشاف تعاونه معنا، فإن حياته وحياة أفراد أسرته ستكون في خطر. واحتجت لأن أجد طريقة أساعده فيها للخروج من هذه المشكلة.

عرضت عليه: «سأخبرك، خذني إلى محمد إبراهيم وسأتأكد من أن الجميع سيعرف أن ابنه مصلط هو الذي ساعدنا على اعتقاله. من المقرر أن يرسل إلى خليج غوانتنامو بعد بضعة أيام. وعندما يغادر سنلومه على كل شيء، وستكون ساحتك خالية. كان هذا كله هراء لم يكن لدي فكرة

عما سيحدث لمصلط. وحيث إنه لم يكن مشاركاً فعالاً في التمرد، فإن حدسي كان يخبرني بأنه سيطلق سراحه عاجلاً أم آجلاً. لكني كنت بحاجة لأن أقنع محمد خضير أن هناك طريقة لحماية نفسه وأسرته من انتقام محمد إبراهيم.

أجاب السجين: «إذا حصل ذلك، فسيقتل ابنه. سيجد طريقة لذلك، وسيقتل كل من يخونه».

ألححت عليه: «أخبرني عن مكانه وسوف لن يكون قادراً على قتل أحد.

وما دام في الخارج طليقاً فإنه تهديد حتى لأسرتك، ولا سيما الآن بعد اعتقالك». ارتخت عضلات وجه محمد خضير وانخفضت أكتافه. حبست أنفاسي. لقد رأيت هذه العلامات من قبل مرات عديدة قبل أن يبدأ السجين بالانهيار. أجاب بصوت متعب «لقد كان في بيتي».

- «متى؟».

- «الليلة الماضية».

كيف أمكن ذلك؟ كيف إننا دوماً نضيع هذا الشخص؟ إما أنه الشخص السيئ الأوفر حظاً في العالم أو أنني المحقق الأسوأ حظاً.

التفت محمد خضير إلى مترجمي جون وقال شيئاً بالعربية: قال جون ببطء: «إيريك، إنه يقول إن محمد إبراهيم كان في البيت عندما حصلت الغارة».

لم يكن ذلك ممكناً، قلت في نفسي. فالرماة الذين نفذوا الغارة يعرفونه. ولديهم الصورة نفسها التي احتفظ بها، ولا يمكن أن يخطئوا أكثر شخص مطلوب في العراق.

انتقل تفكيري للمحتجزين الآخرين الذين اعتقلوا أثناء الغارة. لقد افترضت أن محمد خضير كان هو الجائزة الوحيدة. كان مسرح الغارات صعباً ومعقداً. واعتقال يؤدي إلى آخر. وتبين أن الأشخاص السيئين كانوا يتقدموننا بخطوة. هل من الممكن أننا قد قمنا بقفزة واسعة؟

قلت لجون: «راقبه» وقفزت خارجاً من الغرفة إلى الزنزانة التي نحتجز فيها بقية الموقوفين.

قلت للحارس وأنا أتجاوزه: «افتح الباب الآن». رفعت غطاء رأس السجين الأول. لم يكن به شبه بمحمد إبراهيم، وانطبق الشيء نفسه على الثاني والثالث. الرجل الذي أحمل صورته نحيف وبصحة جيدة. كنت أستطيع أن أرى على الفور أن السجين الرابع له كرش ضخم، لكني عندما رفعت الغطاء عن وجهه رأيت الغمازة المميزة.

قلت له: «أنت محمد إبراهيم وقد كنت أنتظر أن أقابلك».

قال شيئاً بالعربية، وترجم الحارس خارج باب الزنزانة ما قاله: «قال إنك المحقق بالقميص الأزرق». اكتشفت فيما بعد أنني قد حظيت بشهرة في تكريت بسبب ذلك القميص الذي ألبسه كل يوم وجعلني معروفاً.

كنت واثقاً من أنني أحتفظ بالرجل الذي كنت أطارده لعدة أسابيع. وفي النهاية ها أنذا أدخل زنزانة السجن وألتقطه. ومن رجال الشارع والمخبرين وأفراد الحماية السابقين استطعنا أن نصعد السلم للقبض على زعيم التمرد. لقد اخترقنا شبكاتهم وأنقذنا مئات الأرواح. وإذا استطعنا القيام بكل ذلك. فبإمكاننا القيام بالخطوة التالية، وربما يقودنا محمد إبراهيم إلى صدام حسين.

لكن أولاً، علي التأكد المطلق من أن هذا الرجل هو الذي أطارده اقتدت السجين إلى الممر وتركته مع الحارس، ثم اندفعت إلى حيث كان باسم والآخرون. أمسكت بباسم وأخذته إلى الزنزانة ثم أشرت إلى الحارس أن يحضر محمد إبراهيم. وعندما وقف عند باب الزنزانة رفعت الغطاء عن وجهه بشكل يجعل باسم يرى ما رأيته - الذقن الذي لا تخطئه الفراسة.

عندما رآه باسم قفز إلى الخلف مذعوراً، وأشار برعب أن أبعدوا محمد إبراهيم. أشرت للحارس أن يبعده ثم التفت إلى باسم وسألته: «هل هذا هو؟». أومأ باسم برأسه. كان ينشج ويتمتم.

تبسم جون، الذي كان يستمع لباسم وقال. «إنه يظن أنك وغد يا إيريك». نظرت إلى باسم الذي كان يرتجف والدمع ينهال من عينيه. التقت عينانا عندما قال شيئاً آخر. وترجم جون الكلام قائلاً: «لقد اقتربت.. اقتربت كثيراً جداً».

أجبته: «اشكره عني، اشكره على مساعدته». اقتربت منه وصافحته، وكانت هذه آخر مرة أرى فيها باسم لطيف.

* * *

الفصل الثامن عشر

الطـــرق على البـــاب

05:06

2003/ 12/ 13

كانت الساعة بعد 05:00 وطائرة الأميرال ستغادر في الساعة الثامنة، وقيل لنا أنا ولي أن نكون على مدرج المطار في الساعة السابعة. وهذا يعطيني ساعتين لاستجواب محمد إبراهيم. لقد كان لدى هذا الرجل أسرار كثيرة يخفيها ودوافع كثيرة تجعله يخفيها. لقد قطعوا عملي.

أرجعت باسم ومحمد خضير وبقية السجناء إلى زنزاناتهم. فلم يعد لي حاجة إليهم. هذه المرة سأكون فقط أنا ومحمد إبراهيم. سأواجه الرجل الذي اعتبرته أثمن ثاني هدف في العراق وأمامي 120 دقيقة لأكشف ما يعرفه. أستطيع أن أسلك أحد اتجاهين. يمكن أن أجرب العمل على قائمة الارتباطات وأحصل على أماكن تواجد الأشخاص الذين يتلقون أوامرهم منه، جميع الأخوة وأبناء الأعمام والأخوال والأصدقاء الذين يشكلون شبكة التمرد، أو أبدأ من أعلى السلم إلى الرجل الذي يعطي أوامره لمحمد إبراهيم. لم أفكر مرتين.

قلت للسجين الذي جلس قبالتي: «اسمي إيريك. لقد كنت أفتش عنك منذ وقت طويل يا محمد إبراهيم. أريدك أن تصغي إلي بكل انتباه. سأتكلم أنا وأنت عن شيء واحد، الموقع المضبوط لصدام حسين».

نظر إلي ثم إلى جون ثم إلي ثانية وابتسم مُظهراً أسنانه المصفرة من التدخين وقال: «لا أعرف أين هو».

- «أنت تعرف بالضبط مكانه. أعرف أنك تعرف، ولهذا السبب كنت أفتش عنك، ولهذا طاردت أفراد أسرتك جميعهم، ولهذا اعتقلت كل صديق لك. لم أكن أفتش عن صدام. كنت أبحث عن الشخص الذي سيأخذني إلى صدام، وهذا الرجل هو أنت».

أجاب: «أنت تنسب لي فضلاً كثيراً». كانت البسمة ما تزال على وجهه.

- «أنا لا أنسب الفضل إليك. فكل من تحدثت إليه كان ينسب الفضل إليك. كلهم قالوا بأنك الذي تدير التمرد، وقالوا لي إنك رجل مهم ومحترم ومهاب جداً. وبسبب ذاك الاحترام والخوف انتقاك صدام لإدارة التمرد. أخبروني إنك الرجل الذي كان يدفع نقود صدام للمتمردين. قالوا لي إن لك رجالاً في سامراء والفلوجة وأن ردمان كان يعمل تحت إمرتك مباشرة».

سأل: «أين ردمان؟». كنت أدرك أنه يفحصني، وأراد أن يعرف حدود معلوماتي. هل أخبره بالحقيقة أم أخدعه. فقلت: «ردمان مات».

لم يبد أي دهشة بل جلس يحدق بي منتظراً ماذا سأفعل بعد ذلك. «والآن، بعد أن حظيت بك، سأطارد أفراد أسرتك جميعهم، كل أخ أو ابن أو ابن عم أو خال. ستجلب جهنم إلى أسرتك ولن ينتهي ذلك إلا بعد أن نجد صدام. إذا لم تخبرني عن مكانه، ربما يخبرني الآخرون. بإمكانك إيقاف ذلك الآن. أعطني صدام وسأوقف مطاردتهم».

- قال بازدراء: «أنا لا أصدقك».

- انظر إلي واستمع بانتباه ستعطيني صدام. وعندما تفعل ذلك سأسمح لك بالمغادرة كرجل حر. سأفعل ذلك لأنك أعطيتني الرجل الأول المطلوب في العالم. وعندما يحدث ذلك، سأساعدك. وحتى يحدث ذلك، ليس باستطاعتي مساعدتك. هناك شيء واحد يجب أن تفكر فيه وهو كيف تستطيع أن تغادر إلى منزلك، وأنا الوحيد الذي يستطيع تحقيق ذلك لك».

- «حتى لو عرفت مكان صدام وإذا أخذتك إليه، فسيعلمون ذلك وسيقتلون أسرتي ولن تستطيع إيقافهم».

لأول مرة كان السجين يعطيني لمحة عن شروط تحدثه معي. كان يريد الحماية لنفسه ولأسرته. لقد انتقلنا من الإنكار التام إلى التعاون المشروط. لو يعرف مكان صدام وإذا أخذنا إليه، فإن هذه الكلمات القليلة ستحدث الفرق.

- سألته: «من هم يا محمد إبراهيم؟. من سيطاردك بعد ذهاب صدام؟ أنت تقود التمرد له، ومن دونك لا قوة لصدام. وكل أولئك الرجال الموالين له سيرون ذلك. سيوقفون القتال ويحترمونك ويخشونك أكثر لأنك أسقطته. استمع لي. ستبنى هذه البلاد من الركام، والنظام القديم لن يستسلم مادام صدام لا يزال حياً. نستطيع أن نقبض عليه بتعاونك أو من دون تعاونك، وسيعلمون أن الأمر قد انتهى. سيوقفون القتال، وأنت تستطيع أن تذهب إلى بيتك، وستكون أسرتك سالمة وسيكون للعراق بداية جديدة».

مع مضي الدقائق توسعت في مفهوم بلد حر خال من صدام. كان يقاطعني في أوقات منتظمة وأصر على أنه لا يستطيع مساعدتي. لم يكن يعرف أين يختبئ صدام. لكنني ألححت إلى ذلك، وركزت على الخوف والخطر الذي يحيط به، ثم قارنت بين السلم والأمن الذي سيتمتع بهما العراقيون إذا ما كشف عن صدام وجعلت الأمر شخصياً قدر الإمكان. لقد كانت قضية واجب، قلت له.

كان يحس بالمسؤولية تجاه أسرته وتجاه العراق. لقد انتهى عهد الرعب والتخويف. وهناك عالم جديد قادم. وباستطاعته أن يساعد في تحقيق ذلك، وفي هذا الشأن كان يريد أن يضمن مستقبل أفراد عشيرة المصلط جميعهم.

كانت الساعة قرابة 06:45 قلت له «إذا لم تساعدني يا محمد، فلن أستطيع أن أساعدك. والحياة التي ستحياها أسرتك هي الفرار دوماً. سيكونون خارجين على القانون وبلدك ستتمزق. الأمر منوط بك».

إذا كان أي شيء قلته قد مس شيئاً في نفسه، فإنه لم يطلعني عليه. كان فقط يحدق بي دون أي تعبير. لكني كنت متأكداً من أنه سينهار ويأخذني لصدام. جاء لي إلى الباب وأشار إلى ساعته. قلت: «حان وقت الذهاب يا محمد.

سأعيدك إلى الزنزانة ولن يأتي أحد ليتكلم معك. سيأخذونك كي تمضي بقية حياتك في سجن مظلم لوحدك، وسيطاردون أسرتك كالحيوانات. لن يساعدك صدام، ولن يساعدهم أحد إلا أنت هنا والآن. وبعد أن قبضنا عليك فإنك لست مفيداً لصدام. لن يساعدك ولن يعتني بأسرتك، وهذه هي فرصتك الوحيدة لمساعدتهم».

انتظرت منه الرد، لكنه حدق بي فقط. قلت وأنا أقف وأشير إلى جون بأن الاستجواب قد انتهى: «أمامك طريق واحد إلى الخارج، وأنت تعرف هذه الطريقة. عندما تعود إلى زنزانتك، فكر بجدية. فكر بأسرتك وببلدك. وعندما تغير رأيك وتقرر أن تأخذني إلى صدام، أريدك أن تطرق على باب الزنزانة واجعل الطرق عالياً قدر ما تستطيع، وإلا لن أسمعك. وإذا لم أسمعك فإنك لن تغادر هذه الغرفة كرجل حر. هل تفهم ما أقوله لك؟»..

- «أجل.. لكن...».

- صرخت فيه: «اخرس. هناك شيء واحد أريدك أن تسمعني إياه، مكان وجود صدام، وإلا لا تقل شيئاً. استدرت لأغادر ثم توقفت وحدقت فيه ثانية «اطرق على باب الزنزانة يا محمد، هذا كل ما عليك فعله»، غادرت بعد أن أغلقت الباب الخشبي بعنف.

★★★

قبل الساعة السابعة بقليل، وجدت لي قد رجع إلى السجن. فقلت له: «علي إيجاد محلل كي يعرفوا أننا فعلاً قد قبضنا على محمد إبراهيم في تلك الغارة، كما أن علي أن أخابر كيلي في تكريت». فقال لي: «عجل، من المفروض أن نكون عند المدرج الآن».

أسرعت إلى مركز العمليات التكتيكية ووجدت المحلل الوحيد المداوم. أعطيته المعلومات بسرعة ثم أرسلت رسالة إلكترونية إلى كيلي الذي كان يريد أن يعرف إذا كنا قد قبضنا على محمد إبراهيم وأنه حتى الآن لم يخبرنا عن مكان

صدام، وعندما انتهيت كانت الساعة السابعة وعشر دقائق. كان لي ينتظر في الشاحنة خارج السجن.

قلت له: «لي، لم أوضب أغراضي، أعطني بضعة دقائق».

قال: «ادخل إلى السيارة، سأوصلك إلى هناك، علينا أن نضمن أننا سنسافر على طائرة الأميرال».

ذهبنا إلى خيمتي، ولأول مرة منذ أن عرفت أخبار الغارة توفرت لي الفرصة لألتقط أنفاسي. والرضا بمواجهتي لمحمد إبراهيم امتزج بالأسى على إنني لم أستطع أن أجعله يتكلم. وعلى شخص آخر أن ينهي العمل.

قال لي ونحن في طريقنا إلى المدرج: «وهكذا حصلت على رجلك».

أجبته: «أجل، لقد كنت أطارده منذ ثلاثة أشهر».

- «ماذا فعلت له يا إيريك؟».

- «ماذا تعني، لم أفعل له شيئاً».

- «حسناً، لقد حدث شيء. سمعته وأنت في مركز العمليات يدق باب الزنزانة. لم يكن لي قد أكمل كلامه عندما فتحت باب السيارة وصحت: «لا بد لي من العودة إلى السجن. يريد أن يستسلم. هل تستطيع تأخير الطائرة؟».

- «اذهب بسرعة».

قفزت ولامست قدماي الأرض، تلفت حولي ثم بدأت الجري. وعند باب السجن أوقفني حارس وقال: «إلى أين تظن أنك ذاهب؟».

أجبته: «أنا محقق وأحتاج أن أدخل لأتحدث مع شخص ما».

أعطيته اسمي وبدأ يدقق الأوراق التي أمامه ثم قال: «آسف، لا أرى اسمك هنا». فصحت فيه بأن علي أن أدخل الآن. بدا واجماً ثم سمح لي بالدخول.

رأيت جون المترجم في غرفة الاستراحة وقلت له: «محمد إبراهيم يطرق باب الزنزانة يا جون وأنت تعرف ما يعني ذلك».

ركضنا إلى حيث تجمع بعض الحراس عند الزنزانة، وعندما اقتربنا سمعنا صوت الطرق الذي يصم الآذان.

علق أحد الحراس قائلاً: «لا أدري ماذا أصاب هذا المجنون. لقد بدأ بالصراخ وبالطرق على الباب فجأة، لم نستطع إسكاته. إنه على هذه الحال منذ عشر دقائق.

أجبته: «لا بأس. أخرجه من هنا إلى غرفة الاستجواب».

بعد عدة دقائق كان محمد إبراهيم يجلس قبالتي. رفعت الغطاء عن وجهه ورأيت وجهه الأحمر الغاضب.

قال - «لماذا أعامل هكذا؟ لقد فعلت ما قلت لي أن أفعله».

حاولت أن أهدئه قائلاً: «حسناً، لقد طرقت على باب الزنزانة كما قلت لك. والآن، أين هو؟ أين صدام؟»..

- «أريد التحدث إلى بول بريمر» قالها وقد تغيرت ملامح وجهه. قبل نصف ساعة، كان يواجه احتمال قضاء بقية حياته في السجن هو وأسرته. وفجأة، مع احتمال استعادة حريته، بدا وكأنه هو المسؤول.

قلت له: «أسمعني أيها الأبله. لا يوجد بول بريمر في هذه الصفقة. إنها أنت وأنا فقط. من تظن أنه قد اعتقل أفراد أسرتك؟ ومن الذي كشف أصدقاءك باسم وأبا إدريس وتامر العاصي؟ إنه أنا، المحقق صاحب القميص الأزرق، وأنا هو من ستبرم الاتفاق معه. بول بريمر لا يعرف من أنت ولا يهتم، أنا الوحيد الذي يستطيع أن يساعدك. لذا دعنا ننه الموضوع.

حدق بي وقال: «أريد لهذا أن يكون رسمياً. وأنا بحاجة إلى شهادة خطية موقعة من الجنرال الذي يقود هذا الموقع، وهو الرجل الذي أريد أن أتحدث معه الآن».

سألته: «ما هي صفقتك؟ ماذا تريد؟»..

أجاب: «أريد أن يطلق سراحي وسراح كل فرد من أسرتي مع توفير الحماية لنا».

أجبته: «إنك تتكلم عن أربعين شخصاً، وعلينا أن نعرف مكان تواجدهم في جميع الأوقات». بدأت المفاوضات، وها هو يساوم من موقع قوة الآن وكلانا يعرف أن لديه شيئاً أريده. وبطرقه على باب الزنزانة مؤشر على أنه يعرف مكان اختباء

صدام حسين. كذلك فهم كلانا أنه قد بدأ المساومة على طلبات لا معقولة كي يرى بالضبط ماذا يستطيع أن يكسب.

قال: «يمكننا أن نعيش جميعنا في الحي نفسه. ويستطيع جنودكم حمايتنا».

تظاهرت بأنني أفكر بالأمر. لم تكن هناك فرصة لتحقيق أي منها، لكن علي أن أستمر في العملية ثم قلت أخيراً «لك ما تريد، ولكن بعد القبض على صدام».

أجاب: «خذني إلى الجنرال».

لم يكن هذا الكلام يوصلنا إلى شيء. لذلك قلت له: «اسمع يا محمد، أنا الشخص الوحيد الذي يعرف من تكون، ولن يصدقك أحد ما لم أقنعهم بأنك تقول الحقيقة، وأنا الوحيد الذي تتعامل معه».

- «أريد أن أتحدث مع الضابط الآمر».

كنا نصل إلى نهاية مغلقة بسرعة. وكان علي أن استعيد الزخم فقلت: «حسناً، سأحاول أن أجلب ضابطاً كبيراً إلى هنا».

- «يجب أن تكون لديه سلطة توقيع الاتفاق يجب أن نعد خطة». لقد أراد فجأة أن يأخذ بزمام مهمة إلقاء القبض على صدام. لقد كان رجلاً مهماً لمدة طويلة ولم يعتد على فكرة أنه يدلي بمعلومات قيمة لشاب يصغره بعشرين سنة. لكن المهم هو أنه سيؤدي دوره وعلي أن أركز على ذلك.

تركت السجين مع جون وحارس واندفعت لأجد لي عند مكتب الحارس. أخبرته بأن محمد إبراهيم جاهز لأن يتكلم، لكن علي أن أجد شخصاً ذا سلطة ليوقع الاتفاقية.

ذكرني لي بأن الأميرال ماك كرافن ينتظر عند المدرج لكن العقيد ما يزال موجوداً، وهو الثاني في قيادة هذه القاعدة.

- «أين أجده، أحتاج أن أجده بسرعة».

- «هو في العادة ينام في مثل هذا الوقت، فهو يعمل على مدى أربع وعشرين ساعة».

- «هل يغضب إذا أيقظناه؟».

- «سنحاول، ما إن يغط في النوم، من الصعب إيقاظه، لقد حاولت». كان لي مصيباً، فبعد الصراخ في أذانه استطعنا أن نجعل العقيد يفتح عينيه المحمرتين. حدق بنا وهو نصف نائم وسأل: «ماذا هناك؟»..

شرحت له الوضع بوضوح وسرعة وإذ به يقول: «ماذا تريد مني أن أفعل؟».

أريدك أن تلبس زيك الرسمي وتوقع وثيقة.

- تثاءب العقيد وقال إنه سيكون هناك أثناء دقيقة. تركنا الخيمة ووقفنا في الخارج.

قلت لصديقي لي: علي أن أرجع إلى السجن لأجهز محمد إبراهيم لمقابلة العقيد».

فأجاب: «لا أظن أن العقيد سيغادر مكانه. فأنا واثق من أنه لم يسمعك، والساعة الآن السابعة وأربعون دقيقة وعلينا أن نذهب إلى الطائرة الآن».

- «ماذا لو شرحت الأمر كله للأميرال؟ هل تعتقد أنه سيبقى؟».

- «لا أعتقد أن هذا سينفع، إنه متوجه لمقابلة مساعد الجنرال أبي زيد». رأى نظرة الأسى على محياي وقال: «حسناً، سأبذل أقصي جهدي، ستتحرك الطائرة في الساعة الثامنة».

رجعت بسرعة إلى السجن حيث كان محمد إبراهيم ينتظر وقلت له:

«هناك ضابط قادم وسيجهز الاتفاقية للتوقيع، وبعد ذلك، أمامك ثلاثون ثانية لإبلاغنا عن مكان صدام حسين، ولن أتساهل معك أكثر من ذلك».

- «سأبلغه».

- «ماذا ستقول له؟».

- «إني سأساعده في إيجاد صدام».

صرخت فيه: «لا.. لن تساعد في شيء. ستقوم أنت بذلك.. ستأخذنا إلى هناك وإلا لن تذهب إلى أي مكان». لقد آن الوقت لأذكره من المسؤول الآن.

أجاب: «تريد الذهاب، دعنا نذهب أنا وأنت، سنذهب الآن».

«لا تراوغ معي. أريد مكان وجوده، الموقع المضبوط». ليس هناك وقت لتنظيم غارة أخرى. علي أن أكشف أين يختبئ صدام وأبلغهم بالمعلومات قبل مغادرتي. «إذاً سآخذكم إلى هناك» لقد كان بالفعل مستعداً لتسليمنا صدام. وكنت ألاحظ أنه متوجس ومتحمس للفكرة. قلت له: «ستأخذنا، لكن ليس الآن، ستذهب الليلة مع الجنود» وفي الوقت نفسه كان الإعداد على قدم وساق للقيام بالغارة. ملت إليه وقلت: «يجب أن يكون هناك، وإلا لن تحصل على شيء».

أجاب: «سيكون هناك». ضغطت أريد المكان «سيكون أين؟»..

صمت. إذا لم يخبرني الآن، فقد لا يخبر أي شخص آخر. لقد حشرته في الزاوية، وكان الوضع بينه وبيني، أما غيري فسيبدأ من جديد، وقد يكون صدام قد انتقل إلى مكان آخر. فكل خبرتي كمحقق تجمعت في لحظة واحدة. لقد استغرقت ساعتين لكسر أهم قائد للتمرد في العراق. وإذا تكلم، فإن ذلك سيكون قبل أن تسنح له الفرصة لتغيير رأيه. ويجب أن يتم ذلك الآن.

- «إنه في مزرعة في الدور» قالها محمد إبراهيم في النهاية بصوت منخفض كالهمس. إنها في جنوب تكريت، شرق النهر تماماً.

- «مزرعة من؟»..

- «مزرعة تخص رجلاً اسمه قيس نيميك جاسم».

أخذت ورقة وقلماً وقلت لي «أخبرني بالمكان».

رسمت خريطة وهو يتكلم وأنا آخذ منه أكبر كم من التفاصيل. مد سكوت، أحد المحققين رأسه وقال إن لي قد اتصل من عند المدرج قائلاً أنه وقت المغادرة والأميرال ينتظر.

قلت لسكوت: «أعرف أنك لا تعرف من أنا. وليس هناك من سبب لتصدقني». أعطيته الورقة وقلت له هذه خريطة الموقع الموجود فيه صدام حسين. اتصل بتكريت وتكلم مع كيلي المحلل هناك. أبلغه أننا قد قبضنا على محمد إبراهيم أمس وسيأخذنا إلى صدام. التفت نحو السجين وتبادلنا نظرات أخيرة

وقلت له: «يجب أن يكون هناك ويجب أن تكون مصيباً وإلا لن ترى ضوء النهار ثانية».

أومأ برأسه وقال: «سآخذكم إليه». بدا هادئاً الآن ومرتاحاً تماماً. لم يعد لديه شيء يخفيه، وقد اكتشفت ما احتجت أن أعرفه. لقد وصلنا كلانا إلى نقطة تحول.

الفصل التاسع عشر

الآس في الحفــــرة

08:10

2003/12/13

كـان لـي بانتظاري عند المدرج عندما وصلت بعد بضع دقائق. وكـان ضجيج المحرك يصم الآذان، وسألت لي: «هل تكلمت مع الأميرال؟ أومأ برأسه، لكني عرفت من تعابير وجهه أن الخبر لم يكن كما توقعته. قال لي: «لا أظن أنه كان يصغي، أخبرته أن لديك معلومات قد تؤدي إلى القبض على صدام حسين، لكنه أومأ برأسه فقط. لا أعتقد أنني قد أثرت فيه، ربما عليك أنت أن تجرب معه».

لمحت الأميرال ومجموعة المحللين والمساعدين يتخذون أماكنهم في الطائرة فأسرعت للقائه. قال لي: «من الجيد أن نراك يا رقيب مادوكس. هل أنت مستعد لتقديم ذاك الإيجاز؟».

أجبته: «أجل يا سيدي، لكني أظن أنك يجب أن تعرف أن الوضع قد تغير. لقد قبضنا على محمد إبراهيم أمس وأعطانا مكان اختباء صدام».

حدق الأميرال بي. وكقائد لكامل قوة المهمات الضاربة في العراق، كان يتعامل مع فيض من المعلومات يومياً، وإذا كان ما قلته له صحيحاً، فقد افترض أنه سيسمع بالأخبار من مصادر عليا في القيادة. ولا أدري هل صدقني أم أنه قرر أن ينتظر حتى تأتيه الأنباء من مصادر موثوقة. ربطنا المقاعد وأخذت الطائرة بالتحليق. إننا نغادر العراق وأي شيء أقوله لن يغير الوضع.

عندما كنا في الجو فكرت فيما إذا كان الأميرال يريدني أن أضمن إيجازي خبر اعتقال محمد إبراهيم. وبعد وصولنا إلى الدوحة بعد ساعتين ونصف نزل الأميرال وحاشيته وتوجهوا إلى مجموعة من الرجال الذين كانوا بانتظاره.

كنت أود أن أكلمه ثانية، لكن أمتعتي الشخصية التي كانت تتساقط على الطريق منعتني من اللحاق به. قال لي: «اترك الأغراض والحق به». وصلت إلى الأميرال الذي التفت نحوي وقال: «أخبرني ثانية ماذا حدث أمس يا إدوارد».

قلت له: «إيريك سيدي، وأخذت أحدثه عن اعتقال محمد إبراهيم وأنه قبل مغادرتنا أخبرني أنه سيأخذنا إلى مكان اختباء صدام حسين، ورسم خريطة للموقع، وهي معهم في سجن مطار بغداد.

استطعت أن أرى أن المعلومات قد وصلت إليه. وفي الوقت نفسه جاء أحد ممثلي مركز العمليات التكتيكية وأخبر الجنرال بأنه بحاجة إلى الاتصال بتكريت.

بعد عشر دقائق عاد الأميرال وقال لي وهو مبتهج: «إنهم يحاولون القيام بعمل ما». ثم التفت إلى طاقمه وقال لهم: «سنرجع ثانية حالما يملؤون الطائرة بالوقود، ولن يمنعني شيء من أن أكون خارج العراق عندما يقبضون على هذا الرجل الكبير».

خفق قلبي بشدة. سأعود لأتم ما بدأته. التفت الأميرال إلي وقال: «أريدك أن تبقى هنا يا رقيب مادوكس، علينا أن نقدم إيجازاً للجنرال كستارد عن قائمة الارتباطات كما هو مخطط».

نظرت إلى لي وأنا غير مصدق. فإذا كان على أحد أن يرجع فهو أنا. وكانت ردة فعلي أن أكلمه بأن يسمح لنا بالعودة معه، لكن الأميرال لم يكن يأخذ رأيي، فقد قرر هو ما يريد.

«تمنى حظاً سعيداً لنا» قال الأميرال وهو يتوجه إلى الطائرة.

بلعت ريقي ولم أستطع أن اضبط مشاعري وقلت: «لم يكن ذلك حظاً يا سيدي». توقف ونظر إلي ثم حدق بي لبرهة طويلة ثم استدار وتوجه نحو الطائرة.

تقدم الجندي الذي كان سيقلنا من مدرج الهبوط إلى المبنى وقدم نفسه على أنه الرقيب بيترز. كان يصغي لكلامنا وسألني باستغراب: «أنت تعرف مكان اختباء صدام حسين؟». أجبته بالإيجاب. سألني لماذا لم أعد معهم، فقلت ربما لم

يعودوا بحاجة لي بعد ذلك، وكل ما عليهم الآن هو أن يدلهم محمد إبراهيم على المزرعة.

بعد ست ساعات، كنت أجلس في غرفة أنيقة في فندق فخم أطل منه على قلب مدينة الدوحة. دب في الإعياء بحيث لم أستطع أن افتح عيني. وكنا قبلها قد قضينا الوقت نتجول في الدوحة ثم انتهى بنا المطاف إلى مطعم راق ذقنا فيه أشهى أطباق الشرق الأوسط في وليمة فاخرة. لم أكن قد تذوقت مثل هذا الطعام الشهي منذ أكثر من خمسة شهور. وكنت وأنا مستلق على السرير الفاخر أفكر فيما يحصل هناك في تكريت.

استيقظت بعد منتصف الليل فجأة. فتحت التلفاز وكانت فرحتي كبيرة بانتصار فريق سنوكرز وفوزه بالكأس.

☆☆☆

في السابعة كنت أنا ولي في بهو الفندق، وهناك التقينا بالرقيب بيترز الذي نقلنا لتقديم الإيجاز للجنرال كستارد. قال بيترز إنه قد ذهب إلى مركز العمليات وهناك شاهد الغارة التي قاموا بها على مكان اختباء صدام. قال إن محمد إبراهيم قد أخذهم إلى الموقع وكان هناك شخص على سطح المنزل وآخر قرب البيت كانا يحرسان المكان. كان هذا ما توقعته. فالحراسة المكثفة تثير الانتباه. لكن بيترز لم يقل فيما إذا قبضوا على صدام أم لا. كنت قلقاً أثناء سيرنا في المركبة لأنني كنت أريد أن أعرف ماذا جرى. وكل ما أردت سماعه هو الرد على سؤال واحد: «هل قبضنا عليه؟».

وصلنا إلى مركز العمليات التكتيكية ونحن نلحق بالرقيب بيترز حتى وصلنا إلى باب دق عليه، فأطل من شق الباب رأس رائد ينظر إلينا، فسأله بيترز: ماذا حدث؟ هل حدث شيء البارحة؟ هل قبضوا على أحد في تلك الغارة أمس؟ أجاب الرائد بهمس «أجل، لقد قبضنا عليه».

وقفت بلا حراك، ومر شريط طويل من الأحداث أمام عيني، وتذكرت الزملاء الذين عملت معهم في تكريت والغارات التي كانوا يقومون بها. وعندها أمسك لي ذراعي وقال: «لقد فعلتها يا إيريك». لقد فعلتها».

كان الرقيب بيترز يحدق بنا، وارتبك الرائد. قال له الرقيب بيترز: «هذا هو المحقق الذي أصاب هدف البارحة». قام الرائد على الفور واصطحبنا إلى غرفة أرانا فيها بعض الصور التي أخذت لصدام، وأخذ يسرد علينا تفاصيل الغارة.

قام فريق تكريت وفريقان من بغداد بالغارة وضربوا طوقاً واسعاً حول المزرعة. قضى الرماة ساعة في التفتيش ولم يجدوا شيئاً. كان محمد إبراهيم يصرخ على قيس نيميك جاسم، الذي كان يعيش في المزرعة، ليريهم أين كان صدام يختبئ. كان محمد إبراهيم يعرف البقعة بالضبط، لكنه لم يرد أن يكون الشخص الذي يكشفها، أراد أن يقوم قيس بذلك. ولما أدرك محمد إبراهيم أن الأمر سيعود إليه في النهاية خطا بضع خطوات وبدأ يدق الأرض. لاحظ اثنان من أعضاء الفريق أنه يكشف ببطء عن حبل ثم أخذهم محمد إبراهيم إلى النقطة الصحيحة. بعد أن شدوا الحبل وجدوا باباً لحفرة كان يقبع فيها القائمة السوداء رقم 1 - صدام. عندما فتحوا الباب أمره الجند بأن يرفع يديه. رفع واحدة وكانت الأخرى تذهب نحو مسدس غلوك. وبعد حضور مترجم رمى المسدس ورفع كلتا يديه ثم أخرجوه من الحفرة.



الحفرة التي كان فيها صدام حسين

قال الرائد: «لم نكن قط لنجده من دون مساعدة فرد الحماية ذاك (محمد إبراهيم).

سأل لي: «ما الذي سيفعلونه بصدام؟».

أجاب الرائد: «سيأخذونه إلى سجن بغداد» ثمَّ التفت نحوي وقال: «أعتقد أن إيجازك للجنرال كستارد قد ألغي، لكن هناك بعض المحللين الذين يودون رؤيتك. لحقت بالرائد عبر باب آخر إلى قاعة مؤتمرات فسيحة حيث كان نحو ستة محققين بانتظاري. وحالما أخذوا مقاعدهم بدأت بتقديم إيجاز لهم. بعد انتهائي، سأل أحد المحققين: «كيف عرفت من أين تبدأ؟».

أجبت: «لم أعرف. لقد كنت أترك المساجين يقودونني من البداية. عندما وصلت إلى تكريت، لم تكن لدي أفكار سابقة وهذا ما عمل لصالحي. قمت بعمل قائمة علاقات بناء على ما يقوله لي السجناء وليس كما يفترض الآخرون».

محقق آخر: «ما هو أنجع أسلوب استخدمته في استجواباتك؟».

أجبت: «كنت أستعمل التهديد باعتقال أفراد أسرة المحتجزين. والكثيرون من هؤلاء المعتقلين لم يكونوا فعلاً من المتمردين، لكن الكثيرين منهم لديهم معلومات مهمة كنت بحاجة إليها. وقد كنت أؤكد لهم ذلك وأجعلهم يفهمون بأنهم كأفراد أسرة للمتمردين فإنهم هم أيضاً متورطون. كنت أجعلهم يفهمون أنهم أن كانوا أبرياء وتعاونوا معي، فإنه سيطلق سراحهم. كذلك كنت أستخدم أفراد الأسرة الواحدة لمواجهة بعضهم. وقد أثبت هذا فعاليته، وكان له تأثير أكبر عندما يعلم أحد الأقارب أنك تكذب، وقد استغللت هذه القرابة لمصلحتي».

- «ماذا يستطيع صدام أن يخبرنا؟». سأل المحقق نفسه.

أجبته: «شيء واحد. يستطيع أن يخبرنا عن مكان مليارات الدولارات التي خبأها في سورية وتركيا، تلك النقود التي كان سيستعملها لتمويل التمرد وإعادة بناء نظامه عندما نخرج من العراق».

- «هل سيتكلم؟». سأل محقق آخر.

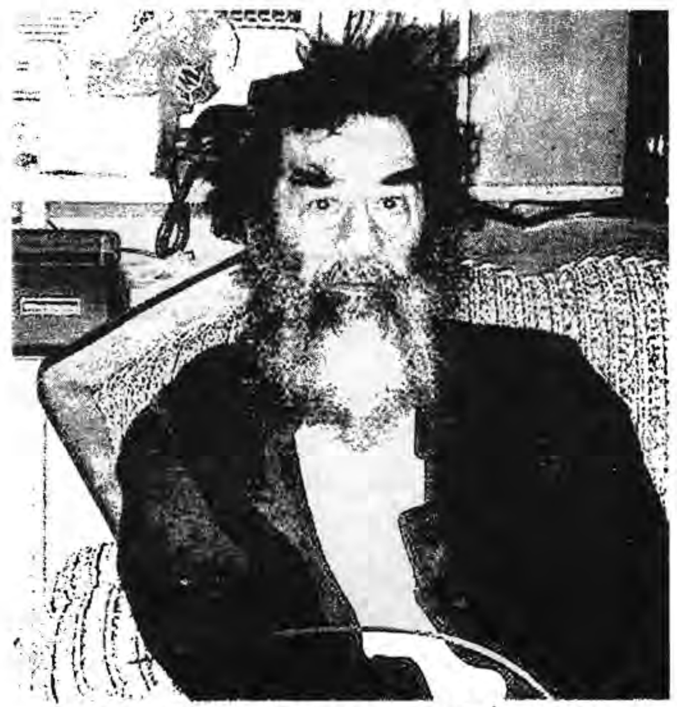
- «سيتكلم لي. سيريد أن يعرف من خانه وكيف تم اعتقاله.

نستطيع أن نقايض حول تلك المعلومات».

بهذا انتهت الجلسة، وتجمع المحللون حولي يهنئونني. جاء الرقيب بيترز وأخذنا إلى الفندق، فطائرتنا ستكون في وقت متأخر تلك الليلة. لم تصل المعلومات إلى القنوات الإعلامية، لذلك طلب المسؤولون منا ألا نخبر أحداً بما حدث أو أننا في طريقنا إلى الوطن. لم نمانع. ومع كل ما حدث في الأربع والعشرين ساعة الماضية، كنا نتوقع أن يعيدونا إلى العراق.

صعدنا إلى طائرة متوجهة إلى لندن، وحاولت أن أنام في تلك الرحلة الطويلة. تتالت الأحلام علي وكلها تتعلق بالاستجوابات. وقد أيقظني لي أكثر من مرة لأنني كنت أصيح في الطائرة.

عندما وصلنا مطار هيثرو كانت الأخبار تذاع. لقد تم القبض على صدام حسين. وعندما جلست في حانة المطار أستمع إلى كلمات الناس المبتهجين شعرت بأنني مشدود وتعب. كنت أتطلع للوصول إلى بيتي. لقد أتيت إلى الحرب لا أعرف ما الذي أستطيع أن أفعله أو كيف أفعله. الآن ليس لدي شك. لقد كنت محققاً، وكان ذلك جزءاً مني كاسمي ورتبتي ورقمي العسكري.



صدام في صورة أخذت بتاريخ 2003/12/14 بعد ساعات من اعتقاله

خاتمـــة

مهما فكر بقية العالم فيما يخص إلقاء القبض على صدام حسين، فإن الجيش الأمريكي قد نظر إلى ذلك على أنه معلم رئيس في الحرب.

عندما حطّت طائرتنا في واشنطن العاصمة، كانت الأنباء قد انتقلت بسرعة البرق، وفي اليوم التالي استدعيت أنا ولي لتقديم إيجاز لرئيس وكالة استخبارات الدفاع الأميرال لويل جاكوبي. كما تواجد في الإيجاز الجنرال بيرغيس قائد العمليات الخاصة في الجيش.

- «رقيب مادوكس. سمعت أشياء مبهرة عنك في اليومين الماضيين» قال الأميرال عندما دخلت أنا ولي إلى مكتبه، ثم تابع قائلاً «كي أقول لك الحقيقة فإن القصة التي وصلتني قد يكون مبالغ فيها لأنها»... توقف ثم تابع «لماذا لا تخبرنا بالقصة بكلماتك أنت؟».

عندما انتهيت بعد ساعة، لم يقل أحد من كبار الضباط شيئاً. ثم كسر الأميرال جاكوبي الصمت وقال: «رقيب مادوكس، بصفتي رئيساً لوكالة استخبارات الدفاع فإن هناك جائزة سأقدمها لك. إنها تدعى جائزة المدير، وهي أعلى وسام تقدمه وكالة استخبارات الدفاع، وعادة ما تقدم إلى المدنيين، لكنهم سمحوا لي بأن أقدمها لفرد عسكري إذا سمح الوضع بذلك. وأعتقد أن الوضع قد بررها. أخرج الشهادة من درجه وقرأها بصوت عال. كنت مدهوشاً بحيث إنني لم أسمع كلمة مما قرأ.

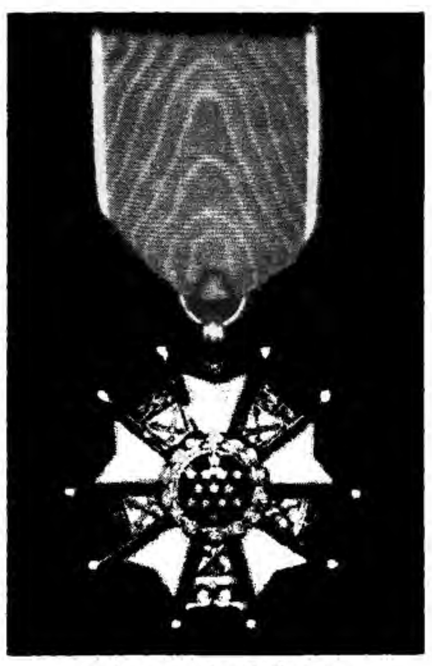
عند انتهاء الاحتفال، سألني الأميرال: «ما هو جدولك لهذا الأسبوع؟ إن وزير الدفاع يود أن يتكلم معك في أقرب وقت ممكن».

أجبت: «أنا جاهز يا سيدي».





بورت غوس مدير وكالة المخابرات الأمريكية يقدم للكاتب ميدالية الإنجاز لدوره في اعتقال صدام حسين



وسام الشرف الذي منح للكاتب

بعد يومين، عندما وصلنا إلى مكتب وزير الدفاع دونالد رمسفيلد في البنتاغون، وجدنا أن الحضور قد ازداد حيث شمل وكيل وزارة الدفاع بول وولفويتز والجنرال البحري بيتربيس الذي سمي فيما بعد قائد القوات المشتركة والأميرال جاكوبي.

المكتب الصنوبري الضخم الذي لم أر مثيلاً له من قبل كان يحتل معظم مساحة الغرفة ووراءه مكتبة ضخمة تصل إلى السقف. كان يجلس وراء مكتبه، وعندما دخلنا ترك مكانه وأتى ليستقبلنا.

قال الأميرال:

«سعادة الوزير، أود أن أقدم لك الرقيب إيريك مادوكس. إنه محقق عسكري عاد التوة من العراق».

ردد الوزير رمسفيلد «الرقيب مادوكس» ونظر إلي ملياً. لم يكن هناك من أجل التحيات لقد كان يريد إيجازاً استخبارياً.

بعد تقديم لي تابع الأميرال جاكوبي قائلاً:

«سعادة الوزير، أودك أن تسمع إيجازاً من الرقيب مادوكس»

قالوا لي إن أمامي عشرين دقيقة لفعل ذلك.

بدأت على الفور وأنا أنتقل بسرعة بين الأحداث التي مرت أثناء الخمسة شهور التي أمضيتها في تكريت، وكنت ألاحظ أن الوزير كان يتابعني باهتمام.

بعد انتهاء العشرين دقيقة كان ما يزال يستمع. لذلك أكملت الإيجاز بعد عشر دقائق. وعندها سأل:

«كم نحن قريبون من القبض على آخر أفراد التمرد؟».

أجبت:

«سيدي، أظن أننا قريبون جداً».

التفت إلى الأميرال جاكوبي وقال:

«جيك! ماذا يفعل هذا الشخص هنا؟

يجب أن يعود إلى العراق».

أجاب الأميرال:

«سيدي الوزير، لقد انتهت مهمتهم. فآخر يوم في خدمة الرقيب مادوكس كان يوم القبض على صدام حسين».

أجاب الوزير:

«يا إلهي! لقد اقترينا لهذا الحد من إنهاء التمرد وتسمحون لهذين الاثنين بالعودة إلى الوطن. أريدهما أن يعودا إلى العراق».

«أجل يا سيدي» أجاب الأميرال.

قلت:

«إن حقائبنا جاهزة ونحن على استعداد للعودة».

في تلك اللحظة دخل أحد المساعدين وهمس في أذن الجنرال بيس الذي خاطب الوزير قائلاً:

«سيدي، لقد وصلني تقرير بأنهم قد وجدوا أحد عشر مليون دولاراً في مزرعة محمد إبراهيم».

نظر إليَّ الوزير ونهض، ران الصمت على الجميع عندما أخذ الوزير يمتدح عملي. وكان هذا أفضل ما كنت أتمناه في حياتي العسكرية.

★★★

في مساء ذلك اليوم أخذونا إلى مقر وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي بولاية فرجينيا لتقديم إيجاز لرئيسها جورج تينيت. وعلى عكس زيارتنا للوزير رمسفيلد، كانت هذه الزيارة لتلقي المديح والتربيت على الكتف.

مضت عدة أيام على اعتقال صدام حسين ووجدت أن هناك العديد من الذين كانوا يتمنون أن لو تم الأمر عكس ذلك. فهناك الكثيرون من موظفي المخابرات من مختلف الوكالات قد عينوا لإيجاد صدام حسين، وكان هناك الكثير من المحققين وجامعي الأخبار الذين كانوا يعملون للقبض على صدام. كان الميدان مفتوحاً للمنافسة وللحسد المهني.

كان جورج تينيت ودوداً وأراد أن يضيف تهانيه لنا. بعد ذلك مال على أحد موظفيه وسألني:

«هل تريد وظيفة؟».

اعترض الأميرال جاكوبي وقال:

«لا تفكر في ذلك. ما خططك يا رقيب مادوكس؟

قال زميلي لي له:

«إنه بحاجة إلى عمل، لكنه لن يطلب ذلك من أحد أبداً».

وقلت للأميرال:

«سأغادر الجيش في نيسان، وأفكر في إرسال طلبات العمل إلى وكالة الاستخبارات المركزية أو مكتب التحقيقات الفيدرالي».

سأل الأميرال:

«وماذا عن استخبارات الدفاع؟».

أجبت:

«طبعاً يا سيدي».

قال الأميرال:

«اذهب لبيتك وارتح يا رقيب مادوكس. وعندما تكون مستعداً للتحرك، فإن كل ما أطلبه هو أعطائي الحق في الرفض الأول».

- سأفعل ذلك يا سيدي. ثم سألته السؤال الذي كان يتردد في رأسي:

«سيدي، ذكر الوزير رمسفيلد شيئاً عن عودتي أنا ولي إلى العراق». نظرت إلى لي الذي قال للأميرال:

«سيدي، كما قال الرقيب مادوكس للوزير رمسفيلد هذا الصباح، حقائبنا جاهزة ونحن مستعدون للعودة».

★★★

عندما رجعنا إلى مكتب الأميرال كان هناك طلب آخر لنا بتقديم إيجاز. كان الطلب من الجنرال الكسندر قائد الاستخبارات للجيش كله. كان إيجازي

له مثل الإيجازات السابقة جميعها، وإذا به يقاطعني وهو يرفع مقالة من صحيفة نيويورك تايمز قائلاً:

«إلى ماذا تشير هذه المقالة؟». نظرت إلى العنوان الرئيس وإذا به «الفرقة الرابعة تصطاد صدام حسين».

لم أصدق عيني. لم يكن ذلك لأن بعضهم قد نسب الفضل إلى الغير، وإنما لأن رئيس استخبارات الجيش يعتمد على الصحف في الحصول على المعلومات. وجعلني ذلك أفكر بالصراع البيروقراطي الداخلي المتفشي بين مختلف وكالات وفروع الحكومة.

قلت للجنرال الكسندر:

«آسف يا سيدي، لم يسمح لأي وسائل إعلام بالاقتراب من أي من العمليات. وعندما كنا نحظى بهدف ثمين في تكريت، كنا نحيله إلى الفرقة الرابعة وهم يقدمون إيجازاً للصحافة، لكن لا أحد في الفرقة الرابعة له علاقة باعتقال صدام.

ربما كنت مباشراً في شرحي لعدم وجود علاقة للفرقة الرابعة. كنت أخبره حقيقة بسيطة. لو كنت سكت، لم يكن ليتغير شيء، لكن ما حدث أوضح أن الجيش كان مهتماً بما أنجزته وكيف فعلت ذلك. بعد دوامة التوقف في العاصمة واشنطن بقليل، تلقيت أنا ولي خبراً بأن الجنرال الكسندر سيرسلنا في جولة نقدم فيها إيجازات استخبارية عن مدة وجودنا في العراق. وفي الأشهر الثلاثة التي تلت زرنا قواعد في الولايات المتحدة وفيما وراء البحار حيث شاركناهم ما تعلمناه وما أنجزناه في العراق.

إحدى وقفاتنا كانت في فورت براغ في ولاية نورث كارولينا حيث اجتمعت بالصدفة بصديقي القديم كيلي الذي عاد من العراق وتمركز في القاعدة. كنت سعيداً لالتقائي به على الرغم من أن الكثير من الأحداث قد وقع قبل اعتقال صدام حسين، وعلى الرغم من الضجة الإعلامية والتغطية التي حصلت، إلا أنني و كيلي كنا الشخصين الوحيدين اللذين يعرفان ما حدث بالواقع.

بعد تبادل التحية، قال لي كيلي:

«لدي تذكار لك يا إيريك».

أجبته:

«هل هو حصة من المليون وتسعمئة ألف دولار؟».

ضحك وقال:



سيجار صدام حسين
الذي أهدي إلى الكاتب

«لا. لقد أنفقنا ذلك المبلغ، لكن عندما سحبنا صدام من الحفرة كان معه شيئان يحتفظ بهما: مسدس عيار 9 مليمتر أهديناه للرئيس جورج بوش وصندوق من السيجار الهافاني، وقد احتفظنا بواحد لك». مد يده إلى جيبه وناولني إياه.

كانت تلك أثمن هدية تسلمتها في حياتي. فقد عنت لي مثلما عنى لي استلامي وسام الشرف عن أعمال اعتبرت «محورية في استخلاص معلومات استخباراتية عملياتية من موقوفين أدت في النهاية إلى اعتقال العديد من قادة النظام العراقي السابق وإلقاء القبض على صدام حسين».

⁂

إحدى وقفاتنا الأخيرة كانت في قاعدة فورت هوود في ولاية تكساس، مكان تمركز الفرقة الرابعة. عندما دخلت أنا ولي القاعدة كان أول شيء أثار انتباهنا هو لوحة كرتونية ضخمة تظهر يداً تحمل الآس البستوني (الذي يرمز إلى صدام حسين في ورق اللعب الذي وزعوه على الجيش الأمريكي في العراق). حدقت أنا و لي ببعضنا ثم سألته:

«هل تظن أن لديهم فكرة عن ماذا سيكون إيجازنا؟».

كثيرون حاولوا أن يدعوا الفضل في اعتقال صدام حسين، لكني أعتبره دوماً جهداً فردياً. من دون الثقة والإلهام والتصميم الأكيد الذي أظهره الجنود لم يمكن تحقيق هذه المهمة. سأنال ميدالية الإنجاز الوطنية للاستخبارات عن الجزء الذي قمت به وهو كما يلي:

«بواسطة مهارته وإخلاصه، طور الرقيب مادوكس فهماً فريداً شاملاً للشبكات المعقدة التي تدعم القيادة العراقية السابقة... وقد نجم عن ذلك تطوير استخبارات عملياتية قدمت للمحللين والجنود وأدت مباشرة إلى اعتقال صدام حسين وقادة عراقيين كبار. إنجازات الرقيب مادوكس تعكس فضلاً كبيراً له ولجيش الولايات المتحدة ووكالات الاستخبارات».

هذا الفضل والفخر الذي أشعر به من تلك الكلمات تخص أيضاً الرجال الذين كان لي الشرف في العمل معهم.

الفهرس



MISSION: BLACK LIST # 1

The Inside Story of the Search for Saddam Hussein As Told By the Soldier Who Masterminded His Capture

بعد فضائح سجن أبي غريب وأساليب التعذيب البشعة التي كان المحققون الأمريكان يتبعونها مع السجناء العراقيين الذين لا ذنب لهم، وما تلا ذلك من فضائح طالت كبار المسؤولين الأمريكيين من المحافظين الجدد ورجال القانون الذي وضعوا أو أجازوا أساليب التعذيب والإذلال، جاء هذا الكتاب وكأن صاحبه بشكل مباشر أو غير مباشر يبرئ نفسه من تلك التهم البشعة التي ألصقت بالمحققين.

يسرد الكتاب أحداث دخول القوات الأمريكية إلى العراق، وكيفية اعتقالها للرئيس صدام حسين، بكل ما في هذه الأحداث من تفاصيل. والكاتب هو المحقق الذي يعتبر نفسه صاحب الفضل في عملية الاعتقال.

يحاول الكاتب أن يظهر مهارته كمحقق ويعدد أساليب الترغيب والوعود التي كان يكيلها للمتهمين وهو يدرك تمام الإدراك أن شيئاً من وعوده لن يتحقق. وتأتي قمة الاستغفال عندما يروي تفاصيل التحقيق مع صديق ومرافق صدام حسين (محمد إبراهيم) الذي باعه للأمريكان ببساطة مقابل وعد بإطلاق سراحه وحمايته هو وجميع أفراد أسرته. وذلك هو أسلوب الأمريكان الذي عهدناه، والذي لن يتغير أبداً.

أما ما لم يشرحه، فهو تخبط القوات الأمريكية المغيرة وحيرتها أمام المقاومة. ومدى الخوف الذي كان يعشش في نفوس الأمريكان كمحتلين.

قد يكون هذا الكتاب قصة سردية لعمل مؤلفه، لكنه يعطينا مجالاً واسعاً للتفكير، واستنباط أمور أخرى غير موجودة في الكتاب.

ISBN 978-9933-18-697-5



9 789933 186975 >

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين ـ سورية ـ دمشق. ص.ب ٣٠٥٩٨ هـ ٥٦١٧٠٧١ ف ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني ala-addin@mail.sy الموقع الإلكتروني www.zoyaala-addin.com